

@2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

الترقيم الدولي المعياري للدورية
ISSN: 2536-9548



اللغة والدراسات البينية

دورية، دولية، محكمة

العدد الرابع ❖ المجلد الأول ❖ 30 كانون الأول (ديسمبر) 2016

أى نهضة لا تبدأ بإصلاح اللغة لا يُعوَّل عليها

الرؤية

تنطلق دورية "سياقات" من رؤية شاملة للحراك المعرفي تتخطى العزلة المعرفية والمنهجية، وينفتح إلى تجاوز أحادية مصدر المعرفة، ويتجاوز وثنية المنهج بقراءة الظواهر وفق رؤية منهجية طيعة لما تُمليه هذه الظواهر.

الرسالة

يسعى فريق العمل في سياقات إلى أن تكون مجلة سياقات المتخصصة في الدراسات اللغوية هي المنفذ الأهم الذي تطل منه دراسة البينيات، ورأينا أن تكون اللغة هي المركز الذي تدور حوله كل الدراسات البينية. لذلك نحن نستقبل كل الدراسات العلمية التي تضع اللغة في بؤرة اهتمامها سواء في حقل اللغات المقارنة أو علم اجتماع الأدب أو علم النفس اللغوي أو الأنثروبولوجية اللغوية أو السرديات التاريخية أو غيرها مما يمكن أن يلقي أضواء على تلاقحات اللغة والحقول المعرفية.

فإن الدراسات في حقل الإنسانيات تثبت أنه لا يمكن عزل فرع منها عن بقية الفروع، إن جذور ظواهر ما في حقل الأدب مثلا يمكن أن نجدها في حقل علم النفس، ولا يمكن فهم النفس معزولة عن محيطها الاجتماعي، والاقتصاد لا يشتغل بعيداً عن السياسة وهكذا. هذا الأمر نجده كذلك في حقل العلوم الطبيعية.

من هنا جاءت الدراسات البينية بوصفها ملتقى حقول يسعى إلى تشكيل منظور متسع يتكون من المعرفة والمهارات والتواصل. لقد نشأت الدراسات البينية لتسهل دراسة الموضوعات التي يبدو فيها نوع من التجانس، لكن لا يمكن تناولها داخل حقل إنساني واحد، وهو لذلك يسعى لخلق شيء جديد عابر للحدود والحقول المعرفية.

هيئة التحرير والهيئة الاستشارية

قواعد النشر بالمجلة

ترحب المجلة بنشر البحوث والدراسات المعمقة والمراجعات في مجالات اللغات والآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية والدراسات البينية النظرية والتطبيقية في فلسفة اللغة ونظرية الأدب والدراسات التاريخية والاجتماعية والنفسية والقانونية المتصلة باللغة والأدب والفنون الشعبية واللسانيات وتحليل الخطاب باللغة العربية أو إحدى اللغات الأجنبية المعتمدة .

كما ترحب المجلة باستعراض الكتب ذات القيمة العلمية في مجال تخصصها ،وفق الضوابط المتاحة في صفحة المجلة في موقعها الالكتروني وفقا للقواعد التالية:

1-يتم استلام البحث على برنامج (Microsoft Word) عبر البريد الإلكتروني للمجلة، ويراعى في المتن خط(traditional Arabic)(حجم14) ، وفي الهامش (حجم 12) و في العناوين (حجم 16 غامق)، أما البحوث باللغات الأجنبية فيكون حجم الخط في المتن(12) وفي الهامش(10).
2- يخبر أصحاب المشاركات بوصول مادتهم إلى المجلة خلال أسبوع من تسلمها.
3- يخبر أصحاب المشاركات بقرار المحكمين خلال مدة لا تتجاوز شهرا من تاريخ الإرسال.
4- أن يلتزم الباحث بإجراء التعديلات المطلوبة في أجل لا يتعدى 30 يوما من تاريخ المراسلة.
5- تخضع جميع البحوث المرسلة إلى المجلة للتحكيم العلمي السري .
6-أن يكون البحث مبتكرا أصيلا، ولم يسبق نشره في أيّ وعاء نشر آخر، ويقدم الباحث إقرارا خطيا يتعهد فيه بذلك.
7-أن يكتب البحث بلغة سلمية.
8-أن يعتمد الباحث الأسس العلمية في كافة خطوات البحث، متبعا قواعد التوثيق العلمي ويجب أستخدام الأرقام للأشارة للمراجع المستخدمه فى البحث ويتم ترقيمها تبعا لظهورها فى البحث ويستخدم الهامش للشرح الأضافى لأى نقطة داخل السياق، وتلحق بالبحث في نهايته قائمة المصادر و المراجع مفصلة ومرتبة ترتيبا هجائيا، وفق الشكل التالي:(اسم المؤلف، سنة النشر، عنوان الدراسة، رقم الطبعة، بلد النشر، دار النشر، الجزء والصفحة، ويتبع هذه الطريقة في المراجع العربية والأجنبية.
9-أن تكون الصور و الجداول — إن وجدت- واضحة وموثقة .
10- أن يقدم الباحث ملخصا لبحثه في حدود 200 كلمة باللغة العربية، وملخصا مماثلا بإحدى اللغات الأجنبية المعتمدة(إنجليزية- فرنسية- ألمانية).
11- أن تكون عدد كلمات البحث ما بين (6000 إلى 12000 كلمة)
12-تحتفظ المجلة بحقوق النشر، ويمكن للباحث إعادة نشر بحثه في وعاء أكاديمي آخر، بعد مضي سنتين على نشر البحث في مجلة " سياقات" مع الإشارة إلى ذلك .
13- البحوث المنشورة تعبر عن آراء أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة، ويتحمل الباحث المسؤولية الكاملة عن صحة المعلومات المدلى بها.
14- يمنح كل مشارك في المجلة سبعة مستلات عن بحثه المنشور.
15-ترسل البحوث منسقة ومصححة بعد إجراء التعديلات اللازمة عليها على بريد المجلة الإلكتروني(contexts@naturalspublishing.com)، مشفوعة بخطاب طلب نشر موجه إلى رئيس تحرير المجلة.

تطوير مهارة القراءة الناقدة عند طلبة الدراسات العليا الأجانب في ضوء المقاربة بالكفايات وتحليل النصوص الأصيلة، مثل من جامعة الملك سعود

أ.د. نعمان عبد الحميد بوقرة[1]

[1] أستاذ اللسانيات العامة وتحليل الخطاب بالكلية الجامعية في القنفذة، جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية
namanboug@hotmail.com

الاستلام	٢٠١٦/٥/١٩	المراجعة	٢٠١٦/٩/٢٤	النشر	٢٠١٦/١٢/٣٠

الملخص

تطمح هذه الدراسة إلى إبراز أهمية القراءة الناقدة للنصوص الطبيعية و الواقعية ،أو ما بات يعرف بالنصوص الأصيلة في مجال تعليم اللغة العربية الفصيحة بوصفها لغة ثانية للطلبة الأجانب، حيث يسعى المنهاج الدراسي إلى تحقيق اكتساب مهاراتها اللسانية و الفكرية في التواصل ،من خلال تدريس مقرر تحليل الخطاب في ضوء المقاربة بالكفايات، وهذا من أجل مساعدتهم في الاندماج في الحياة الاجتماعية

Develop critical reading skills at the graduate foreign students in light of the approach competencies and analyzing authentic texts, an example of the kings Saoud University

Prof. Noaman Abd Elhamed Bokarah[1]

[1] Professor of General Linguistics and discourse analysis in the university college Qunfudah, University of Umm Alqura- Saudi Arabia, namanboug@hotmail.com

Received	19/5/2016	Revised	24/9/2016	Published	30/12/2016

Abstract

This studying aims at introducing the importance of critical reading of natural and real texts, or what is known as the authentic texts in teaching standard Arabic as a second language for international students, it also aims at improving their linguistic and thinking abilities in using standard Arabic for communication-through making use of comparison of proficiencies in teaching discourse analysis and other linguistic skills, Based on the competencies approach. In order to help this group to integrate into the social life.

❖ تنوير

إن تعليم اللغة العربية بوصفها نسقا من المهارات التواصلية و اللسانية في ضوء المقروء والمسموع يقوم على تعليمية النصوص والخطابات بدرجة أساس ، فقد أثبتت الطرائق التعليمية التقليدية فشلها حين اكتفت بتعليم القواعد وتحفيظ الشواهد والأمثلة الجزئية [1] ، وغظت الطرف عمّا تحمله النصوص من كفايات تواصلية و إبلاغية في مستوى المحاورة والكتابة و النقد والمحاججة، وغيرها من الأفعال اللغوية التبالغية، ولعل الاهتمام بمهارة قراءة النصوص، وتنمية **الكفاية النقدية** لدى المتعلمين، وتنزيلها المكانة الوظيفية اللائقة في التدريس بعامة وتعليم اللغات الأجنبية بخاصة في مستوى اختيار المادة والمحتوى الدراسيين، وابتداع الطرائق الوظيفية المناسبة يمكن أن يسهم في حل كثير من مشكلات التعلم والاكتساب لدى هذه الفئة ، وتزعم هذه الدراسات تقديمها لنوع مهم من النصوص والخطابات يمكن استثماره بدرجة عالية في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها من طلاب الجامعات في ضوء **تجارب ميدانية منجزة** ،حيث تمتحن العينة المختارة منهم في قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود(دفعة 2012) ،كفاءة **النص الأصيل** الذي لم يعد أصالة لتعليم اللغة في تجسير الهوة اللسانية والأدبية والثقافية والاجتماعية بين طلابٍ أجانبَ ؛أفارقة وأوربيين وآسيويين التحقوا ببرامج الدراسات العليا ،وإلى جانب تخصصهم الدقيق في العلوم اللغوية والأدبية المعاصرة ،يبذلون جهودا لتحصيل مهارات حوارية ونقدية وكتابية باللغة العربية المعيارية، وتطوير قدراتهم البلاغية والنحوية والمعجمية ، والتي تدخل في بناء **لغة التخصص** التي يحتاجونها لاحقا ،وذلك من خلال اتباع طريقة إدماجيه كلية تراعي **كفايات التعلم الأساسية** في الاكتساب ،ضمن مقررات لغوية و أدبية ؛مما يسمح للطلبة الأجانب بتطوير مهاراتهم المختلفة وتعميقها وصقلها؛ انطلاقا من تحليل **النصوص الأصيلة** التي يشاركون في **اختيارها وتحليلها** بأنفسهم **وإعادة تركيبها** مع الاستعانة بالوسائل السمعية البصرية في اختيار وعرض وتحليل النصوص ذات الصلة بواقعهم المعيش في بيئة عربية مزدوجة اللسان ، وما يطرحه هذا الواقع من إشكالات ديداكتيكية لتطوير مهارات اللغة العربية المعيارية .

إن نتائج هذه الدراسة التي يطمح إلى كشفها محصلة من مقاربة نظرية تطبيقية تعرض لتجربة تعليمية مارسها الأستاذ بمعية طلاب العينة المذكورة.

❖ مقدمة

إن علاقة القراءة بمختلف أنواعها بالتعليم كعلاقة الرأس بسائر الجسد، لا يحي أحدهما إلا بحياة الآخر، وكما لا قراءة بلا تعليم وتعلم ، لا تعلم وتعليم إلا بالقراءة ،ومن ثم تعزز الاهتمام بهذا الفعل في مناهج التعليم قديما وحديثا ،وكان لزاما على المعنيين بتطوير أشكال التعليم ومحتوياته ، النظر باستمرار إلى تطوير القراءة ، وجعلها فعلا يوميا ضمن مراس الإنسان، من خلال إعادة النظر في نوع المقروء بالنظر إلى حاجات وميول وخبرات و ذوق القارئ ،وعلاقة ذلك بذوق المجتمع و اتجاهاته الثقافية والأدبية و الاجتماعية، فهناك المقروء المرغوب [2]، وهناك ما يزهد فيه لمقتضيات القبول الاجتماعي والتفضيل الفردي، كما أن لغة المقروء تؤدي وظيفة حاسمة في مستوى مقبوليته ، وقد كانت لغة النص ـــدائما ـــ مفتاحا لتلقيه وفهمه وتحقيق وظائفه الأدبية و الاجتماعية و النفسية و المعرفية [3] ، كما يحتاج المقروء بوصفه نصا معقد البنية إلى عملية تصنيف وترتيب من حيث الأولوية و المرحلة التعليمية المستهدفة و فئات المتعلمين ، ناهيك عن اهتمام مناهج التعليم بتحسين كفاية النصوص التعليمية باعتماد أنجع الطرائق و الوسائل الكفيلة باستثمار وظيفي لتلك المواد التعليمية [59] ، وضمن هذا الارتباط الحاصل بين تعليم اللغة ، وتوظيف القراءة فعلا ، واعتماد نصوص بعينها يمكن صياغة الفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا البحث ، والمتمثلة في محاولة توظيف النصوص الأصيلة في تنمية مهارة القراءة الناقدة عند متعلمي اللغة العربية بعامة و الذين يتخذونها لغة ثانية في نطاق تعلمي محدد.

أولا-أهداف الدراسة

يهدف البحث إلى:

1. التعرف على اتجاهات طلاب الدراسات العليا الأجانب نحو اكتساب و تطوير مهارة القراءة الناقدة للنصوص المختلفة.
2. التعرف على آراء الطلاب المعنيين في مدى صلاحية الطرق الموجودة والمستخدمة في تحليل النصوص.
3. تحديد أولويات تحليل النصوص في مجال القراءة الناقدة ، والاصلاحات المنهجية اللازم إجراؤها في ضوء آراء الطلاب حول توظيف النصوص الأصيلة في اكتساب وتطوير المهارات اللغوية الأساسية في العربية للناطقين بغيرها ،ومهارة القراءة الناقدة بخاصة.

ثانيا-أسئلة الدراسة:

تحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية :

1. ما اتجاهات طلاب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية تجاه اكتساب وتطوير مهارات اللغة العربية اللسانية و التواصلية عبر التحليل النصي للخطابات المختلفة؟
2. ما اتجاهات طلاب الدراسات العليا الأجانب والناطقين بغير العربية في قسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود نحو اكتساب وتطوير مهارات اللغة العربية اللسانية و التواصلية عبر التحليل النصي للخطابات المختلفة؟
3. ما آراء الطلاب في مدى صلاحية النصوص المقررة في المقررات اللسانية لتعليم مهارات اللغة العربية ؟
4. ما أشكال النصوص المفضلة التي يميل طلاب الدراسات العليا الأجانب من غير الناطقين بالعربية إلى قراءتها وتحليلها؟
5. ما أولويات التحليل النصي اللازم إجراؤها في المقررات اللسانية في ضوء اختيارات الطلاب ؟
6. ما طبيعة العمليات التحليلية التي يمكن إجراؤها، وتدريب الطلاب عليها لاكتساب وتطوير مهارة القراءة الناقدة والمنهجية للنصوص الأصيلة؟
7. إلى أي حد يمكن أن نقول بأن البرنامج الحالي يوافق أهداف تعليم العربية للناطقين بغيرها ، ويعزز ما اكتسبوه من مهارات سابقة؟

ثالثا-إجراءات الدراسة الاستطلاعية:

1-منهج البحث :

استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي ، حيث يعنى بوصف الظاهرة موضوع البحث بإشكالاتها التعليمية المختلفة ، معتمدين تحليل النظريات و الدراسات السابقة، للتعرف على سبل استثمار النصوص الأصيلة في تعليم مهارات العربية للناطقين بغيرها من طلبة الدراسات العليا أولا، وتنمية مهارة القراءة الناقدة للنصوص ثانيا.

2- مجتمع البحث وعينته:

تكون مجتمع البحث من طلاب الدراسات العليا في مرحلة الماجستير و الدكتوراه الأجانب ، والذين تابعوا برنامج قسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود سنة 2012،خلال سنة دراسية كاملة ، وبلغ عدد أفراد العينة(30)طالبا.

3- تصميم أداة البحث و التحقق من صدقها وثباتها :

بني **استطلاع** آراء هذه الفئة حول طبيعة المهارات المطلوب اكتسابها أو تطويرها من خلال تدريس مقررات لسانية في مقدمتها مقرر تحليل الخطاب بوصفه أنموذجا أكاديميا للقراءة المنهجية و الناقدة في منهاج اللغة العربية في مرحلة الدراسات العليا، وللتعرف على مدى مناسبة محتواه النصي وطريقة معالجته بغاية الاستثمار التعليمي، ومعرفة مدى رضا الطالب عما يقدم إليه فيما يعتقد إمكان توظيفه في حياته اللغوية و الاجتماعية، وقد تم ضبط الاستبيان في ضوء المعطي الإشكالي السالف ، مع الاستئناس بآراء أصحاب الخبرة والخبرة الشخصية في تدريس المقرر لفترة طويلة ، وحصيلة التقرير السنوي المرفوع للقسم من اللجنة التنسيقية للمادة.

4- التحقق من صدق الاستطلاع :

روجع الاستطلاع من طرف بعض الأساتذة في الديداكتيك لمعرفة مدى شموله وتعبيره عن جزئيات القضية ، وهذا لأجل الوصول إلى سمة الصدق الظاهري ، أما ثبات الاستطلاع فقد تم حسابه من خلال عرضه على العينة ، ثم أعيد عرضه بعد ثلاثة أشهر(12 أسبوعا) على العينة ذاتها ، فكانت النتيجة متقاربة، تشير إلى تمتع الأداة بدرجة ثابتة ومناسبة.

5- حدود البحث :

التزم البحث الحدود التالية :

أ- الحدود البشرية : عينة من الطلاب الأجانب غير الناطقين بالعربية ، و الذين يتابعون برنامج تخصص اللغة العربية وآدابها في مرحلة الدراسات العليا (الشعبتان اللغوية/الأدبية) .
ب- الحدود الزمانية والمكانية: جامعة الملك سعود بالرياض (دفعة 2012).

6-الدراسات السابقة:

لا توجد دراسات سابقة حاولت استطلاع آراء طلاب الدراسات العليا الأجانب غير الناطقين بالعربية، والذين اختاروا التخصص في قسم اللغة العربية في الجامعات السعودية بعامة و جامعة الملك سعود بخاصة، في مستوى توظيف النصوص الأصيلة في عملية تعليم وتعلم مهارات اللغة العربية اللسانية و الفكرية و التواصلية، وفي مقدمتها مهارتا القراءة الناقدة والمنهجية للنصوص و الخطابات الشفوية و المنطوقة فيما نعلم، إلا أن هناك دراسات عديدة تنظيرية تؤصل لمفهوم القراءة الناقدة وأهميتها في تطوير المهارات اللغوية الأساسية في مراحل التعليم العام و الأساسي، وأخرى تبحث في نجاعة النصوص الأصيلة بوصفها نصوصا واقعية ووظيفية، منها تمثيلا لا حصرا :

أ-دراسة [4] التي اتجهت إلى إثبات أهمية توظيف النصوص الأصيلة في العملية التعليمية في المرحلة الثانوية، ومحاولة بناء منهاج دراسي واقعي يعبر عن حاجات وميول المتعلمين لتأكيد النجاعة ، وقد حثت الباحثة المهتمين على ضرورة استثمار هذه النصوص في جميع المراحل ، واستثمارها بشكل خاص في تعليم العربية للناطقين بغيرها ([4] ص199) ، مما كان له أثر منهجي واضح في توجهنا نحو اختبار الصلاحية مع طلاب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود.

ب-كما بينت دراسة [5] أهم البحوث التي عنيت باستراتيجيات القراءة الناقدة في تعليم النصوص قصد تطوير المهارات اللغوية و مهارات التفكير العليا ، مثل استراتيجية نلسن(Neilsen) القائمة على المراجعة العامة للنص واستثارة المعرفة السابقة، ووضع أهداف القراءة، وتحديد تركيب النص و تنظيمه والتساؤل حول المقروء ومراقبة المفهوم ، ثم تلخيص أفكار الكاتب ، وتقويم مضمون النص و لغته، أما استراتيجية أورندورف (Orndorff) فتقوم على المراجعة العامة و التعلم حول مضمون النص وتركيبه وتحديد السياقات و التساؤل و التفكير التأملي و التنظيم و التلخيص و الموازنة و إصدار الأحكام ، كما تتقاطع استراتيجية سبايرز(Spires) مع سابقتيها ، مضيفة نشاطات المناقشة و التفسير و التحليل و التركيب و التعاون و المشاركة ([5] ص123)، وقد تركزت هذه الدراسة في البحث عن أثر نموذج التعليم التعاوني و أسلوب التعلم في تطوير مهارة القراءة الناقدة لدى تلاميذ الصف الرابع الأساسي من خلال عينة طلابية موزعة على مجموعتين إحداهما تجريبية (ن85)، و الأخرى ضابطة (ن=83) ،وقد بينت الدراسة أن أنموذج التعليم كان فاعلا في تطوير مستوى القراءة الناقدة في حين كان للتفاعل بين نموذج التعليم و أسلوب التعلم أثر في ذلك مما يوصي بإمكان توظيف نماذج تعليمية ملائمة تأخذ بالحسبان أساليب التعلم المحبذة لدى هؤلاء ([5]ص129-164).

جـ -هريدي [6] تقوم دراسة الباحثة الموسومة بـ: "مدخل تحليل الخطاب ودوره في تنمية مهارات اللغة العربية في التعليم العالي" على اقتراح استراتيجية تساعد في تحقيق الكفاءة اللغوية لدى طلاب الجامعة من خلال الاعتناء بتدريس نظريات تحليل الخطاب ([6]،ص124) للرفع من كفاية الطالب التبليغية في ضوء الضعف المشاهد في الجامعات العربية بعامة و الجامعة المصرية موضوع الاختبار بخاصة، والنقود الموجهة للمنظومة التعليمية برمتها ،حيث ترى الباحثة أن مكمن الخلل راجع إلى التركيز على التعليم عن اللغة ،و ليس تعليم اللغة ذاتها ،ليبرع فيها الطالب ، ويكون قادرا على توظيفها تواصليا ([7]،ص136-137)،و ([6]،ص126)، وفي هذا السياق أجرت الباحثة دراسة تقويمية لكفاءة طلاب الدراسات العليا اللغوية في معهد الدراسات و البحوث التربوية بجامعة القاهرة للعامين2012 -2014م، وشملت الدراسة مهارة الفهم القرائي و التلخيص و مهارة التراكيب والأساليب و الكتابة الأكاديمية، ونظرا إلى تدني الوضع تدعو الباحثة إلى ضرورة استثمار مخرجات اللسانيات التطبيقية في تقويم منهاج اللغة العربية الدراسي الجامعي بخاصة في مرحلة الدراسات العليا، مما يسهم في تقديم رؤى وظيفية لكيفية اكتساب المهارات اللغوية وتطويرها ،ومن ثم سهولة اندماج الطالب في الحياة العملية ([8]ص96-97)، وبحسب رؤية ([9] ،ص15-19) لا يتحقق هذا الهدف إلا من خلال تلقين محتوى ثقافي يلبي حاجات المتعلمين ، ويتوافق في الآن نفسه مع ميولهم ورغباتهم، وقد يكون ذلك منجزا بفضل تعليم النصوص ، والتي تعد الموضوع الرئيس لعلم تحليل الخطاب، غير أن دراسة هريدي انصرفت في جزئها الأكبر إلى عرض مسائل نظرية صرفة تتصل بنشأة تحليل الخطاب وتعريفات النص المختلفة وعلاقة العلم بتعليم اللغة ومستويات اللغة و المعنى و الفهم، أما الأمثلة فلا تعدو أن تكون شواهد جزئية لبعض التراكيب و الوحدات الصرفية و المعجمية ([6] ص140-142) ،كما اكتفي بإبراز مهمة تحليل الخطاب في انتاج النصوص، وبداية من الصفحة (144) يظهر عنوان أهمية مدخل تحليل الخطاب في تنمية مهارات اللغة العربية للطالب الجامعي، وضمنه وصف لأهم ما طرحه أصحاب النظرية من تصورات حول وظيفة العلم بالنسبة إلى المعرفة ، وتداول النصوص و الخطابات، لكن البحث بتورطه في هذه التفصيلات لا

يخدم الإشكالية الرئيسية التي يفترض أن تبين لنا عمليا كيف يمكن توظيف تحليل الخطاب في تطوير المهارات اللغوية بالتجربة و التمرين، وبدلا عن ذلك يتحدث البحث عن معايير النصية ([6]،ص145-148)، وابتداء من الصفحة (145) يعاد طرح السؤال المحوري وهو: كيف يمكن توظيف تحليل الخطاب في مناهج تعليم اللغة العربية ؟ و للإجابة سعت الباحثة إلى الربط بين أسس بناء المنهج اللغوي ومعايير تحليل الخطاب ،بوصفه أداة يمكن أن تساعد على فهم المقروء([6]،ص151) المتعثرة نتيجة أسباب تربوية عديدة.

إن هذا الدمج المطلوب بين المعطى الثقافي و اللغوي مسيقا تداوليا هو ما يقدمه برنامج الكورت الذي يعزز القدرة على التفكير الناقد ليصبح عملية ذهنية مصاحبة لأي نشاط تحصيلي أو انتاجي للمعرفة و التدريب عليها ([10]،ص211) ، مما يعني ضرورة الاستعانة بالمواد الدراسية التي يقدمها البرنامج في تدريس التفكير والتدريب على أساليبه في الاستنباط و الاستنتاج و القياس و البرهان، ويمكن تحقيق ذلك ـــفي نظرنا- مع جهد مضاعف في تحليل الخطاب وتدريس النصوص بعامة و النصوص الأصيلة بخاصة سواء للطلاب الناطقين أصالة بالعربية أو الأجانب التي تعد العربية بالنسبة إليهم لغة تخصص.

7-ركائز البحث:

يرتكز البحث على مفهومات أساسية تشير إليها المصطلحات الضابطة الآتية:

أ-التفكير الناقد:

انطلاقا من رؤية واطسن و جلاسر التي تنص على أنه محاولة مستمرة لاختيار الحقائق أو الآراء في ضوء الأدلة المساندة لها [11] ، و التفكير الناقد نشاط عقلي مركب محكوم بالمنطق و الاستدلال ، ويقود إلى نواتج يمكن التنبؤ بها، و يتألف من مهارات أساسية هي الاستقراء و الاستنباط و التقويم [12] و([10]،ص220-221) و([13]،ص270)،ويظهر من خلال دراسات عديدة أن لبرنامج الكورت فاعلية واضحة في تنمية مهارات التفكير الناقد ([10] ،ص224) و([14]،ص99)،مما يدعو إلى ضرورة اعتماده في تدريس مقررات تحتفي بالنصوص مثل تحليل الخطاب و النقد الأدبي و مهارة القراءة .

ب-المهارة:

تتعدد تعريفات المهارة في العلوم النفسية و التربوية و اللسانية ، ولكن أبرز تعريف لها من وجهة نظر الباحث هي كونها القدرة على الأداء المنظم و المتكامل للأعمال الحركية المعقدة بدقة وبسهولة مع التكيف مع الظروف المتغيرة المحيطة بالعمل ([15]،ص277)،و([4]،ص21) ، وتشكل المهارة من حيث هي فعل تدريبي ينشأ عن المراس ومداومة العمل، حتى يغدو صفة راسخة في النفس ([16]،ص 385) و([17]، ص234-236)، وتكون المهارة قائمة على التكرار، ولزوم التمرين في كل منشط لغوي ، وفي مقدمة ذلك نشاط القراءة ،فالقراءة نشاط يتعلم في مجتمع القراءة ، وترسخ عاداتها بتكرار فعلها، فتصبح فعلا كسبيا يتعلق بشرطين أحدهما ذات مهيأة للإدراك، وثانيهما موجودات خارجية قابلة للإدراك لدى القارئ ([18]،ص80) تمارسها الذات المريدة في ظروف طبيعية مواتية، بما توافر لها من كفايات لسانية وذهنية وتواصلية، والقراءة بوصفها مهارة تعليمية وتعلمية تسلط على شبكة واسعة من النصوص، تقدم عادة للفهم و التحليل و التركيب والحفظ ([59],p561)، بهدف تطوير مهارات لسانية أخرى ،فالنصوص بما تحمله من مكونات معجمية وصرفية ونحوية وأسلوبية وبلاغية يمكن أن تكون الأداة الأكثر وظيفية في اكتساب كفاية التعبير الفصيح نطقا وكتابة ، مما يعوض البيئة اللغوية الأصلية التي يحتاجها المتعلم لتحقيق الغمس اللساني ([19]، ص55-59)، هذا وليس من الموضوعية بمكان الزعم بوجود طريقة مثلى لتنمية المهارات اللغوية بعامة سواء بالنسبة إلى أبناء اللغة أو بالنسبة إلى متعلميها لغة ثانية ،وكذا بالنسبة إلى مهارة القراءة الناقدة بوصفها مهارة فكرية عليا

، فالبحوث النظرية و التطبيقية مازالت جارية في هذا الميدان، بقصد إظهار أنجع الطرق وأكثرها مردودية، وربما قاد الحديث عن بناء طريقة مثلى إلى تقرير مبدأ تنويع الاستراتيجيات و الأنشطة التعليمية التي تستهدف التحسين و الترقية بوصفه مبدأ أكثر واقعية ، بخاصة و أن القراءة من حيث هي نشاط ذهني لغوي فعل مركب من عمليات نفسية و عصبية وذهنية مؤطرة بسياق ثقافي الاجتماعي وحضاري بالنظر إلى البنية التكوينية المعقدة للنص القرائي في مستوياته اللسانية و أبعاده التخاطبية ([20]،ص67-162) و([21]،ص24-45) ، مما يستدي اتباع طرائق متنوعة لفهمه وإدراك مغزاه ، ومن ثم استثماره في تعلم وتعليم المهارات المختلفة للغة المعينة، وهذا التصور يفيد أيضا بانتفاء وجود طريقة أنموذجية لقراءة النص ، ومثلما تتعدد أنواع النصوص شكلا وغرضا تتنوع القراءة و مناهج الإقراء([22]،ص 27) ، لذا سيتحول مركز ضبط الدلالة ومغزى الخطاب إلى القارئ الذي يستلم زمام المبادرة، وهذا الفعل هو الذي عبر عنه برغبة الزيادة في فاعلية المتعلم مع خفض من سلبيته ([23]، ص15) و([4]،ص142).

إن تنشيط مهارة قراءة النص لدى طالب الدراسات العليا في ضوء مدخل تحليل الخطاب لا يفيد فقط في فهم ما تنتجه النصوص من دلالات ، بل يتم عبر هذا التنشيط تعلم إدراك وسائل إنتاج المعنى ،والضوابط التداولية المتحكمة فيه. واكتساب مهارة القراءة الناقدة والمنهجية سيمكنه لاحقا من تعرف الأنواع الخطابية التي تعترض طريقه، فيتفاعل معها تواصليا ليدرك بسهولة غاياتها التخاطبية و الحجاجية والجمالية، وكلما تمرس الطالب في قراءة النصوص منهجيا رسخت ملكاته التأويلية وتوسعته معرفته، حتى يختمها بتحصيل الكفاية الإنتاجية للنصوص المشابهة، وبالنسبة إلى أفراد العينة فقد ظهر تعاملهم مع النصوص التي اختاروها قراءة تحليلية ، مدعمة بالحجج فيما طرحته تلك النصوص من رؤى وقيم ومشكلات حياتية تطلب حلا واقعيا، بل وجد فيها بعض الطلاب رؤى شبيهة بعالمهم الأول الذي تمثله بيئة المنشأ، وحين سئل طلاب البرنامج ممن ليست العربية لسانهم الأولى في نهاية الفصل عمّا إذا كانوا قد أحسوا بتغير في مستوى إدراكهم لكيفية التعامل المنهجي و الناقد مع النصوص الأصيلة التي حللوها جماعيا ،كانت إجابتهم إيجابية ، كما كانت كذلك حين طلب منهم إبداء آرائهم حول ما إذا كانوا قد طوروا بفضل هذه النصوص مهاراتهم اللغوية و التواصلية والفكرية، وكانت إجابتهم بأنهم أصبحوا أكثر وعيا بما يلي:1-أهمية قراءة كل النصوص و الخطابات ،وإنزالها المكانة الوظيفية الجديرة بها في سلمية الأحداث الكلامية المتداولة،2-أهمية التعمق في القراءة، وعدم الاقتصار على الشرح المعجمي للمفردات، والمعاني الظاهرة،3-ربط النص بالواقع و المعرفة الخلفية ،وحث الفكر لاستدعاء كل معلومة أو تجربة سابقة يمكن أن تساعد في تحقيق الفهم،4-النظر إلى النص بوصفه وحدة كلية، لا أجزاء متفرقة، إذ لم يعد من الممكن التعامل مع الجزئيات إلا في إطارها الكلي ([24]،ص173) ،5- اعتماد مقاربات تحليلية مختلفة باختلاف أنواع النصوص شكلا وغرضا.6- أهمية استثمار المقروء في إثراء الذخيرة اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية و البلاغية.7-أن نظرتهم للعالم غدت أكثر دينامية من قبل حيث تربط النصوص الأدبية القديمة تصوراتهم بالماضوية التي لا تعبأ — في نظرهم - بحركة المجتمع من تطور وانفتاح ([8]،ص99).

ج-القراءة:

نشاط لغوي وذهني مركب من عمليات ومستويات مختلفة، يقوم به الإنسان بهدف الحصول على المعلومات والخبرات الفردية و الجماعية ([60],tome 1,p206]) ، وهي الأداة الفاعلة في البناء الحضاري و التنمية الشاملة ، وبقدر المقروء كمّا وكيفا يمكن التكهن بالمنزلة العلمية و الحضارية التي يحصلها الفرد في المجتمع ،و المجتمع بين سائر المجتمعات ،وبالنسبة إلى اللسانيات التطبيقية وعلوم التربية يمكن النظر إلى القراءة بوصفها عملية بصرية وذهنية تستهدف نقل المستوى الكتابي الرمزي إلى أحداث منطوقة يتم تمثلها في علامات ذهنية حاملة للدلالات معينة تعد نواة للمعرفة المحصلة بعامة ([61],p312]) و([25]،ص127)،

و قد أشارت البحوث في ميادين مختلفة إلى أنواع القراءة من بصرية و جهرية وصامتة و لمسية ، وغيرها مما لا سبيل لعرضه و تمحيص أغراضه و أنماطه في هذا المقام. ولما كانت القراءة الوسيلة الأساس لتحصيل الفهم ، وكانت مهارة الفهم متعلقة بها اكتسابا وتعلما فإن أهم هدف يركز عليه نشاط قراءة النصوص و الخطابات المختلفة هو تمكين المتعلم من فهم المقروء، وتدريبه على تنمية مهارة القراءة إنما هو بغرض تحصيل مهارة الفهم بوصفهما وجهين لعملة واحدة ([26]،ص77)، وأما إبصار الحروف و الكلمات في المكتوب فلا يعد فعلا قرائيا، إذا لم يصاحب بإدراك واع لنسق العلامات ومغزاها ،والمعنى الذي تحمله ([4]،ص13)، ويبدو أن إدراك النسق الكلي للمقروء يقوم على عمليات ذهنية ومعرفية ووجدانية تؤطرها معرفة القارئ بالعالم المحيط به، وخلفياته المعرفية التي تم له بناؤها في مرحلة سابقة([27]، ص84-85)، و القراءة بوصفها نشاطا فكريا ومهارة سلوكية تكتسب في البيئة الاجتماعية بتعلم ضوابطها التداولية تتحول في السياق اللساني النصي إلى أداة تحليلية وتركيبية تمكن القارئ من فهم بنية النص المعين ، وإعطائه التمثيل الدلالي المناسب ،ولنقل بعبارة أخرى يمكن للقراءة أن تحول المقروء إلى رؤية اجتماعية أو اقتصادية أو دينية أو أخلاقية يؤمن بها القارئ في سياق تواصلي معين، ثم تتحول إلى فعل كلامي(Act de language) له آثاره النفسية و الاجتماعية و السلوكية المنجزة ليس فقط في مستوى القارئ الفرد ،وإنما في منظومة المجتمع الذي أنتج تلك النصوص لتعبر عن رغباته و آماله وميوله ، وتكرس وجهة نظره للعالم.

ج – 1 - القراءة الأدبية

يمكن تحديد القراءة الأدبية إجرائيا بوصفها النشاط الفكري الذي يستهدف نوعا من النصوص تعرف بالنصوص الأدبية حيث يغلب الغرض و السمة الأدبية و الجمالية فيها على سائر الأغراض و السمات الأخرى على حد وصف الشكلانيين ([21]،ص 85-88) و(p106-107.[60])، وعليه ستكون القراءة فعلا تأويليا منتجا للدلالة النصية ،يقوم القارئ من خلالها بعملية هدم لمكونات النص الشكلية و الفكرية ،ثم يعيد بناءها انطلاقا من قواعد إقراء منهجي تعتمد لتجسير الهوة بين الدال و المدلول و المعنى و القصد ، ونحن إذ نمعن القراءة الأدبية بوصفها صفة للمقروء ،و لكيفية القراءة إنما نقصد إلى ذاك المستوى من القراءة الذي يتسلح بأدوات لغوية وثقافية متعددة المستويات ، يمكن من إجراء مسح شامل لمكونات النص على المستويين البردغماتي و السنتغماتي ،ومحاولة ربط بنيته الدالة بسياقة إنتاجه وأوضاع القراءة ، وقد نسمي هذه القراءة نقدا أدبيا أو تحليلا نصيا أو تحليل خطاب أو تحليلا تداوليا أو قراءة منهجية أو غير ذلك، أما القراءة العادية التي لا تتجاوز مستوى تتبع ملفوظات النص في تعاقبها الأفقي فلا تعدو أن تكون رؤية بصرية تستهدف شرح المفردات في معجم اللغة ، غير متجاوزة لأغراض الملفوظ مقاصده الثاوية خلف الأنساق المبصرة ، فالمنظور التداولي يحول فعل القراءة إلى عمل ينجزه القارئ في حياته ليجني منه فائدة عملية ،يكون من الإنشاء والإخبار و الحكم و السلوك وغيرها من أفعال الكلام البسيطة و المركبة ،وربما جاز لنا أن نعد القراءة المدرسية ضربا من ضروب القراءة العادية لارتكازها على بلاغة القارئ العادي الذي يقرأ للمتعة أو استخراج معاني أدبية عامة لا تثير في منتهاها إشكالات فكرية أو معرفية جوهرية ([27]،ص81-83). وعلى صعيد اختيار النص الأدبي في مقرر تحليل الخطاب ليكون موضوعا للقراءة و التحليل يفضل طلاب الدراسات العليا من الناطقين بغير العربية قراءة النصوص الأدبية الحديثة ، ويقدمون في اختيارهم الرواية و القصة على النص الشعري ، أما النص القديم فيعتقدون بأنه بعيد عن روح العصر و الثقافة العصرية بقيمها ، وهو وإن كان مكتنزا بالمعاني و الأساليب و المفردات العربية الفصيحة لا يمكن اعتماده كله وبصورته البلاغية تلك في اكتساب أو تطوير ملكاتهم اللغوية و التواصلية ([28]،ص68-74)، ولهذا السبب يفضل أفراد العينة قراءة وحفظ النص الأدبي الشعري الحديث، وبالنظر إلى محتوى المقررات الدراسية في منهاج اللغة العربية توافق الطلاب على عدم رضاهم على النصوص المختارة، وهي نصوص من الحقبة الجاهلية و الأموية و العباسية ،أما حضور الحديث فلا يعدو أن يكون أمثلة قليلة و مجتزءة ، وعادة ما يقدم برؤية اختزالية بالغة ([8]،ص99)، وبالرغم من حفظ

أغلبهم لمقطعات شعرية مقررة في البرامج الدراسية لتلك المرحلة إلا أنهم لا يعتقدون بأنها أثرت في تحسين مستواهم التعبيري بشكل رئيس، وما تم لهم فهو راجع لحفظهم للقرآن و الأحاديث النبوية، كما طرح بعضهم إشكالية اختلاف محتواها الثقافي و القيمي في التعبير عن العادات و التقاليد، التي لا يرونها في واقع الحال في مجتمعاتهم الأصلية ، وأن كثيرا من صورها تخييلية ،في حين يرون ضرورة أن يعبر الأدب عن الواقع المعيش، وبالرغم من أن النص الأدبي لم يعد أصالة لتعليم اللغة إلا في بعض نماذجه كفن المقامات ،إلا أن طلاب العينة أفادوا بإمكان توظيف اختيارات أدبية من الأدب الحديث في مقرر تحليل الخطاب لقراءتها وتحليلها واستثمار مكوناتها اللغوية و الفكرية في تحسين مهارات القراءة و الكتابة و الإلقاء و تنمية الكفاية التفسيرية و سقل الذوق الأدبي والحس الجمالي بالنسبة إلى طلاب التخصص الأدبي. وأجاب طالب واحد بأن تحليل النص الأدبي القديم سيمكنه من فهم الشخصية العربية وموقفها من الكون و الآخر، بما أن اللغة هي أداة الإنسان لتمثيل الواقع، حيث تفتح النصوص الأدبية الأصيلة أمام القارئ مجالات كثيرة للتفكير وممارسة القراءة الناقدة ، وتنمية الملكتين اللغوية و التواصلية في ضوء دينامية الحياة الثقافية التي يتصل بها الطالب، كما لا تنحصر وظيفتها في تعليم اللغة عبر القراءة، بل تتعدى إلى تعليم المتعلم أسس التفكير النقدي مما يحدث توازنا نفسيا وفكريا ومعرفيا يؤطر بناء الشخصية لدية ([4]،ص96).

ج – 2 - اتجاهات طلاب الدراسات العليا نحو طريقة قراءة النص الأدبي

يؤكد أفراد العينة أن الطريقة التقليدية المتبعة في دراسة الأدب تفتقر إلى:

1- ربط الإبداع بالحياة ، وذلك لقيام البرنامج على اختيار انتقائي يتحيز إلى نصوص دون أخرى، غالبا ما تكون نصوصا قديمة.

2-القراءة الأحادية التي يسقط فيها الأستاذ بوصفه ممثلا للمعرفة رؤيته الذاتية وموقفه الشخصي من المقروء، لا يترك فيها مجالا لمحاورة النص من طرف الطلاب القراء الآخرين، وهذا ما يجعل من القراءة نمطية تسير في اتجاه واحد ([29]،ص68).

3-محدودية الاستفادة من الاختيارات اللغوية التي تنشئها النصوص الأدبية لبعدها عن سمات اللغة العربية المعاصرة، المتداولة في الوسط الثقافي والإعلامي.

4-تركيز مقررات تدريس الأدب على النص الشعري ، والتقليل من أهمية الأجناس الأدبية الأخرى.

5- القطيعة التعليمية بين درس الأدب و درس اللغة، وانعكاس ذلك على اكتساب المهارات اللغوية بالمزج بين الخبرات السابقة و الحديثة.

وعن سؤال يتعلق باقتراح تصور عملي لتجاوز ظاهرة ضعف المردود القرائي في النص الأدبي اقترح الطلاب المزج بين نصوص قديمة وأخرى حديثة منتقاة بعناية ، يعتمد انتقاؤها على السهولة و البساطة في المعجم والتركيب البلاغي، واعتماد قراءة منهجية قائمة على مقاربات تحليل الخطاب الحديثة، والتي تميز في تحليليها بين خصوصيات الأنواع الأدبية، فلكل نوع مقاربة تنسجم معه، ولا يمكن السير في التحليل بعين واحدة، حيث أفاد الطلاب بعد عدة حصص أن القراءة المنهجية و الناقدة التي مورست في مقرر تحليل الخطاب قادت إلى نتيجة مهمة كانوا يجهلونها ،ألا وهي اختلاف المقاربات باختلاف النصوص ، واختلاف التأويلات باختلاف المقاربات ،كما هي الحال في الطريقة التقليدية، بالإضافة إلى ضرورة اعتماد وسائل التقنية الحديثة في عرض درس الأدب، و ربط النظرية بالنشاط التطبيقي كالتدريب على إنشاء نصوص مشابهة .

ج – 3 - القراءة الناقدة

لا يقتصر فعل القراءة على وصف وتحليل الأبنية اللغوية و الأنساق الثقافية الثاوية وراء العلامة النصية في علاقتها ببنية الخطاب، بل يتعداه إلى مرحلة النقد ، والتي ليست إلا محاولة لتفسير العلاقات ، وتعليل تعلق الأنساق بأغراضها تصريحا أو تضمينا، ونقد المقروء يعني أساسا أن يعطي القارئ رؤيته فيما يقرأ ، فيبني المعنى النصي بطريقة قد يخالف فيها غيره من القراء ، انطلاقا من رؤيته الخلفية ، وما امتلكه من كفاية تفسيرية و تأويلية لطالما رسخها في مرحلة سابقة بعمليات ونشاطات قرائية أخرى ، وهو ما سيمكنه لاحقا من تحويل المقروء إلى سلسلة من الحلول المناسبة لما يعترض طريقه من مشكلات ، ويمكن النظر في هذا السياق إلى أي نص بوصفه وثيقة تقدم مشكلة أو عدة مشكلات شبيهة بالمشكلات التي نصادفها في حياتنا ، وبإمكاننا أن نتأسى بوجهة نظر الكاتب الذي نقرأ له لمواجهتها ، بل حتى في اللحظة التي نخالفه فيها سيكون نصه قد فتح أعيننا على رؤية أو زاوية جديدة لم نكن نراها ، تجعلنا نتعامل مع المستجد و الطارئ و المشكل بأسلوب أكثر موضوعية وحيطة ([25]، ص144 بتصرف)، والقراءة الناقدة تعد تجسيدا لعملية التفكير الناقد الذي يسهم في مشكلاتنا بوصفه جملة من العمليات العقلية الباحثة عن الحلول من خلال النظر الدائم في الأدلة و البراهين و الأمثلة ، فالتفكير الناقد هو القدرة على الحكم على الأشياء وفهمها وتقويمها طبقا لمعايير معينة من خلال طرح الأسئلة وعقد المقارنات ودراسة الحقائق دراسة معينة ،وتصنيف الأفكار و التمييز بينها ،و الوصول إلى الاستنتاج الصحيح الذي يؤدي إلى حل المشكلة ([30]،ص399)، ولو طبقنا هذا التعريف على القراءة بوصفها تفكيرا ناقدا ومهارة عقلية عليا ([31]،ص227-228) فستقوم مهارتها في التعامل مع المقروء أيا كان نوعه كل هذا الممارسات الفكرية التي تهدف إلى إيجاد حل لبعض المشكلات المطروحة ، وبالنسبة إلى الطالب الجامعي؛ فإن استثمار المقروء عبر القراءة الناقدة يفترض أن يقوم على تحديد المشكلة أولا ، ثم تصنيفها ، وتحديد جملة الأوصاف و الأدلة المعروضة والمعارضة بينها للوصول إلى حل للمشكلة ، وأخيرا ضبط الحل المناسب من بين جملة حلول ممكنة، ثم الوصول إلى أحكام عامة ، هذا من ناحية المضمون ، أما من ناحية الشكل فإن جملة الاستنتاجات يمكن له أن يتوصل بها باتباع الملاحظة و التصنيف و الإحصاء و ([4]،ص 24)، وبحسب ([31]،ص223-234) فإن القراءة الناقدة مهارة تفكيرية نشطة تستخدم فيها أساليب القارئ وخبراته واستراتيجياته لبناء معايير جديدة في الفهم ، وعمل استنتاجات وتنبؤات محتملة في ضوء مشتملات النصوص، بينما تراها ([4]، ص27-28) مهارة عقلية عليا تسهم في حصولها خمس مهارات أساس هي :القدرة على التمييز و المقارنة و الاستنتاج و التنبؤ و التقويم ، وتهدف إلى تنمية التفكير الناقد الذي يتيح فرصة التفاعل مع المقروء وتقويمه و إصدار الأحكام النقدية عليه .

ج – 4 - القراءة المنهجية

ذكرت هباشي المسوغات التي تجعل من القراءة بوصفها سلوكا ذاتيا متلبسا بالحدس و الإحساس و الانطباعية عملا فكريا منهجيا تحت مفهوم القراءة المنهجية ([4]،ص 29-30)؛ لذا فلن نطيل البحث في القضية ، وسنكتفي بالتوجيه إلى عد القراءة المنهجية (Lecture methodique) مهارة تقوم على تعرف الأدوات الملائمة لكل نص ،وتوظيفها لتحليله ([62],p7]) و([22]،ص27-32) في ضوء المعطيات البنيوية و السياقية، وباعتماد محصلة المقاربات التحليلية في مجالات العلوم الإنسانية ، وبالتالي ستكون القراءة المنهجية طريقة تعليمية تعتمد لتحليل النصوص ([4]،ص30)، والتفاعل معها إيجابيا ([63].p10]) بوصفها قراءة تفاعلية (lecture interactive) لإدراك وظائفها الخاصة و العامة في ضوء الاستنتاجات والمؤشرات النصية التي يسعى القارئ إلى تحصيلها ، و استقطارها متكئا على معرفته الخلفية ([32]، ص 5). كما تقوم القراءة الناقدة على مهارات يفترض تحصيلها من لدن الطالب الجامعي لتؤدي أغراضها، ألا وهي:1- معرفة طريقة الحكم على مدى حداثة الرأي المكتوب،2- إدراك الفرق بين الحقائق و الآراء ،3- القدرة على تمييز

الأدلة الموضوعة ،4- تكوين الاتجاه نحو المطالبة بإثبات المادة المقروءة ،5- معرفة مدى خلو المادة المقروءة من التناقض ،6-الموازنة بين كتابات مختلفة ،7- الحكم على مدى إلمام كاتب ما بما يكتب.

د ـ تحليل الخطاب

إن هذه القراءة التي تقوم على ممارسة التحليل بمفهومه الموسع هي جوهر الإقراء الذي نرومه في مقرر تحليل الخطاب بعامة وتحليل الخطاب الأدبي بخاصة، حيث يقوم تحليل الخطاب بوصفه ممارسة نشطة لفعل القراءة و التفكير الناقد لاستكناه دلالات النص و أبعاده الضمنية و المضمرة والقابعة خلف التعقيدات الملفوظية و التعلقات النحوية و التخييلية بناء على الاستراتيجيات الخطابية المعتمدة ([60],p309)، وهنا تظهر المفارقة بين نمطين من القراءة ، قراءة عابرة لا تتجاوز وظيفة اللغة الشارحة، وهي القراءة السائدة في مناهج تعليم اللغة العربية التقليدية في الجامعة ،والمهيمنة في طريقة تدريس الأدب العربي ، ونمط ثان يمتح من الأسلوبيات و الشعريات والسيميائيات و التداوليات ونظرية الحجاج في إطار ما يعرف بـ: تحليل الخطاب، وهو المجال المحتفى به في مناهج وطرائق تدريس الأدب وسائر أنواع النصوص و الخطابات في الجامعات الغربية، بوصفه مقاربة كلية متداخلة الاختصاصات ، تحتفي بالعلاقات الرابطة بين الأجزاء لا الأجزاء ذاتها ،وتشير موران ([64],p77-109) في سياق تعدد الأشكال النصية و الخطابية التي تمثل بؤرة اهتمام العلم إلى تعدد مقارباته التي يمكن الانطلاق منها في قراءة النصوص قراءة منهجية ناقدة ،ولعل أبرز هذه المقاربات ؛ المقاربة المقامية (Approche Situationelle) و المقاربة الحوارية (Approche Conversationelle) و المقاربة التلفظية (Enonciative Approche) والمقاربة التداولية (Approche Pragmatique) و المقاربة النصية (Approche Textuelle) ([4]،ص 94) و ([65],p277).

إن موضوع تحليل الخطاب (الخطاب/النص) بوصفه بنية مركبة مترابطة الأجزاء ،متسقة ومنسجمة، انتجت في سياق تواصلي محدد ،يفترض أن ينظر إليه من خلالها ([33]،ص19) ، تقوم على بنية دلالية كبرى ،وعناصر تلفظية مختلفة ،تحقق الانسجام والمقبولية فيما بينها أولا ، وتتمتع بالتماسك و التضامن الداخلي من وجهة نظر القارئ ثانيا ([34]،ص13-14) ،كما أن العلاقة التشاركية التي تقوم بين صاحب النص و القارئ هي التي تحدد قيمته بالنظر إلى التأويل المنتج و المحكوم بأوضاع ثقافية ودلالية ونحوية ،أما من جهة الفاعلية فإن تحليل الخطاب بوصفه قراءة منهجية وناقدة يهدف إلى إعادة مقبض الحركة المنتجة للمعنى إلى المتعلم القارئ في توجيه الدلالة وتقييم النتائج، بعد أن كان مركز الضبط و السيطرة في مناهج القراءة التقليدية تحت سلطة المدرس ([35]،ص39).ويمكن النظر إلى تحليل الخطاب بوصفه علما بإجراءات تحليل النص لغويا ، وما يقتضيه هذا التحليل من معرفة وظيفية وتداولية تربط البنية بالسياقين اللغوي و المقامي ([36]،ص13)، وعدّ ذلك مظهرا تفاعليا للقراءة الناقدة التي يمارسها القارئ قصد فهم المقروء، وإدراك مغزاه، وإبراز سماته المائزة ، وتجلية أنساقه المضمرة ، منطلقين من المعرفة الخلفية بالواقع و اللغة و الثقافة السائدة بكل مكوناتها الاجتماعية و النفسية و الاقتصادية و الإيديولوجية، والتي تنعكس نصيا عبر ارتباط الملفوظ بظروف إنتاجه ([66],P51-52). وإذا كانت القراءة التحليلية مهارة يسعى التعليم الجامعي إلى اكسابها للطالب قاعدة لاكتساب سائر المهارات و المعارف و الخبرات فإن تدريس تحليل الخطاب بات أمرا حتميا لما يقدمه هذا المخل من خدمة لسانية ومنهجية وفكرية للطالب ، وهو يروم فهم النصوص التي تحيط به من كل مكان، وبسبب سمة انفتاح العلم على التعدد الاختصاصي فإن ما يرتجى منه في المستوى التعليمي أن يسهم في بناء الشخصية الناقدة متعددة المعارف و الثقافات و المهارات، ذلك إن العلم في سمته الشمولية نظريا يكرس السمة الكلية في التعلم والتعليم تطبيقيا، بل يمكن الزعم بأن من أخص الوظائف التي يضطلع تحليل الخطاب بإنجازها تمليك الطالب في مرحلة الدراسات العليا بخاصة ؛مهارة التفكير الناقد و المنهجي القائمين على حسن فهم الملفوظ ، بعد تحليل الخطاب وتركيبه، بناء على استراتيجيات قرائية مختلفة المستويات، ولا يتحقق ذلك إلا بالدربة و طول المراس في قراءة النصوص و الخطابات المختلفة ، وتحليل

بنياتها انطلاقا من رؤى مختلفة سياقية لغوية و نفسية واجتماعية وتربوية وغيرها، تمكن بعد فترة من التدريب على أشكال التحليل من تعرف الاستراتيجيات الخطابية التي تعتمدها النصوص لصياغة رؤية العالم باللغة , كما أن مهارة كيفية التفكير وتقليب الأفكار لا تتعلم إلا عبر تعلم كيفية تحليل النصوص، وهذا سيساعد الطالب في هذه المرحلة على التفاعل الإيجابي مع ما تطرحه من حلول لمشكلات قد يعيشها الطالب نفسه ([37]،ص01)، وفي الصعيد التعليمي نلاحظ أن مقرر تحليل الخطاب يندرج ضمن خطة البكالوريوس في المستوى السابع أو الثامن بمعنى أنه لن يقرر إلا في السنة الأخيرة من البرنامج وبمعدل فصل دراسي واحد وحجم ساعي لا يتجاوز الساعتين أسبوعيا، وهو توزيع غير كاف لتحقيق هذه الأهداف، وفي هذا السياق أشار تقرير فصلي مرفوع من لدن أساتذة المقرر لسنة 2012 أن اتكاء تدريس المقرر في البكالوريوس على تلقين معرفة نظرية و تطبيقات مختصرة لا يفيد الطلاب في تحسين مستوى تفاعلهم الناقد والمنهجي للنصوص التي لا يشاركون في انتقائها ، بخاصة وأنها نصوص أدبية غير أصيلة (تقرير لجنة تدريس مادة تحليل الخطاب،2012)، وفي مرحلة الدراسات العليا لا يختلف الأمر كثيرا على الأقل من الناحية الزمنية المخصصة له، لذلك ربط أفراد العينة عدم تمكنهم من الاستفادة من إيجابيات العلم ، وتحويل معارفه إلى نشاطات تدريبية ومهارات ينتفعون بها ليس فقط في القراءة الناقدة ،وإنما أيضا في تحسين أدائهم اللغوي و التواصلي. وبالتالي يمكن القول بأن ما يقدم في حصة تحليل الخطاب لا يتجاوز كونه تعليما للعلم النظري ، وليس استثمارا له في اكتساب و تعلم مهارات لغوية، أو ربط ما يدرس من رؤى قرائية وظيفية بما يدرسه الطالب في مقررات لغوية و أدبية أخرى، فالارتباط العضوي الوظيفي بين مواد البرنامج في هذه المرحلة كما هو في المرحلة السابقة لها يكاد يكون مختفيا على الأقل في نظر الأستاذ، حيث لا يمارس أغلب الأساتذة التنسيق البيداغوجي بخلاف ما قد نحصله في مرحلة التعليم العام، كما أظهر الاستطلاع نفسه عدم شعور الطلاب بوجود انسجام عضوي ووظيفي بين ما يدرسونه في البرنامج ، وإن كان ممكنا أن يغني مقرر ما سائر المقررات.

إن التوسع في تدريس مقرر تحليل الخطاب في برنامج الدراسات العليا المعين لا يهدف إلى إثراء التطبيق بقدر ما يركز على تلقين المعطيات النظرية و التعريف بالمقاربات و أصول النظريات، وربما يكون استثمار ذلك لاحقا حين يقبل الطالب على إعداد رسالة جامعية في تحليل الخطاب، وأما توظيف درس تحليل الخطاب ذاته لتنمية المهارات اللغوية فغالبا ما يتم التغاضي عنه بدعوى التخصصية ، وتجاوز مرحلة الإعداد اللغوي، بالرغم من ظهور ملامح ضعف أدائي عند طائفة من الطلاب بخاصة الناطقين بالعربية لغة ثانية، وفي صعيد التركيز على تعليمية العلم يقول دي بوجراند :" أرى أن نشاط استعمال النصوص هو مركز المشروع التربوي المطلوب الآن ، ذلك لأن إنتاج و استقبال النصوص ذات الكفاءة و التأثير يتطلبان كل القدرات العقلية ،ومن هنا تمنحنا العلوم المبنية على اللغة مجالا لا محوريا يمكن للنمو العقلي أن ينسق من خلال منهاج الدراسة([38]،ص557).هذا و قد ظل النظر إلى مقرر تحليل الخطاب في منهاج قسم اللغة العربية مشابها لنظرتنا للنحو من جهة عدم تمييزنا بين ما هو نظري علمي صرف ، وبين ما هو تعليمي وظيفي غايته إصلاح مشكلات القراءة والفهم و الكتابة، وفي الوقت الذي يركز فيه على تحصيل المعرفة النظرية يفترض أن يعنى البرنامج بتدارك ما فات من تدريب على إنتاج خلاق للنصوص و الخطابات، ناهيك عن استثماره في تحسين مهارات الطلاب الناطقين بغير العربية المنتمين لبرنامج قسم اللغة العربية في تخصصي اللغة و الأدب، و الاعتداد بدراسة وتدريس النصوص الأصيلة بقراءة منهجية ناقدة ، بعيدة عن القراءة الاستهلاكية التي تجعل النص عقيما غير منتج للدلالة بالرغم من لا نهائية المعنى الذي تشكله أنساقه الخطابية، حيث تقف القراءة الاستهلاكية التي تقدمها الطريقة التقليدية عند حدود المعنى المعجمي، وتكتفي بوظيفة اللغة الشارحة ([23]،ص254)، وكان من المفروض الانتقال إلى مرحلة حل المشكلة بالنصوص القرائية الأصيلة ([4]، ص141) .

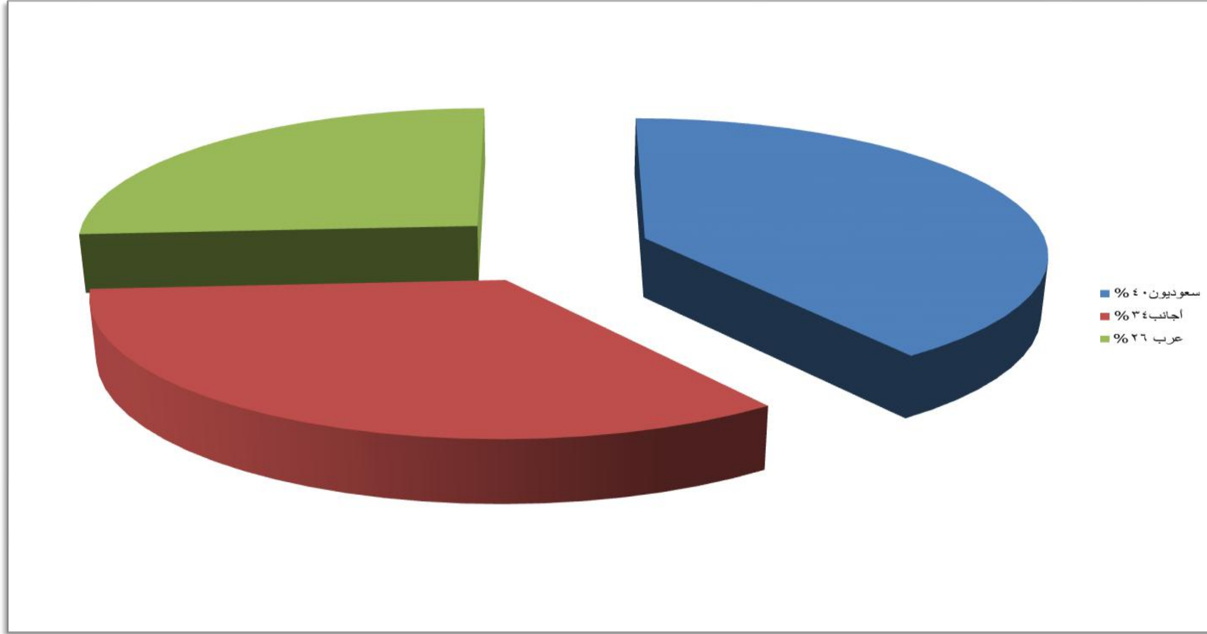
هـ -النصوص الأصيلة

في بحثها الموسوم بـ: **"استثمار النصوص الأصيلة في تنمية القراءة الناقدة"** ([4]،ص42) أشارت الباحثة إلى أن النص الأصيل (Texte Authentique) يمثل في حقل التعليمية (Didactique) كل الأشكال اللغوية الخطابية التي لم تعد أصالة لتعليم اللغة من محادثات ومقالات مختلفة وأدب روائي وقصائد ولوحات إشهارية ومحاضرات علمية وثقافية ونقاشات عامة وملصقات ([59], p59) وغير ذلك من الأشكال المكتوبة و المنطوقة و المرئية، والتي يمكن استثمارها في اكتساب وتعلم مهارات لغوية عديدة، وبهذا المعنى يمكن عد النص الأصيل و الحقيقي كل خطاب واقعي يعرض على شكل وحدات تواصلية متعددة و مستقلة بنفسها عن الغرض التعليمي ([67],p93)، وقد لفتت تعليمية اللغات الأجنبية إلى أهمية هذا النوع في تعليم وتطوير أداء متعلم اللغة الثانية قراءة وكتابة وتحدثا، بينما يغيب هذا التصور التعليمي في تعليم العربية لأبنائها ،إذ تدرس النصوص في الغالب لذاتها، بخاصة النصوص الأدبية إذ يتوقف المنهاج في درسها عند حدود سماتها الجمالية و الفنية ، وقلما يتوجه بها لتكون أداة لتعليم اللغة بصفة مباشرة، حيث يسود الاعتقاد بأولية الدرس النحوي في تعليم قواعد اللغة، واعتماد هذا الأخير الشواهد الصناعية التي تمثل للظاهرة اللغوية، أما استحضار الشاهد بوصفه نصا مكتملا في تعليم المهارات اللغوية فغير ظاهر، بالرغم من تسليمنا بأن المتعلم في أي مرحلة يمكنه أن يختار عفويا أنساقا لغوية نصية ينشأ بها كتاباته وملفوظاته ، لكنه يفعل ذلك ضمنيا، وبدون توجيه من المنهاج الدراسي، والذي مازال يعتمد طريقة القواعد التقليدية في تعليم اللغة، ويكفي في هذا السياق أن نلقي نظرة عاجلة في إحدى مناهج تعليم العربية في أقسام اللغة العربية لنرى ضعف حضور البعد التعليمي في الاكتساب اللساني لهذه النصوص بالنسبة إلى الطالب (توصيف جامعة أم القرى، ص5-15) و(توصيف جامعة الملك سعود ،ص4-12)، وغالبا ما يركز في تعليم النحو بوصفه قاعدة علوم اللغة العربية على الأمثلة المجتزءة من سياقاتها التواصلية ، والشواهد المدعمة للقاعدة التي صاغها النحوي، وقد يلجأ أحيانا إلى المثال المصطنع أو النص المصطنع (Texte Fabrique-Artificielle) الذي يجرد الحالة النحوية ، والذي لا يعبر عن قيمة إبلاغية أو تبالغية ، مما يفقده كفايته التواصلية في المقام التعليمي، بالرغم من تحقيقه للكفايتين الوصفية و التفسيرية في الظاهر. ولعل من أبرز الأمثلة الموضحة للنص المصطنع ما يتم إنشاؤه عن قصد لتعليم نسق لغوي صوتي أو صرفي أو تركيبي أو معجمي ، فإن كان درس القراءة ــــمثلا- يهدف إلى تعليم نطق فونيم الباء ، وكتابته فإن النص المختار سيحوي كلمات أغلبها متكونة منه ، وهكذا مع سائر الموضوعات ([4]،ص43)، وعليه فإن محاولة تحسين أداء الطلاب في مهارات الفهم و القراءة و المحادثة و الإلقاء و الكتابة بالعربية الفصيحة في الجامعة يفترض التوجه إلى انتقاء كم من النصوص الوظيفية و الواقعية المعبرة عن الحياة التواصلية للطالب الجامعي ، بالنظر إلى البيئة الثقافية المنتمى إليها، والقيم السائدة مجتمعيا ، والتي ستكون سياقات إنتاج وفهم لهذه النصوص في فعل القراءة الناقدة، ثم العمل على استثمار مكوناته الفكرية و المنطقية و اللغوية في غرس العادات اللسانية السليمة، ناهيك عن امتلاك القدرة على التفكير الناقد الذي تتيحه هذه النصوص ضمن ديناميكية القراءة المنهجية والناقدة التي يقدمها تحليل الخطاب. وتشير ([4]،ص55) إلى أن استثمار النص الأصيل في تنمية كفاءة الطالب القرائية في البعدين المنهجي و الناقد يحقق أهداف التعلم مجتمعة ، وهي تعلم لتعرف و تعلم لتكون ، وتعلم لتعمل ، وتعلم لتشارك الآخرين([39]،ص37)، ويمكن النظر إلى قراءة هذا النوع بوصف نشاطا مسهما في ربط التعلم بالحياة ، إذ نلاحظ ابتعاد كثير من نصوص القراءة المختارة في مناهج تعليم العربية زمنيا وثقافيا ومكانيا و اجتماعيا عما يحتاجه الطالب القارئ الحديث، مما يوسع الفجوة الشعورية بين الواقع المادي و الحياة الإنسانية، ويباعد بين الحقيقة و التفكير والحالة و المثال، كما أن قصر القراءة على نوع بعينه من النصوص ، وأعني الأدبية يسهم في تكوين رؤية قاصرة تجاه اللغة وما يمكن أن تبلغه من معرفة أو خبرة ، فإلى جانب النص الأدبي هناك نصوص إعلامية وإشهارية وفلسفية وعلمية في الطب و الكيمياء و الفيزياء و تكنولوجيا المعلومات وأخرى تاريخية وجغرافية ونفسية ، وكلها نصوص حية تنبض بالواقعية و الإنسانية و الوظيفية، وهي جديرة بالقراءة و التحليل النصي المنهجي،

بل إن بعض بينت أن طلاب الجامعة يقبلون على قراءة النصوص ذات الصلة بمجال تخصصهم أكثر من احتفائهم بنصوص قديمة أدبية أو بعيدة عن مجال اختصاصهم، وإذا ما أتاح لهم المنهاج فرصة الاختيار و الانتقاء فإنهم سيفضلون نصوص الواقع الجديد الذي ينتسبون إليه، وقد أظهرت الدراسة ذاتها تفاعلهم مع قراءة أنواع لصيقة بحياتهم اليومية يحللونها ، ويعلقون على محتواها النصي بما توافر لديهم من كفايات، وذلك بدافع من منطق الحاجة ، مثل الوثائق الإدارية والمراسلات و التقارير العلمية و ملخصات الكتب و الأخبار والتعليقات الرياضية وعروض الأبحاث، و القاسم المشترك بين هذه النصوص بساطة لغتها ووضوح مفرداتها وأفكارها وقيمة قضاياها في حياة متداوليها، ناهيك عن قصر طولها الذي يدفع الملل المكابد في النصوص الإبداعية المطولة ، والتي لا يتحمل طولها إلا من يقرأها على مراحل. ويندرج تحت هذا النوع ما يعرف بالنصوص الإعلامية (Textes Mediatiques)،وهي أكثر النصوص مقروئية لدى طلاب الجامعة بالرغم من لا تجانسها الخطابي ([40]،ص21) بخاصة على الشبكة العنكبوتية المتاحة الآن على الأجهزة الذكية ، والتي غدت وسيلة تكنولوجية يتسابق الطلاب لاقتنائها في أغلب بلداننا، وفي هذا السياق أشار استطلاع غير منشور لآراء طلاب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود، شمل ثلاثين طالبا موزعين على مرحلتي الماجستير و الدكتوراه ،حول أهمية ما ينشر من نصوص مختلفة في "رسالة الجامعة" الأسبوعية من موضوعات ذات صلة وثيقة بالبيئة الطلابية وعالم الجامعة، وقد خلص الاستطلاع إلى أن نسبة 80% تؤيد أهمية الجريدة و أهمية ما ينشر فيها من موضوعات ، مقابل 15% ترى خلاف ذلك ،بينما مثلت نسبة 5% الطلاب الذين لم يطلعوا على الجريدة إلا مرة أو مرتين، كما مثلت نسبة 40% الطلاب الأجانب من الملتحقين بالبرنامج والعربية لغة ثانية بالنسبة إليهم ممن كان رأيهم إيجابيا في الجريدة و الموضوعات المطروحة، بخاصة تلك التي تسلط الضوء على الأنشطة الطلابية و الصفحة الخاصة بالطالب الوافد. كما تضمن الاستطلاع سؤالا عما إذا كان ممكنا اختيار نصوص من هذه الجريدة و قراءتها وتحليلها في مقرر تحليل الخطاب ، وكانت الإجابة كما يلي:

1- إمكانية توظيف النصوص كلها في مقرر تحليل الخطاب بوصفها نصوصا أصيلة بـ:60% .
2- إمكان توظيف بعض النصوص بالنظر إلى كفايتها اللغوية الفصيحة بـ:30% .
3- إمكان توظيف بعض النصوص بالنظر إلى محتواها من حيث الأهمية بـ:90%.
4- رفض توظيفها بسبب ضعفها اللغوي، وعدم تمثيلها للفصاحة الأدبية ،بـ:10%

أما بالنظر إلى عناصر العينة فقد أظهر الاستطلاع أن نسبة المتفاعلين مع الجريدة اطلاعا وقراءة يختلفون بالنسبة إلى جنسياتهم (مواطنين ، أجانب عرب ، وأجانب العربية لغتهم الثانية)، فيما تبينه الدائرية التالية:



هذا ويحتاج هذا الاستطلاع إلى مزيد من التوسيع و الضبط المنهجي ليكون مؤشرا دالا ذا مصداقية .أما أنواع النصوص التي احتفى باختيارها طلاب البرنامج ، مفضلين قراءتها وتحليلها في المقرر فهي:

1- التقارير بكل أنواعها العلمية و الأدبية

من مقتضى حاجتهم في هذه المرحلة لمعرفة سمات كتابة التقارير(Rapport)، ومن بين الموضوعات التي اختيرت لتقديم تقرير حولها ، وتقديم عرض حال مفصل مدعما بالحجج، و البيانات (Compte rendue) موضوع الأخطاء الكتابية التي يقع فيها طلاب البكالوريوس في قسم اللغة العربية في ضوء تتبع كتاباتهم في اختبار مادة النقد الأدبي، حيث أبرز التقرير الذي أعدته مجموعة من طلاب الدراسات العليا في الماجستير ، وعددهم 5 طلاب بصورة تعاونية:1 - طبيعة الأخطاء(نوعا وعددا)، 2- تفسيرها،3- اقتراحات عملية. أما الموضوع الثاني فتمثل في عرض كرونولوجي لأحداث رواية ذاكرة الجسد قرأتها مجموعة أخرى مكونة ـــ أيضا- من خمسة طلاب ، لم يتجاوز فيها الطلاب سرد المفاصل الأساسية أحيانا بتقليص المادة المقروءة ، وأخرى بتلخيص الأفكار الأساسية بلغة بسيطة، بدون التمكن من فهم مغزى الخطاب السردي و أبعاده الحضارية .

2- النصوص الإشهارية

بوصفها نصوصا جامعة لسلطتي الكلمة و الصورة ([40]،ص22)، إذ تقوم على إثارة المتلقي و استمالته ليقبل على اقتناء المعروض ،والنصوص الإشهارية ملازمة لحياة الناس ،ترقبهم في كل مكان ينزلون فيه ، تتصيد ضعفهم ورغباتهم وميولهم بلعبة الاستهواء و الغواية اللفظية و الحركية، لذلك أظهر طلاب البرنامج ميلا إلى متابعتها وقراءة بعض الملصقات في الجريدة المذكورة ،كما أظهروا متابعتهم لكل الملصقات الإشهارية التي تظهر على اللوحات داخل القسم والكلية والجامعة، ففيها دائما بالنسبة إليهم شيء مهم، بل يقوم بعضهم بالاعتراض و التعليق على ما فيها من أنساق ثقافية أو لغوية تعليقا معياريا ، ويراها بعضهم أداة لشحذ الخيال و التدرب على فن الاقناع ، ويراها آخرون نوعا مهما من النصوص الجديرة بالتحليل في مقرر تحليل الخطاب، وتراها فئة نصوصا يمكن الإفادة منها في تحسين بعض مهارات اللغة العربية الأساسية وهي فئة الطلبة الناطقين بغير العربية، وقد كشف الاستطلاع أن طلاب الدراسات العليا قد فضلوا بنسبة 40% النصوص أشهارية على

سائر النصوص الأخرى ، واختار الطلبة الناطقين بغير العربية النصوص الإشهارية البسيطة في بنيتها اللغوية، و التي تجمع إلى اللفظة العربية المتداولة المقابل الأجنبي لكونه الأكثر رواجا في التواصل الاجتماعي ، ولبساطة تكوينه اللغوي ، والذي يعتقدون أنه مفيد في إثراء حصيلتهم المعجمية من الألفاظ الحضارية ،بالإضافة إلى اعتقادهم -بما تحويه من أنساق ثقافية- يساعد على سرعة الاندماج في العادات المحلية ، بخاصة و أن للإشهار أثرا مهما في تغيير وتعديل سلوك الفرد ورؤيته للآخرين بخاصة حين يتلبس بالدعاية الفكرية ، وبالرغم من وجود خطابات إشهارية ذات منزع تجاري تظهر كملصقات في بهو الجامعة و الكليات إلا أن ما يشد نظر الطالب غالبا هو تلك الإعلانات ذات الصفة التوجيهية و الإرشادية التي تخدم غرض تحسيسي وقائي، بالإضافة إلى الإعلانات الخاصة بمواعيد مناقشة الرسائل العلمية للطلبة المتخرجين، و الورشات و الدورات التدريبية و محاضرات علمية، وقد أظهر الاستطلاع أن طالب الدراسات العليا من خلال العينة يستهل يومه بقراءة ما جد منها ، ورغبته في متابعة نشاطات القسم بخاصة حين ترسل تلك الإعلانات عبر بريده الإلكتروني أو الرسائل النصية وسائر شبكات التواصل الاجتماعي التي يعتمدها قسم اللغة العربية للإبلاغ والإشهار، بينما لا يكترث بما يوزع أو يعلق من ملصقات ترويجية تجارية صرفة إلا نادرا، معللين ذلك بانتشارها خارج الجامعة دون أن يكون وراءها؛ أي تغير يراعي خصوصية المكان ومرتاديه، ولا يعتقد أفراد العينة أن هذه النصوص يمكن الانتفاع بمقروئيتها في الاكتساب اللغوي بخاصة عبر هذه الوسائط، وإنما تنحصر قيمتها في نظرهم في وظيفتها الإعلامية، و([41]،ص831)،وقد تبين من خلال محاورتهم أنهم يربطون قيمتها اللغوية و الأدبية بصورتها الورقية المكتوبة، التي تكون أكثر ضبطا من الحامل الإلكتروني ،حيث تظهر الأخطاء اللغوية المختلفة ،مما يضعف كفايتها التعليمية.

3- نصوص المحيط اليومي(Textes de l environnment quotidienne):

يكثر تداول هذا النوع من النصوص في الحياة الجامعية مثل الفهارس و التعليمات و الإرشادات و الوثائق الإدارية والعقود ([4]،ص73) و اللافتات و الصكوك ووثائق التخرج ووثائق الحذف و الإضافة و إخلاء الطرف وغيرها من النصوص التي يتفاعل معها الطالب يوميا ، ويفضل طلاب الدراسات العليا في العينة بخاصة الطلاب الوافدين التعرف إليها عن كثب ، وتحليل سماتها النصية ، وكيفية توظيفها، بخاصة و أن فيها من المصطلحات التي تحتاج دائما إلى تبيين حتى في مراحل تعليمية متقدمة، بل ويرى بعضهم إمكان الإفادة منها في تطوير بعض المهارات المتصلة بالقراءة و الكتابة بالعربية الفصيحة، ففيها مصطلحات ذات وظيفة محدودة ،لا تتداول في لغة الخطاب اليومي أو ما يعرف بلغة التخصص، كما يرى بعضهم إمكان عدها نماذج نصية تصلح لإقرارها ضمن نصوص مقرر تحليل الخطاب على سبيل إبراز استراتيجيتها في البناء و الغرض، وقد أفرزت نتائج تمرين قدمت فيه نصوص مختلفة من هذا النوع لأفراد العينة المذكورة وجود مشكلات في فهم مفردات معينة ، وكيفية ملئها بصورة سليمة، وقد كان هذا التمرين مؤشرا بالنسبة إلى الباحث يعزز ضرورة الاعتناء بتدريس هذه النصوص لذاتها في مراحل سابقة لمرحلة الدراسات العليا، فمن الغريب جدا أن يفتقر الطالب إلى كفاية إنتاجية في التعامل مع هذا النوع من النصوص، مما يظهر في ضعف لغوي و تقني أثناء الأداء.

4- النصوص العلمية

هي النصوص ذات الصفة المهنية البحتة ، التي ينتجها أهل الاختصاص ([4]،ص75)، ويفضل طلاب الدراسات العليا النصوص العلمية المتصلة بمجال تخصص كل واحد منهم، فطلاب الأدب والنقد يميلون إلى التفاعل مع النصوص النقدية و الإبداعية أكثر من غيرهم، بينما يميل طلاب النحو واللغة إلى قراءة النصوص النحوية واللسانية ،ويرون أن هذا النوع من النصوص أكثر جدوى من حيث امتلاك المعرفة اللغوية المتخصصة، و ترسيخ مهارات العربية الفصيحة كتابة وقراءة ،وقد تصدرت اختياراتهم طائفة من نصوص

جيل الرواد مثل :طه حسين و العقاد و الرافعي وميخائيل نعيمة وجبران، أما طلاب التخصص اللغوي فقد اختاروا نصوصا للجرجاني و ابن خلدون وأخرى معاصرة لأعلام اللسانيات الحديثة مثل تمام حسان والفهري و المتوكل وآخرين، على ما كان بين اختياراتهم من تفضيل. حيث فضل الطلاب الذين يستخدمون العربية لغة ثانية قراءة تلك النصوص اللسانية باللغة الإنجليزية التي يتقنها بعضهم، معللين ذلك بغموض النص المترجم، وكانت أبرز المقالات التي اختيرت من ضمن خمسين مقالة وزعت عليهم ، منتخبة من دوريات عربية مختلفة ،تدور موضوعاتها في فلك اللسانيات و تحليل الخطاب، وقد عزا أفراد العينة اختياراتهم إلى :أ- شهرة المؤلفين ووضوح الأفكار وسهولة اللغة المعبر بها ([42]،ص268-270). ب-أهمية موضوعاتها بالنسبة إلى واقع اللغة العربية تدريسا وبحثا، ج- رغبة بعضهم في اختيار شخصية من الشخصيات لتكون موضوع رسالة التخرج، وبخصوص النصوص المطولة اختار بعض الطلاب بعد قراءة سريعة نصوص ميشال زكريا و تمام حسان ومازن الوعر والحاج صالح بوصفها أوضح النصوص العلمية المهمة بالنسبة إلى تخصصهم. بينما لم يختر إلا طالبان من مجموع أفراد العينة المذكورة نص المتوكل والفهري بالرغم من الصعوبة المصطلحية وحداثة المفاهيم بدعوى رغبتهما في محاولة التعرف على جديد اللسانيات. وبخصوص قراءة الكتب اللسانية التعليمية فقد أظهر الاستطلاع ميلا تفضيليا بنسبة 90% من أفراد العينة لقراءتها باستمرار لاعتقادهم أنها الأنجع لتفسير الغامض ، وترسيخ المعرفة النظرية و تمثيلاتها التطبيقية، بالرغم من اجماعهم عن عدم كفايتها المنهجية في مستوى الدراسات العليا، لكنها ستفيدهم ميدانيا أثناء التصدي لتدريس مقررات اللسانيات وتحليل الخطاب بعد التخرج ، كما تصقل قدراتهم في تحليل الظواهر اللغوية و الاحتجاج لها بما يلزم من الحجج العلمية و الواقعية. كما أجاب طلاب العينة إيجابا باعتقاد صلاحية هذه النصوص لتنمية مهارة القراءة الناقدة و المنهجية، وتحسن كفايتهم التعبيرية بلغة الاختصاص حين يطلب منهم-مثلا- تلخيص المقروء واستحضار محتواه المصطلحي و المفاهيم التي يقوم عليها ، ولعل سبب هذا الاعتقاد راجع —كما تقول موران (Moirand) - في دراستها لوضعية الكتابة احتواء هذه النصوص على قدر عال من المصطلح العلمي و البناء الفكري المتماسك و التراكيب والأدوات و المخططات و الصور وغيرها من قرائن الشرح التي يحتاجها الطالب في مرحلة الدراسات العليا([64],p95]) و([4]، ص79) .

5- النصوص التبادلية(Textes de l echange)

أظهر الاستطلاع ميل طلاب الدراسات العليا إلى قراءة ما يعرف بالنصوص التبادلية، و التفاعل معها، وهذا النوع يقوم أساسا على الاستراتيجية الحوارية الضمنية أو الصريحة مثل المسرحيات و الرسائل الإخوانية و المناظرات بخاصة الدينية و السياسية، وبالنسبة للطلبة الناطقين بغير العربية فإنهم يفضلون التواصل مع المناظرات الدينية لأنها —في نظرهم- تلبي حاجاتهم وميولهم في الثقافة الدينية ، ولتمكنهم من فهمها و معرفة خصائصها اللغوية ، حيث تعتمد لغة متداولة في مستوى اللفظ و التركيب، وهم يعتقدون بأن هذا النوع من النصوص بإمكانه أن يحسن أداءهم الحواري بالعربية حين يشاركون في نقاش عام مع زملائهم الناطقين أصالة بالعربية في البرنامج ، وتساعد النصوص التبادلية التي اختاروها على تدريبهم كيفية بدء الحوار و بناء خطة المحاورة والاحتجاج للفكرة و التوسع فيها، وبالرغم من تعبيرهم عن أهمية قراءة وتحليل هذه الخطابات ، وإمكان استثمارها في إثراء معجمهم اللغوي وأساليبهم الحجاجية إلا أنهم أجابوا جميعا بالنفي عن السؤال التالي: ما النص الحواري العام أو الأدبي الذي قرأته وتفاعلت معه بقراءة منهجية أو ناقدة في المرحلة الجامعية؟ وعمّا إذا كانوا يعرفون نصا حواريا ذا صفة حجاجية اتصلوا به بأي شكل من أشكال التواصل قراءة أو سماعا، مع الإشارة إلى قيمته التداولية بالنسبة إليهم؟ ذكروا فقط مسرحية توفيق الحكيم أهل الكهف و مناظرات أحمد ديدات مع جيمي سواغرت، ويرى طلاب العينة أن أهم فائدة يمكن جنيها من قراءة النص الحواري الجدلي كما هو في المناظرة اكتساب القدرة على الحجاج وبناء استراتيجية المساءلة ، واكتشاف أنواع الحجج التي يمكن أن تعتمد لإقناع الآخرين، وهذه الإجابة تشارك فيها جميع الطلاب من الناطقين بالعربية ومن غير

الناطقين بها، أما المحادثة اليومية و بالرغم من قيامها أيضا على استراتيجية حوارية بسيطة فلا يعتقدون بأن لها أهمية في تنمية مهارات اللغة العربية الفصيحة لكونها منشأة في الغالب بالعامية ، إلا تلك المحادثات المصطنعة التي يمكن أن يتدرب عليها متعلم اللغة الثانية، وبالنسبة للطلبة الأجانب يرى بعضهم أن تسجيل بعض المحادثات اليومية وسماعها باستمرار يمكن أن يساعدهم في التعرف على سمات الكلام العامي الذي لا يستغنون عن معرفته للتمكن من التواصل الاجتماعي في المجتمع الذي يعيشون فيه مؤقتا. وبالنسبة إلى الرسائل فيرى طلاب العينة أنهم في حاجة ماسة للتعرف على تقنيات كتابة الرسائل الرسمية والتعرف إلى استراتيجيات بنائها بخاصة الإدارية، وقد أظهروا رغبتهم في أن تكون الوثائق الإدارية والطلبات الموجهة للجهات المعنية في الجامعة ضمن ما يمكن دراسته في مقرر تحليل الخطاب أو أي مقرر عام ، ويفضل الطلبة الناطقون بغير العربية أن تصاغ النماذج باللغة العربية و الإنجليزية معا، وذكر طالب واحد من أفراد العينة أن إدماجها في دراسة النصوص و الخطابات أمر غير لازم ، وبإمكان الطالب أن يطلع عليها في موقع الجامعة الرسمي ،أو بعض الكتب المخصصة لكيفية كتابة الرسائل بكل أنواعها، وبالنسبة لاكتساب مهارة كتابة الرسائل الإخوانية فقد قلل طلاب الدراسات العليا العرب من أهميتها التواصلية ، وأن قراءة رسائل كبار الأدباء في عصور الأدب المختلفة كاف للتعرف على خصائصها الجمالية، والاستفادة منها لإغناء ذخيرتهم اللغوية و الأسلوبية وصقل تجربتهم الأدبية ، ومن حيث بعدها التواصلي الاجتماعي اعترف الطلاب الأجانب بأنهم مازالوا يكتبون رسائل عادية إلى أهاليهم، ولكن بلغاتهم الأم، وليس بالعربية، في حين أجمع سائر الطلبة العرب على تركهم لها بسبب هيمنة وسائط التواصل الحديثة، واستبدالها بالرسائل النصية السريعة و المختصرة والتي تتغلب فيها اللغة الهجين (العربيزي) ([43]،ص105)، وكذا استخدام رسائل السكايب (صوتا وصورة)، وهي في الغالب تستخدم الاتصال المباشر بالعامية، وهم كغيرهم من شباب العصر يعمدون إلى الاقتصاد في المجهود الكلامي بتفضيل نوعية لغوية دارجة وبسيطة بحسب المستوى الثقافي الذي يحمله المرسل إليه. وبالنسبة إلى التعلم التعاوني ،فإن الطلاب يفضلون العمل جماعيا، ويعتقدون أن الاحتكاك بالطلاب العرب أثناء المحاورة و النقاش سيساعدهم على فهم المقروء ، وصياغة الأفكار مشافهة وكتابة، ويشجعهم على توظيف ما اكتسبوه من مهارات حوارية في إدارة النقاش في موضوع ما، واعترف بعض من حاورناهم بأنهم لم يتمكنوا خارج الحصة من إقامة حوار علمي ناجح مع طلاب عرب بسبب عدم قيام علاقات زمالة أو صداقة معهم لظروف خاصة، لذلك توجهت حصة تحليل الخطاب إلى توزيع الوظائف على الطلاب في شكل مجموعات ، فيها طالب عربي واحد على الأقل، بافتراض معرفة ضمنية باللغة العربية أكثر من غيره ([31]،ص226)، وهنا تتأكد أهمية استثمار أنشطة التعليم التعاوني ، وطلب من المجموعة الأولى قراءة نص إعلامي للكاتبة رقية الهويريني عنوانه :"الفشل الناجح"، والمنشور ضمن عمود المنشود في جريدة الجزيرة اليومية (4-5-2010)، بينما يقوم أفراد المجموعة الثانية في المرحلة الأولى بتحديد الملاحظات اللغوية المتعلقة بكيفية القراءة و أخطاء القراءة الجهرية وأهم السمات التي يمكن ملاحظتها، كما كلفت المجموعتان بإعداد تقرير وصفي مختصر على النص المعين من حيث خصائصه اللغوية والأسلوبية، وشكله البنائي، وأهم الأفعال التي يمكن أن ينجزها انطلاقا من محاولة إدراك المغزى، مع محاولة صياغة التقرير في سلسلة من الأسئلة بإجاباتها ، وكذا إظهار الأطروحة الأساسية وما إن كانت هناك حجج من نوع ما سيقت لتأكيد رؤية أو دحضها، على أن يتم إنشاء التقرير الوصفي بأسلوب تحاوري ومتعاون، يحقق الشراكة في الفهم و الصياغة، ثم تأتي المرحلة الثانية ،وفيها تقوم كل مجموعة بتقييم أداء الأخرى بعد العرض، من خلال إبداء ملاحظات و طرح أسئلة، وقد يتدخل الأستاذ بوصفه قارئا في توجيه مسار الأسئلة أو التنبيه على زاوية مغفلة تستحق التوسع، ثم ينتهي التطبيق في مرحلته الثالثة بقيام المجموعتين بكتابة ملخص مشترك يجمع القراءة في نص واحد، ويوحد النقاش ، ثم يقرأ في الختام على مسمع جميع الطلاب، ويقوم أحدهم بتسجيله صوتيا.

6- الإقراء المنهجي للنصوص الأصيلة

يقوم الإقراء المنهجي للنصوص الأصيلة ضمن مقرر تحليل الخطاب في مرحلة الدراسات العليا على مراحل متكاملة ، يمكّن احترام تنفيذ نشاطاتها من تنمية مهارة القراءة الناقدة لطلاب المرحلة بخاصة الطلاب غير الناطقين بالعربية ، والذين يفتقدون إلى بيئة الإغماس الطبيعية لترسيخ كفاياتهم في اللغة الفصيحة، إذ يحتاج أغلبهم إلى مواصلة تدريبات صوتية وظيفية ،وإنجاز تمارين بنيوية عديدة في القواعد التركيبية و الأسلوبية و البلاغية للتعبير بطلاقة عما في أذهانهم من أفكار بخاصة في سياق المحاورة و النقاش داخل الحصة، ولعل أولى هذه المراحل ما يعرف بمرحلة الإعداد القبلي التي ينشط الأستاذ الطلاب نفسيا ليحدث الانسجام بينهم وبين ما سيقرؤون ، وبحسب الخطة الموضوعة والأهداف المسطرة يمكن أن تنفتح الحصة على نشاطات تمهيدية كقراءة جهرية أنموذجية للنص، أو قراءة صامتة سريعة على افتراض قراءة سابقة خارج الحصة أداها الطلاب، وتنشيط التقييم اللساني للقراءة من حيث الأخطاء التي يمكن أن تظهر في قراءة بعضهم ،خصوصا و أن العربية عند بعضهم لغة تخصص و لغة ثانية، ويمكن أن يسألوا عن معاني بعض المفردات استثارة لمعجمهم الذهني ومعرفتهم الخلفية ([4]، ص177)، أما في مرحلة الاستكشاف فيمكن للطالب أن يتبادل الأسئلة في قالب حواري مع زملائه حول بعض المؤشرات النصية و المقامية الحافة بالنص، يمكن أن تتصل بحياة الكاتب والزمان والمكان و الفكرة العامة و بعض العلامات غير اللسانية ذات القيمة السيميائية المصاحبة للخطاب المنطوق أو المكتوب أو المسجل بإحدى وسائل التكنولوجيا الحديثة ،وبحسب البنية التكوينية للنصوص فإن هذه الأخيرة تختلف في أنماطها وأغراضها، وبالتالي فإن الدخول إلى عوالمها سيكون من أبواب مختلفة وبمفاتيح تحليلية متباينة، ففي النص السردي -مثلا- يتوجه الطالب للبحث في الجملة الفاتحة التي تمثل عتبة النص ، والعنوان ، وهندسة البناء النصي (الحبكة القصصية) والبرنامج السردي وتحليل وظائف الشخصيات ([60],tome 2,p177)، وربما علامات سيميائية أخرى ملتقطة عرضا تخص الكتابة واللون و الحركة و الأصوات كما هي الحال في الخطاب التسجيلي والمناظرات و المسرحيات و الخطابات الإشهارية المختلفة المكتوبة والمرئية وعروض العمل و كروت المناسبات وغيرها مما يستوجب اتباع خطط مختلفة في الإقراء والتحليل، وفي النص المسرحي تركز القراءة نظرها على الضوابط التداولية لفعل الحوار وكيفية بناء المشاهد وترابطها ، وفي نص المقامة يركز على وظيفة الذخيرة المعجمية و البلاغية واستراتيجية الخدعة، وفي النص الإعلامي التمييز بين المحتوى الإخباري و أسلوب عرضه والدلالات المضمرة والأدوات الحجاجية المصاحبة وفي النص الإشهاري يلتفت إلى بلاغة الإيجاز ودينامية الصورة ومستويات اللغة في اتجاه استثارة ميول الجمهور ، وفي الخطابة يركز على إظهار استراتيجيات الإقناع وبناء السلم الحجاجي، ويتحكم نوع النص في زمن القراءة الاستكشافية؛ فقد لا يتجاوز القارئ دقائق معدودة ،وقد يستغرق ساعات، وفي هذا السياق يشار إلى بناء القراءة المنهجية على المبادئ التالية ([22]،ص34-83) و ([44]،ص19-41): أ-مبدأ التعدد القرائي، ب- مبدأ التوفيق بين المقاربات، ج-مبدأ الملاءمة بين النص و أدوات المنهج ([4]،ص150-152) د- مبدأ رفض حكم القيمة ،ه-مبدأ النظرة الكلية للنص في مستوى البنية وفي مستوى القراءة (مؤلف-نص-قارئ) .

إن القراءة الاستكشافية الممهدة للدخول في عوالم النص تسهم في تحصيل جملة من القرائن اللغوية و الحالية التي تعين على فهم المقروء واستدعاء بنيته الدلالية الكبرى، كما يسعى الطالب في مرحلة أخرى إلى تفهم المقروء بتحليله من زاوية لسانية و تداولية تركز على أشكال الربط ومستوياته و أغراض الخطاب و الأبعاد النفسية و الاجتماعية و الثقافية للنص، وفي مرحلة التقويم و التركيب يمكن أن يعيد الطالب بناء ما تم تفكيكه في شكل تقرير وصفي مصاغ ذاتيا أو تعاونيا يبدي فيه رأيه من المقروء ([22]،ص30) تمهيد لربطه بغيره من النصوص باستثمار مفهوم التناص ،ليكون ذلك مدخلا إلى تعدد القراءات، وفي هذه المرحلة يمكن الزعم بأن الطالب قد بدأ في اكتساب مهارات تأويلية مهمة مثل مهارة إجراء المقارنات و النقد الموضوعي

وهي مهارات ونشاطات فكرية بالدرجة الأولى ([4]،ص188) ،كما يمكن ترسيخ ذلك بإجراء تطبيقات موازية خارج الحصة الدراسية ،وعلى مدار فترة زمنية أطول يمتحن فيها ما تم اكتسابه من خطط و استراتيجيات ومهارات ([64],p97) ،حيث ينشأ الطالب نصا أصيلا معتمدا خبرته الذاتية، ليكون أداة لتقييم مهارته الإنجازية .كما إن إدراك الضوابط التداولية لمنهجية إقراء النصوص بعامة و الأصيلة بخاصة بما تحمله من كفايات لغوية ونصية لا يمكن إغفالها في تحسين مهارات طالب الدراسات العليا بخاصة الذي يدرس العربية ويتعلمه لغة ثانية، وهو مدعو إلى استثمار هذه النصوص لترميم نواقص طرائق التعليم التقليدية في مؤسساتنا ، والتي كرست القراءة الشارحة للمعجم وتاريخ الأدب و الأحكام الجمالية الجاهزة من جهة وطريقة حفظ القواعد معزولة عن سياقاتها النصية ووظائفها الدلالية و الإبلاغية من جهة ثانية. و هذا التصور الذي يحاول مدخل تحليل الخطاب المقترح في مرحلة الدراسات العليا تبنيه وتجسيده في التعامل مع النصوص الأصيلة ،قصد استثمارها في تنمية المهارات اللغوية الأساسية ،والتي يحتاجها طالب اللغة العربية لهو القمين بنقله من محدودية القراءة السطحية المرسخة للتفكير السطحي في السلوكين الفردي والجمعي إلى نظر عميق يتفهم الدلالات الضمنية، ويستقطر المقاصد والأغراض المضمرة في بعدها الثقافي، ثم يحاول إنتاجها في نصوص جديدة تعبر عن وعيه بالمشكلات وإمكان حلها. كما تطمح القراءة المنهجية إلى تحفيز دائم للطالب ليعبر عن مواقفهم بأسلوب حواري يعكس ملامح النضج في شخصيته ، من خلال التمرس في طرح الأسئلة واستجلاب الحجج وتنظيمها منطقيا ولغويا، مما يكون له أثر في تطوير **كفايته التواصلية ، وهي العماد الذي تشيد عليه مهارة الحجاج، وحسن السماع إلى الآخر و الثقة في النفس وثقافة الحوار وآداب الخلاف والتخاطب ، وكلها ملكات نفسية يحتاج طالب المرحلة إلى امتلاكها وترسيخها.** وبناء على ما سبق يمكن أن نزعم أن هذا التصور العملي لتعلم اللغة بوصفها مهارات من خلال النصوص الأصيلة سيسهم في تيسير تعليم وتعلم العربية المعاصرة والفصيحة لأبنائها وللناطقين بغيرها ،يعمل أيضا على تقليص الفجوة بين التعليم الجامعي الرسمي ومقتضيات التداول اليومي للغة في الواقع المعيش للطلاب، كما يجعل اللغة العربية الفصيحة لغة حياة وتواصل اجتماعي بحسب ما أسفر عنه استطلاع الرأي الموجه لعينة من طلاب الدراسات العليا الناطقين بغير العربية بمعية زملائهم الآخرين في الجامعة و القسم المعينين، وهذا مبتغى هدف من جملة أهداف يسعى المخطط اللساني إلى تحقيقه فيما يعرف بتخطيط الاكتساب ضمن السياسة اللغوية العليا للمجتمع العربي .

7- المقاربة بالكفايات(La proche par competences)

الكفاية هي القدرة التي يستدمجها المتعلم حين وجوده أمام وضعيات جديدة معقدة ومركبة ، وهي مكونة من معارف ومهارات ومواد يستضمرها لمواجهة الصعوبات ([45]،ص2) ، أما المقاربة بالكفايات فهي مقاربة تربوية حديثة تهدف إلى تكوين متعلم كفء يعرف كيف يستثمر المعرفة ويوظفها ([46]،ص181) ،ويعرف كيف ينمي المعرفة بطريقة ميتا معرفية تسمح بالربط بين الكيفيات والوضعيات داخل سياق تداولي محدد ([45]، ص37) ، وفي مجال تدريس منهاج اللغة العربية لطلبة الدراسات العليا يمكن الزعم بأن هذه المقاربة مفيدة في تمكين الطالب من تعلم استثمار النصوص المدروسة في مقرر تحليل الخطاب بوصفه مقررا جامعا لمعارف ونشاطات وكفايات عديدة في اكتساب مهارات لغوية وفكرية واجتماعية يفيد منها في حياته اليومية ، فيصبح الحدث التعلمي متجذرا في تكوين الشخصية الجامعية كيفا ومنهجا ومهارة ([45]،ص139) و([47]، ص 37) ، و ما يساعد على استثمار هذه المقاربة في إنجاز تدريس هذا المقرر العلمي هو محدودية عدد أفراد شعبة الدراسات العليا ، وتقاربهم في السن والمستوى حيث يعسر توظيفها في مرحلة البكالوريوس لكثرة الأعداد و التباينات في مستوى الطلاب من عدة نواح ، وفي السياق ذاته تشير أدبيات المقاربة إلى ضرورة إعداد الأستاذ الجامعي لكي يكون موجها ومرشدا ومحفزا للوضعيات الإدماجية ، وليس مجرد مدرس ناقل للمعارف النظرية بطريقة تلقينيه و تقليدية يمارس سلطته المعرفية الموجهة في شحن ذهن الطالب بالمعطيات اللغوية والفكرية بدون أن يكون لهذا الطالب أي وظيفة إيجابية في صناعة التعلم .وتطمح المقاربة

بالكفايات إلى اختصار زمن العملية التعلمية من خلال توفير جهود المدرس والمتعلم لتحصيل المعلومات والخبرات والمهارات المحددة ضمن العلاقة الرابطة بين التعلم والحياة ، مما يجعل من النشاط التعلمي المحصل أداة لحل مشكلات عارضة في واقع المتعلمين ، والتعليم بالكفايات تجعل المتعلم في محور العملية التعلمية من حيث توجهه إلى الربط بين محصلات المعرفة والخبرة المكتسبة سلفا ([48]،ص10-15)، مما يسهم في تطور السيرورة الذهنية لديه ([49]،ص49-50) ، والنظر إليها نظرة تعالقية يبنى بعضها على بعض من خلال توالد الأسئلة المعرفية من بعضها ([50]،ص60-61) و([51]،ص24) ، وتذهب البحوث المحددة للمفهوم أن اكتساب أو تعلم كفاية ما يقتضي وضع المتعلم في موقف يدعوه إلى علاج السؤال بتوظيف معارفه ومهاراته السابقة النظرية والسلوكية ([52]،ص130) مما يعني تجاوز المقاربة التي تهتم بالتحليل الكمي ([45]،ص15) للمعلومات بغض النظر وظيفتها الحياتية ، فالمتعلم في المقاربة بالأهداف —مثلا- هو من حصل أكبر عدد ممكن من المعلومات في مجال تخصصه ،غالبا ما يغلب عليها الجانب النظري ، فأن يتعرف الطالب على خصائص النص السردي نظريا و يقوم باستظهارها حين السؤال فيها لا يعود امتلاكا لكفاءة سردية حتى يحول ما تعلمه إلى نشاط لغوي سردي نعلي بأن يكتب قصة قصيرة أو أقصوصة أو يكون قادرا على تمييز النص السردي بين طائفة من النصوص المختلفة عن طريق تحفيز ملكات عديدة تمكن من الاستكشاف الذاتي لتلك السمات المائزة، وهكذا يمكن القول بأن الكفاية ذات سمة استعراضية قابلة للتوظيف في سياقات تواصلية وتعلمية مختلفة ،وهي إلى جانب ذلك تطورية تنمو بالتعليم والتعلم الذاتي والتعاوني ، كما تنماز بديناميكية الانتقال من وضعية تعلمية إلى أخرى مما يجعلها وظيفية متعددة المهارات والنشاطات ([45]، ص05) ، وعلى الصعيد التنفيذي تمكن برمجة مجموعة من الحصص المترابطة والمتضمنة مجموعة من النشاطات بناء على رؤية إدماجية منسجمة فيما بينها بحيث يوزع نص واحد على ثلاثة حصص بمقدار حصة أسبوعيا ليحلل من منظورات عدة يخدم بعضها الآخر ، وتكون نتيجة الوحدة الدراسية تحقيق مهارة معينة كالقراءة الناقدة أو مهارة محددة كاكتساب القدرة على تمييز وتحليل وإنتاج النصوص السردية في ضوء النص المدروس . وتوزع الحصص بناء على أنواع النصوص المختارة في المقرر ،بمعدل حصتين أو ثلاثة أو أربعة على الأكثر ، تكون النشاطات و المهارات والاختبارات الجزئية فيها منتجة لكفاية مرحلية ، ثم تندمج هذه الكفايات الختامية في كفاية واحدة مندمجة هي كفاية تحليل النصوص وإنتاجها في نهاية الفصل الدراسي.

لقد صنفت الكفايات ([54]،ص75) و([55]،ص9-12) و ([56]،ص309-351) إلى أنواع عديدة منها؛ الكفاية معرفية (c de connaissance) التي تظهر في امتلاك الطالب لمهارات عدة منها استخدام الأدوات المعرفية و التعلم المستمر ومعرفة المعلومات و الحقائق النظرية و التفكير المنطقي و القدرة الإدراكية ، أما كفاية الأداء (C de performance) فتظهر من إظهار قدرته على حل المشكلات التي تعترضه بخصوص كفية التعامل مع النصوص المختلفة ، وما تحمله من أسئلة معرفية ووجودية ،وهي بهذا الشكل كفاية سلوكية توفر له إمكان اختيار الاستراتيجية التحليلية المناسبة في تعامله مع النص المعين والأبنية اللغوية و الثقافية و المعرفية التي يزخر بها ، أما النوع الثالث فهو كفاية الإنجاز أو الناتج ، والتي تعد مؤشرا على الكفايتين السابقتين ، فأن يلم الطالب في مرحلة الدراسات العليا بخصائص النص السردي-مثلا- وشرائط بنائه وآليات تحليله كفاية معرفية ، وأن يظهر تعاونه مع تطبيق ما تعلمه في تعامله الفعلي في قراءة هذا النوع ، وإظهار قدرته على استكشاف المشكلات كفاية أدائية ، وأن يصل إلى مرحلة إنتاج المعنى النصي بتحليله فعليا ، ومن ثم توجيه هذا التحليل لاستخلاص مهارات فكرية ولغوية جديدة كفاية ناتج وإنجاز(C de resultats) ([52]، ص 123-124) .

إن مبدأ ربط الكفايات الثلاث بما يقدمه تحليل الخطاب لطلاب هذه المرحلة يستهدف تزويدهم بمعارف قاعدية نحوية ومعجمية وبلاغية وأسلوبية نظرية لا غنى لهم عنها لفهم النص، ويزودهم في السياق التطبيقي نفسه وهم يمارسون فعل القراءة الناقدة مهارات فكرية ولغوية تواصلية تمكنهم-مثلا- من توظيف المعجم

اللغوي النصي في **إنتاج وضعيات خطابية مشابهة** ،كما يمكن أن يوجه سلوكهم نحو تجاوز إشكالات تعلمية وظيفية عديدة في التعامل مع النصوص ،كالتمييز بين أشكالها وربطها بالمقامات المختلفة ، وفي مستوى المحتوى يساعدهم على فهم قضايا ثقافية واجتماعية و التفاعل معها من خلال عمليات عقلية مثل المقارنة و الاستقراء و الاستنباط و البرهنة و التحليل و التركيب و الإحصاء ،فقدرة الطالب الجامعي بخاصة الناطق بلغة ثانية مؤهلة للنمو المطرد لغويا وثقافيا وعقليا بناء على تطور هذه الكفايات التي يستهدفها المقرر المذكور من واقع القراءة المنهجية و الناقدة للنصوص الأصيلة بخاصة ،وسيكون ربطه بين المعرفة النظرية و طريقة تحليلها و استثمار محتواها مؤشرا على مدى امتلاكه لهذه الكفاية، أما السلوك الذي يمكن أن نلاحظه في المراس التحليلي ، وما يمكن توظيفه مقاميا من معجم النص —مثلا- فمعيار تقويمي مهم يجوز الركون إليه لإثبات مدى تحقق الأهداف الإجرائية للحصة الدراسية ، ويكون ذلك في نظر الأستاذ بطلبه مباشرة من الطلاب القيام بنشاطات فورية تمتحن معرفتهم الخلفية ومهاراتهم المكتسبة مثل كتابة مقال وصفي أو خطبة أو تعليق على خبر أو صورة أو بناء مقدمة مناظرة أو كتابة عريضة إدارية أو شرح مشكلة أو قضية معرفية طرحها مقرر دراسي آخر بما يضمن تكافل المقررات و انسجامها في المنهاج الجامعي (النحو —البلاغة و النقد- اللسانيات...إلخ) ،ودمجها نظريا وعمليا في رؤية فكرية واحدة تستهدف تحصيل الكفايات والمهارات اللغوية الأساسية، فقراءة النص المعين تقوم على اندماج كفايات القراءة الجهرية السليمة من الأخطاء الصوتية و النحوية و الدلالية و البلاغية يحقق الطالب من خلالها مبتغاه في تحصيل القواعد النصية ، وتحويلها إلى مادة قابلة للاستثمار لاحقا، فالطالب الذي تعد العربية لغة ثانية بالنسبة إليه يحصل بها مواد البرنامج يمكنه أن يبذل جهدا لكتابة نص بدون أخطاء ممكنة ، والصعوبات التي سيواجهها ستكون مؤشرا على نقص في إدماج التعلمات السابقة التي يوفرها البرنامج ،هذا وتكتسي المقاربة بالكفايات أهمية وظيفية بين مقاربات تعلمية وتعليمية عديدة ، وذلك لاختصاصها بإدماج المعرف و النشاطات المهارية فيما بينها في ضوء فلسفة عامة تربط التعلم بالإدماج الاجتماعي ([48]،ص44-45) ، كما تتوجه نحو الجمع بين التعلم التعاوني و الذاتي في الآن نفسه ،والتركيز على التعلمات المركزية في البرنامج ، مما يضفي على العملية التعلمية مزيدا من الانفتاح على مفهوم تداخل الاختصاصات وتراكم التجارب، وبالنسبة إلى تحليل الخطاب يمكن اعتماد نوعين من النشاط هما نشاط الإدماج (Activitee d integration) ،ونشاط التعلم عن طريق حل المشكلات ([57]،ص20-23)، وبالنسبة إلى النشاط الأول يمكن إقامة تفاعل بين موضوعات دراسية مختلفة مثل نصوص أو خطابات مختلفة من عصر واحد أو عصور مختلفة ومن أشكال متباينة ،أو استثمار نظريات ذات مرجعيات مختلفة اجتماعية ونفسية وتربوية ولسانية صميمية في مقاربة النص المعين ، اتساقا مع سمة التداخل الاختصاصي التي ينماز بها تحليل الخطاب، كما يرتبط الإقراء المنهجي للنصوص في هذا الحقل بتنمية مهارات ذاتية (تحليل —تركيب- محاورة- مقارنة — صياغة-حفظ-تذكر- وصف=تفسير- احتجاج)، مما يفيد في إزالة الحواجز بين تخصصات ومواد منهاج اللغة العربية بعكس الحالة التي هو عليها الآن ، ويجعل من عملية التعلم بخاصة مع الطلاب الأجانب أكثر مردودية بفضل ما سيستثمرونه من مكتسبات سابقة في بناء أو تطوير وضعيات تعلمية جديدة، وهو ما يعرف في إطار هذه المقاربة بإدماج المكتسبات (الإدماج السياقي) ، ويضفي على التعلم سمة النفعية.

7 – أ - مثال لإدماج الكفايات في مقرر تحليل الخطاب:

1) الكفاءة المندمجة المستهدفة في الوحدة الأولى (3 حصص دراسية) : فهم وتحليل وإنتاج نص أصيل ذي سمة وصفية غالبة ، يمتاز بسلامة اللغة نحويا وإملائيا ، ويقوم على ضوابط تداولية تجعله مفيدا للطالب واقعيا، مثل :كتابة مقال وصفي استعراضي أو عرض حال عن وضعية ،أو تقرير ملخص عن كتاب أو رسالة جامعية.

2) الكفاية المندمجة المستهدفة في الوحدة الثانية (3 حصص دراسية): فهم وتحليل وإنتاج نص أصيل ذي سمة سردية غالبة ، يمتاز بسلامة لغته ، ويقوم على استراتيجية الخطاب السردي القصصي ، والمستلهمة من نصوص سردية قرأها الطالب سلفا، ثم يعمل على إنتاج نص قصصي صغير أو مقطع تتمثل في سمات الحبكة القصصية([54]، ص60).
3) الكفاية المندمجة المستهدفة في الوحدة الثالثة (3 حصص دراسية):فهم وتحليل وإنتاج نص أصيل ذي سمة حوارية غالبة ، يشبه في قالبه البنائي مسرحية أو مناظرة أو ندوة أو استجواب.
4) الكفاية المندمجة المستهدفة في الوحدة الرابعة (3 حصص دراسية): فهم وتحليل وإنتاج نص أصيل ذي سمة دعائية غالبة ، يتقاطع فيه الوصف مع الحوار و الصورة مع الكلام ،في شكل لوحة إشهارية أو خطبة دعائية ، أو كتابة شعار أو ملصق إعلاني، وهذا يستدعي اكتساب مهارات مقاومة الدعاية و تأثير الإعلان ، وكذا القدرة على بناء الحجج القوية ، وتمييز الضعيفة منها ، والتمييز بين المنطقي من الأقوال وضدها في النصوص المقروءة.

المشروع التفصيلي : إنتاج نص أصيل يشتمل على الوصف والحوار والسرد و الدعاية ([8]،ص101)، ويتمتع بسلامة لغوية عالية ،وبأفكار طريفة ، ويوظف استراتيجيات تواصلية مختلفة ذات وظيفة واقعية واجتماعية تساعد الطالب في هذه المرحلة المتقدمة على مواجهة وحل مشكلات حياتية ، بداية بالمشكلات اللغوية النطقية والكتابة بالعربية الفصيحة بوصفه يدرس العربية أبها ونحوها لغة ثانية، كما يتضمن المشروع الفصلي اكتساب الطالب القدرة على فهم المعاني الضمنية و الأفكار المرتبطة بالنص وغير المرتبطة به ، مما يعمق وعيه بالضمني و الافتراض المسبق و الحقيقة والرأي الخاص.

7 – ب ـ نشاط التعلم عن طريق حل المشكلات

يقدم تحليل الخطاب نصوصا أدبية و أخرى غير أدبية معبرة عن صميم الحياة الاجتماعية ،تطرح في محتواها تساؤلات عديدة ،تدفع القارئ إلى البحث عن إجابات مقنعة ،قد يحتاج هو نفسه إلى طرح ما يشبهها ،ويقدم حججا مختلفة للإجابة عنها، ومن هذه الزاوية يمكن الزعم بأن تحليل الخطاب بالنسبة إلى طالب الدراسات العليا ليس مجرد مادة يحصل منها تقنيات تحليلية ، بقدر ما هو فضاء فكري تفكري في أسئلة و إجابات موضوعية أو محتملة ينشئها السياق المادي من خلال تداول النصوص الأصيلة، وتدبر هذه الأخيرة من لدن الطالب سيشجع على وضع جملة من الحلول والموازنة بين جدارتها لحل المشكل المعين ، ويتم ذلك من خلال تنشيط عمليات ذهنية ومهارات عقلية عليا (تذكر- مقارنة ــ تحليل ــتركيب- تجريد- تعليل- بناء خطة) ، وقد ساعدت نصوص أصيلة ذات صفة إعلامية للكاتبة **رقية الهويريني** اختيرت ضمن مجموعة مقالات إعلامية للقراءة المنهجية و الناقدة على إعادة مناقشة بعض الأفكار الاجتماعية و الثقافية الحية ، من خلال إعادة التعرف على ملابساتها وتسليط الضوء على ظروف نشأتها، واقتراح ثلة من الحلول المبدئية في ضوء ما تسنى للطلاب جمعة من معطيات نصية وسياقية عامة ، ثم طرح الطلاب سؤالا مهما ألا وهو : **ماذا يمكن أن يحدث لو طبقنا هذا الحل دون غيره من الحلول المقترحة اجتماعيا؟** وقد كان النص المدروس موسوما بـ: **نظام ساهر القاهر.**

إن هذا التحليل الذي يتدرب في الطالب على حل مشكلة لا يمكن أن ينجح بوصف نشاطا عمليا إلا إذا انغمس الطالب فيه انغماسا ماديا، يؤشر عليه مبدأ استصحاب الحال أي ارتباط المشكلة بظروفه المصاحبة([58]،ص104-105) ، حيث تعرض نفر منهم إلى سقطة مرورية كلفتهم غرامات بسبب قهر نظام ساهر، لذا سجل الأستاذ تفاعلا إيجابيا منذ بداية الدرس مع قراءة وتحليل هذا النص محتوى ولغة وأسلوبا، مما أضفى على النص المعين كفاية تداولية عالية في مستوى القوة الإنجازية ،ولعله يعد أنموذجا لتلك النصوص و الخطابات الضاربة في الأصالة إلى أبعد حد.

❖ الخاتمة

لقد أسهم توظيف المقاربة بالكفايات في عرض مادة تحليل الخطاب مندمجة مع معارف و مهارات ونشاطات لغوية وغير لغوية في ربط التعلم بالحياة ، وتحقيق غايات تعليم العربية الفصيحة للناطقين بغيرها، مما جعل من العملية التعليمية و التعلمية في هذه المرحلة المتقدمة أكثر وظيفية و إنتاجية في مستوى ربط تعلم القراءة وفق أسس علمية بحسن التصرف في الحياة من منطق الروح الجماعية ، ولعل أهم نتيجة يمكن تأكيدها في تحليل استطلاع آراء طلاب الدراسات العليا من غير الناطقين بالعربية في القسم المذكور، هي الحاجة إلى ضرورة النظر في منهاج اللغة العربية من حيث المحتوى و المنهج والطريقة و الوسائل، والأخذ بعين الرعاية حاجات هذه الفئة الخاصة من المتعلمين الذين تختلف حاجاتهم اللسانية ،وأهداف انتسابهم للبرنامج عن زملائهم من أبناء اللغة، وضرورة الربط والتنسيق البيداغوجي المحكم بين مواد اللغة والأدب، والتركيز على قراءة النصوص المختلفة بدون تحيز لنوعية معينة قراءة منهجية ناقدة تعتمد أحدث المقاربات النصية و التداولية في تحليل الخطاب بقصد اكتساب المتعلم الجامعي الكفايتين الخطابية(Competence Discursive) والتأويلية (Competence Interpretative)، مما سيمكنه عمليا من تنميط النصوص والخطابات المختلفة، ناهيك عن ضرورة تطوير الأداة التعليمية بتوظيف التكنولوجيا الحديثة في العرض والتقييم ،أما التوصيات التي يمكن أن يقدمها البحث فهي:

1) استخدام أنموذج القراءة الناقدة في تطوير مستوى القراءة، واكساب الطلاقة اللغوية في التعبيرين الشفوي و الكتابي لطلاب الدراسات العليا الأجانب من الناطقين بغير العربية. وذلك بعد تحديد أنواع النصوص التي يميلون إلى قراءتها وتحليلها.
2) ضرورة الاعتماد على استراتيجيات التعلم الذاتي و التعلم التعاوني ، وتوظيف التقنية في تدريس النصوص في المرحلة الجامعية.
3) الانطلاق من مبدأ الدمج بين المعارف و المهارات و الأنشطة(المقاربة بالكفايات) في تحليل النصوص طريقا نحو حل المشكلات المعرفية التي تعترض الطالب الأجنبي في البيئة العربية.
4) ضرورة معرفة حاجات وميول طلاب الدراسات العليا من الناطقين بغير العربية في منهاج اللغة العربية و آدابها في مستوى أنواع النصوص وسبل الاستفادة منها في تنمية الطلاقة التعبيرية بالعربية.
5) ضرورة معرفة واضع البرنامج ومنفذه في العملية التعليمية بطبيعة وخصائص المنتسبين للبرنامج(أعمار-دوافع-خبرات سابقة- لغات مكتسبة) لتيسير عملية النقل الديداكتيكي للمعارف و المهارات المختلفة .
6) عقد ورشات تدريبية لأساتذة الدراسات العليا في كيفية استثمار القراءة الناقدة و النصوص الأصيلة في تطوير مهارات وكفايات لغوية وفكرية بالعربية الفصيحة المعاصرة .

المراجع

[1] **كيونغ ،يون أون** (2012). أفضل منهج لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها من وجهة نظر علم اللغة الاجتماعي ،مجلة الأستاذ ،عدد201،.

[2] **بوراوي، مليكة**(2005). النص القرائي بين المرغوب فيه والمنجز ، النص الوصفي أنموذجا ،مجلة اللغة العربية ، المجلس الأعلى للغة العربية ، عدد14،شتاء.

[3] **عزوز ،فوزية** (2016). المقاربة النصية ،من أصيل نظري إلى إجراء تطبيقي، ط1،عمان، كنوز المعرفة.

[4] **هباشي، لطيفة**(2008).استثمار النصوص الأصيلة في تنمية القراءة الناقدة ، ط1، إربد، عالم الكتب الحديث، وجدارا للكتاب العالمي.

[5] **أبو الهيجاء، خلدون عبد الرحيم و السعدي ،عماد توفيق**(2003).أثر نموذج التعليم وأسلوب التعلم في تطوير مهارات القراءة الناقدة لدى تلاميذ الصف الرابع الأساسي، دمشق ،سوريا ،مجلة جامعة دمشق ، مجلد 19 ،عدد1،

[6] **هريدي ،إيمان أحمد محمد** (2015).مدخل تحليل الخطاب ودوره في تنمية مهارات اللغة العربية في التعليم العالي، ضمن مناهج تعليم اللغة العربية في الجامعات العربية الرائدة، الواقع وفرص التطور ، تحرير عبد الرحمن الخميس، مباحث لغوية (5)، ط1، الرياض ،مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية.

[7] **سليمان ،منى محمد**(2000).الكفاية الداخلية لشعبة التعليم الابتدائي لجامعة المنصورة ،رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية التربية ،دمياط .

[8] **بلقندوز،الهواري**(2008).تعليمية اللغة العربية من منظور لسانيات النص، مقاربة في خطاب المنهج، سعيدة ،الجزائر ،مجلة متون ،يصدرها معهد الآداب و اللغات بالمركز الجامعي ،د.مولاي الطاهر،عدد1،جانفي،ص95-102.

[9] **تون ،فان دايك**(2001).علم النص ،متداخل الاختصاصات ، ترجمة سعيد حسن بحيري ، ط1 ،مصر، دار القاهرة للكتاب.

[10] **العويضي ،وفاء بنت حافظ** (2015).فاعلية دمج برنامج الكورت أثناء تدريس موضوعات مقرر الأدب الأندلسي على تنمية مهارات التفكير الناقد لدى عينة من طالبات قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود ، ضمن مناهج تعليم اللغة العربية في الجامعات العربية الرائدة، الواقع وفرص التطور ، تحرير عبد الرحمن الخميس، مباحث لغوية (5) ط1، الرياض ،مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية

[11] **فاروق، عبد السلام و سليمان ، ممدوح** (1982). كتيب اختبار التفكير الناقد ، مركز البحوث التربوية و النفسية ،كلية التربية ، مكة المكرمة ،جامعة أم القرى.

[12] **جروان ،فتحي عبد الرحمن** (1999). تعليم التفكير،مفاهيم وتطبيقات ، ط1، عمان - الأردن، دار الكتاب الجامعي .

[13] **الشنقيطي ،أمامة محمد**(2015).أثر استخدام حقيبة تعليمية قائمة على استراتيجية التساؤل الذاتي في تنمية مهارة القراءة الشعرية و التفكير الإبداعي والاتجاه نحو اللغة العربية لدى طالبات المرحلة الجامعية ،،ط1،ضمن مباحث لغوية(5) ،الرياض ،مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية.،ص270-353.

[14] **هدى ،محمد إمام صالح**(2015).أساليب إعداد معلمي اللغة العربية بكليات التربية ،دراسة تحليلية ، مباحث لغوية (5)، ط1، الرياض ،مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية.

[15] **العيسوي، محمد عبد الرحمن**(2002).موسوعة علم النفس الحديث، ط1بيروت-لبنان،دار الراتب الجامعي، مجلد 8-9.

[16] **ابن خلدون** (1274). المقدمة ، القاهرة ، بولاق .
[17] **الأوراغي ،محمد**(2010). اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية ، ط1، الجزائر ،منشورات الاختلاف ، والدار العربية للعلوم ناشرون ، لبنان .
[18] **الأوراغي ،محمد** (2014).اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم ،ط2،الجزائر،منشورات الاختلاف، وبيروت، منشورات ضفاف.
[19] **الفهري ،عبد القادر**،(2015) .السياسات اللغوية و التخطيط ،مسار ونماذج ،،سلسلة محاضرات، الرياض ، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية .
[20] **خمري ،حسين**(2007). نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، ولبنان ، الدار العربية للعلوم ناشرون.
[21] **مرتاض، عبد الملك**(2003). نظرية القراءة ،د ت، وهران ،الجزائر، دار الغرب .
[22] **حمود ،محمد** (1998). مكونات القراءة المنهجية للنصوص، المغرب ، دار الثقافة.
[23] **شحاتة ،حسن سيد** (1998) .المناهج الدراسية بين النظرية و التطبيق ، ط1، مصر ،مكتبة الدار العربية للكتاب.
[24] **شحاتة ،حسن سيد**(2008).تصميم المناهج وقيم التقدم في العالم العربي،ط1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
[25] **عصر، عبد الباري حسن**(2000)،الاتجاهات الحديثة لتدريس اللغة العربية في المرحلتين الإعدادية و الثانوية ، ،د ط، القاهرة، مركز الإسكندرية للكتاب.
[26] **الديك، إحسان خضر** (1996). دراسات في اللغة و الأدب ،ط2، الأردن ، دار المستقبل للنشر و التوزيع .
[27] **البراهمي ،محمد** (2001).القراءة المدرسية للنصوص، مجلة فكر ونقد ،المغرب ،عدد42، أكتوبر.
[28] **يحياتن،محمد**(2000).في ضرورة الاستفادة من لسانيات النص في النهوض بتدريس اللغة العربية ،أعمال الندوة الوطنية حول إتقان العربي في التعليم ،منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ، أفريل .
[29] **حمود، محمد**(1993).تدريس الأدب (استراتيجية القراءة و الإقراء) المغرب ، دار خطابي للنشر.
[30] **ريان، فكري حسن** (1999).التدريس ،ط4، القاهرة، عالم الكتب للنشر و التوزيع .
[31] **نصر، حمدان علي**(1996). أثر استخدام نشاطات كتابية وكلامية مصاحبة على تنمية بعض مهارات القراءة الناقدة،دراسة تجريبية، مجلة البحوث التربوية، المنظمة العربية للتوجيه و الثقافة، مجلد16،عدد1.
[32] **مكسي، محمد** (2000).ديداكتيك القراءة المنهجية ، ط2 ، المغرب ، دار الثقافة .
[33] **آدميستك ،كيرستن** (2004).لسانيات النص ،عرض تأسيسي ،ترجمة سعيد حسن بحيري،ط1 ، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق .
[34] **خطابي ،محمد**(1991).لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ،د ت ، بيروت، المركز الثقافي العربي.
[35] **يونس،محمد محمد علي**(2013) .قضايا في اللغة و اللسانيات وتحليل الخطاب ،ط1، بيروت ،دار الكتاب الجديد المتحدة.
[36] **المتوكل ،أحمد** (1995).قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ـــالبنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي ،ط1،الرباط ،دار الأمان .
[37] **كوستا، آرثر وآخرون**(1998). تعليم من أجل التفكير ، ط1 ، ترجمة صفا يوسف الأعسر ، القاهرة ، دار قباء للنشر و التوزيع.
[38] **دي بوجراند ، روبيرت**(1988). النص و الخطاب و الإجراء ، ط1، ترجمة تمام حسان ، القاهرة ، عالم الكتب.

[39] علي، نبيل (2001) .الثقافة العربية وعصر المعلومات ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، وزارة الثقافة ،عدد276،ديسمبر.

[40] موران ،سوفي (2009).ملاحظات وتحليل وفهم خطاب الصحافة اليومية ، ترجمة عبد المجيد جحفة،ط1، بيروت ، الدار العربية للعلوم ناشرون، برعاية الملحقية الثقافية السعودية بفرنسا و مقاليد .

[41] نورالدين، عصام(1998).الإعلان و تأثيره في اللغة العربية ،مجلة مجمع اللغة العربية ،أكتوبر ،مجلد73،ج4،دمشق،سوريا.

[42] بوشحدان، الشريف (2002). واقع الخطاب العلمي في التعليم الجامعي ،الخطاب الجامعي نموذجا ، مجلة اللغة العربية ،المجلس الأعلى للغة العربية ، عدد6.

[43] سراج ،نادر زكريا(2014). العربيزي..دراسة حالة من لبنان، مباحث لغوية (1)،ضمن لغة الشباب العربي في وسائل التواصل الحديثة ، ط1، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية ، ص105-150.

[44] الداهي، محمد(1996) .دينامية الإقراء ، مراكش ،دار وليلي للطباعة .

[45] حمداوي ،جميل (د ت) .بيداغوجيا الكفايات و الإدماج ، شبكة الألوكة .

[46] ديشي ،بيير(2003).تخطيط الدرس لتنمية الكفايات ،ترجمة عبد الكريم غريب ،ط1، الدار البيضاء ،منشورات عالم التربية ،مطبعة النجاح الجديدة.

[47] زيدان ،عبد القادر(2013).النظريات اللسانية وأثرها في تعليمية اللغة العربية ،القراءة في المرحلة الابتدائية أنموذجا ،مذكرة ماجستير غير منشورة، بإشراف سيدي محمد غيثري ، جامعة بوبكر بلقايد، تلمسان .

[48] حثروبي ،محمد الصالح(2002).مدخل إلى التدريس بالكفاءات ،ط1،عين مليلة ،الجزائر، دار الهدى.

[49] عزي ، نعيمة(2007).تدريس التعبير الشفهي و الكتابي واكساب الملكة اللغوية للمتعلمين في ضوء المقاربة بالكفاءات، ماجستير غير منشورة ،جامعة بجاية.

[50] الدريج ، محمد(2000) ،الكفايات في التعليم ،المعرفة للجميع،أكتوبر،عدد16 .

[51] بوتكلاي ،حسين(2004)مفهوم الكفايات وبناؤها عند فيليب برينو،ضمن الكفايات في التدريس بين التنظير و الممارسة،ط1، الرباط، مطبعة أكدال.

[52] الموسى ،نهاد(1998). نحو معيار للكفاية اللغوية في العربية ، أبحاث مؤتمر التدريس الفعال لمهارات اللغة العربية في المستوى الجامعي ،جامعة الإمارات العربية ،برنامج اللغة العربية ،ص130-190.

[53] سليماني ،العربي(2006). الكفايات في التعليم ،من أجل مقاربة شمولية ،ط1، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة.

[54] العناتي ،وليد(د ت). كفايات الطالب الجامعي باللغة العربية ،دراسة لسانية تربوية .

[55] المتوكل ، أحمد (1986)، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي ، الدار البيضاء، دار الثقافة.

[56] الشمري ،عقيل بن حامد الزماي (2016).الكفاية التواصلية ،المفهوم والمكونات و المقتضيات، الأعمال الكاملة للمؤتمر الدولي الثاني ،اتجاهات حديثة في تعليم العربية لغة ثانية ،بحوث علمية محكمة ، الرياض ،معهد اللغويات العربية، جامعة الملك سعود

[57] الفيفي ،حسن بن محمد (2010)،أثر استخدام طريقة حل المشكلات في تدريس مادة القواعد على التحصيل الدراسي لتلاميذ الصف الابتدائي، مخطوط رسالة ماجستير ،في مناهج وطرق التدريس، جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض. المملكة العربية السعودية.

[58] زكريا، محمد بن يحيى ومسعود، عباد(2006).التدريس عن طريق المقاربة بالأهداف و المقاربة بالكفايات، الجزائر ،منشورات المعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية وتحسين مستواهم ،وزارة التربية الوطنية.

[59] **Galisson,R**(1980).Dier a aujourd hui ,la didactique des langues etrangeres du structuralisme au fonctionalisme ,cle international,Paris.
[60] **Ducrot,O-Todorov,T,(1972)**.Dictionnaire encyclopedique des sciences du language,Paris ,ed du Minuit.
[61] **Galisson,R**.(1976).Dictionnaire de didactique des langues ,Hachette,Paris.
[62] **Discotes.**M.(1999).Lecture methodique,Delagrave et crdp ,Midi Pyrenees,Paris.
[63] **Cicurel.F**.(1991),Lectures interactives en langue etrangere ,Hachette.Paris.
[64] **Moirand,S**.(1990).Enseigner a communiquer en langue etangere ,Hachette,Paris.
[65] **Charaudeau,Patrick-Maingueneau,Dominique** et autres (2002).Dictionnaire d analyse du discours, Seuil.Paris
[66] **Adam,J-Michel**(1990).Elements de linguistique textuelle,theorie et pratique,ed.Mardaga Liege.
[67] **Widdowson.H**.(1986).Une Approche communicative de l enseignement de langue ,traduction;Katsi et Gerard,Credif.

السلوكي والمعرفي في تكوين الهوية الثقافية
دراسة في السيرة الروائية " تجربة فتى متطرف " للدكتور محمد العوين"

أ.د.إبراهيم بن محمد الشتوي [1]

[1] أستاذ الأدب بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض- السعودية alshatwy@gmail.com

الاستلام	٢٠١٦/٦/٧	المراجعة	٢٠١٦/١٠/١٣	النشر	٢٠١٦/١٢/٣٠

الملخص:

يذهب كثير ممن يكتب عن الهوية إلى الاعتماد على المكونات الكبرى في تكوين الهوية كاللغة، والعرق، واللون، والدين، والمكان؛ فيقسم الناس بناء على ما يمليه كل قسم، لكن الحقيقة تثبت أن العناصر الصغيرة في الشخصية لا تقل أهمية في تكوين الهوية، ويتجلى هذا بشكل كبير في الجماعات الدينية التي تحرص على الاختلاف عمن سواها بالاعتماد على عناصر دقيقة تجعلها عماد هويتها الثقافية، وقد بدت هذه القضية من خلال تصوير محمد العوين لهذه الجماعات في سيرته الروائية "تجربة فتى متطرف" التي سجل فيها سيرته الشخصية منذ كان في القرية وحين انتقل إلى مدينة الرياض في أوساط التسعينات في القرن الهجري المنصرم أيام دراسته في كلية اللغة العربية وإلى أن تخرج منها.

الكلمات المفتاحة: الهوية، الهوية الثقافية، السرد، الأدب العربي، السيرة الذاتية، الأدب السعودي، الرواية.

Behavioral and cognitive in formation of the cultural identity A study on a narrative biography: "experience of an extremist boy" by Muhammed Al Owen

Prof. Ibrahim M. Alshatwy[1]

[1] Professor of literature at the University of Imam Muhammad bin Saud Al-Eslameya-Riyadh, Saudi Arabia
alshatwy@gmail.com

Received	7/6/2016	Revised	13/10/2016	Published	30/12/2016

Abstract:

Most of studies about Identity depend on central elements on composing nations such as race, language, religion, color, gender and land. However, they neglect certain marginal elements such as habits, interests, behaviors and appearance. Additionally, these factors also play a major role in dividing people, and classifying them into categories. This case clearly shows in religious groups who impose much importance in the differences between them as real distinction in their cultural identity. This case study appears in Muhammed Al Owen's narrative biography ""experience of an extremist boy". The biography outlines and records his life since childhood, before he moved to Riyadh in 70s of last century, tell he graduated from Arabic faculty.

Key words: Identity, cultural identity, narrative, Arabic literature, biography, Saudi literature, the novel.

درج أغلب المفكرين والكتاب عند حديثهم عن الهوية الاعتماد على المحددات الكبيرة كاللغة، والعرق، والدين والثقافة، واللون، والمكان، والجنس، باعتبارها هي المحددات التي تكون الأمم، وتؤسس ما تقوم عليها الجماعة، وتستحق الحرب من أجلها، وتقوم عليها هويتها.

إلا أننا في كثير من الأحوال نجد الأمر على خلاف ذلك فالمكونات الجزئية في حديث الشخص، أو في سمته، أو ملبسه، أو حركاته تعطي دلالة خاصة، تتصل بالذاتية الفردية للشخصية، وتكشف عن معاني ترتبط ارتباطا دقيقا بحقيقته، وتمثل قيمة مستقلة جوهرية عن المكون الكلي، قد لا يكشفه أو يؤديه شيء آخر، فقد كشف إدوارد سعيد في كتابه "الأسلوب الأخير" أن حالة الجسد تفرض تذوقا خاصا للجمال[1] ، مما يعني أن ما يظهر منه يفرض جوانب محددة خاصة الصلة الوثيقة بين ما يظهره الجسد وما يميزه نفسيا وفكريا، هذا التذوق بعد ذلك للجمال ينعكس على الجسد مرة أخرى. كما جاء في دراسة أجريت في جامعة أوتاه على طلابها أثبتت أن الاهتمامات الصغيرة، والأنشطة الجزئية تسهم في جمع الناس والتقريب بينهم أكثر من غيرها [2]، وهو ما أشار إليه ولتر بين مايكل في حديثه عن رواية الولد الضاحك: "حتى تكون من شعب النفاجو، لا يكفي أن تكون ولدت من أبوين ينتميان إلى هذا العرق، ولكن لا بد أن تتصرف كما يتصرفون" [3].

وهذا يتوافق مع كون بصمة الأصبع، وهي أصغر جزء في الإنسان يدل عليه، ويميزه عن غيره، فلكل إنسان بصمة يختلف بها عن الآخر، بالرغم ما تشير إليه دراسة القانوني لويس بولك من أن مستوى إثبات نسبة الفعل إلى الشخص المنسوب إليه الفعل من خلال البصمة لا يرقى إلى معايير الدليل العلمية التي جاءت بقرار المحكمة العليا في أمريكا، واقتبس فيها من دراسة سابقة توصل صاحبها إلى أن القرار بتطابق بصمات الأصبع المختلفة هو قرار غير موضوعي، وهو قرار ذاتي أكثر من أن يكون نتيجة علمية [4]. الأمر الذي دعا بيتر بروكس إلى الاعتقاد أن الإيمان بقطعية دلالة البصمة الأصبع على الفرد يعود في أصله إلى الإرث الثقافي من التنوير والرومانسية التي أفادت بأن كل واحد منا هو متفرد ونادر [5].

هذا المفهوم للهوية من خلال المتفرد والخاص هو المعنى الذي تنتجه بطاقة الهوية الوطنية، حين تميز كل شخص يحملها برقم خاص لا يتطابق به مع غيره، ويؤهله لأن يكون عضوا في مجموعة معينة عليه ما عليها، وله ما لها، فعلى الرغم أن هذه البطاقة بحجم الكف إلا أنها تغير واقعه من حال إلى ضده، يتجلى ذلك في رواية "شطح المدينة"، للغيطاني حين يفقد شخصية الرواية الرئيسة ويتحول إلى شخص ضائع في المكان، لا وجود له، لا أحد يعرفه، "لا مكان له يأوي إليه أو ينتمي إليه... فلم يعد لديه ما يثبت انتساب جسمه إليه"[6]، وهو ما لخصه موظف الفندق بقوله للسارد: "الهوية.. ما يثبت أنك أنت"[1].

يبين هذه المفارقة عادل إمام في مسلسل "العراف"[7] ، فعلى الرغم أنه نشأ في الحي يتيما لا يعرف أبويه، ولم ينشأ في أحضانهم، فقد كان ابنا لأهل الحي جميعا، أرضعته نساؤه جميعا، وأطعمه ورباه رجاله، فإنه لم يكن لديه هوية وطنية، مما يعني أنه لم يكن مصريا على الصورة الرسمية، مما انعكس على وضعه الرسمي، فهو لم يدخل المدرسة، وكانت سيارات الشرطة تستوقفه في كل مكان يذهب إليه حتى أصبح يشعر بأن هذه السيارات هي عدوه الأول.

[1] مسلسل عرض في رمضان في سنة 1434 يحكي قصة رجل نشأ يتيما لا يعرف من أبوه، أقام حياته على التزوير، وانتحال شخصيات متعددة في كل بلد ينزل فيه، فصار يجمع شخصيات مختلفة يبني أسرة في كل شخصية يقيمها ويصير له فيها أبناء. رغب أن يواجه حقيقته ويجمع أبناءه ويتعرف عليهم، ويصبح شخصية طبيعية، وحين قامت ثورة يناير أرد أن يترشح للرئاسة وكاد أن يفوز بانتخاباتها لولا تدخل الشرطة ومحاصرته بأفعاله وشخصياته المنتحلة التي جعلته يعود إلى سيرته الأولى. المسلسل عرض على قناة أم بي سي وقد قام بدور العراف الممثل المعروف عادل إمام.

تبدو قمة المفارقة بعد ذلك حين انتهت هذه الحالة المأساوية على يد أحد أصدقائه محترفي التزوير الذي تبرع بصنع بطاقة له مزودة برقم وطني. عندها انتهت المأساة التي كان يعيشها من خلال بطاقة مزورة، وأصبح الفتى الشريد الطريد مصريا صليبية، فتحول من حال إلى ضده من خلال "كذبة". الأمر الذي يثبت بأن هذه البطاقة هي هوية قائمة بذاتها ومستقلة عما تحيل إليه من دلالة ارتباط الإنسان بالمكان.

وهذا يحيل إلى ما يقول محمد أفاية: من أن "السلطة الإدارية داخل مجتمع من المجتمعات تسعى دائما إلى ضبط أفراد المجتمع من خلال ضبط هويتهم وإعطائهم وثيقة محددة، ومن يفتقد هذه الوثيقة، في عرف هذا المنطق لا هوية له" [8] ، وهذا يعني أن المؤسسة تسعى لبناء هويتها الخاصة التي تتحدد بعدد من المنظومات الإدارية، والاجتماعية. بناء هذه الهوية ينطلق من الأوراق الإدارية التي تمنحها لتابعيها لتجعلهم يتسمون بعدد من المكونات، يحققونها من خلال شروط الحصول على هذه الأوراق، وهي بالتأكيد ليست فقط اجتماعية وإنما أيضا وهذا هو المهم سياسية.

هذه القيمة للجزئي في تكوين الهوية تظهر كذلك في عدد من النصوص تؤكد على إعطاء الشكل أهمية في التفريق بين المتشابهين، والاعتماد عليه في الحكم على حقيقة الإنسان. والأمر المشهور في ذلك هو ما تلبسه المرأة المسلمة ويسمى "الحجاب"، وقد كتب كثير من الكتاب عن الحجاب باعتباره هوية للمسلمة تميزها عن غيرها [2] بيد أن هذه الرؤية نحو الحجاب تنطلق الجانب الواقعي لما تعيشه المرأة خاصة حينما تكون في مجتمعات غير مسلمة، يميزها الحجاب عن سواها من النساء، لكننا سننظر إليه من خلال وظيفته التي جاء عليها في القرآن الكريم، إذ جاء فيه "يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين" [9] ، فالهدف من هذا اللباس، ليس سترهن كما يزعم البعض، ولكن تمييزهن ليعرفن أنهن مسلمات فلا يتحرش بهن، إذا هو لتمييزهن، وللإعلام بأنهن مسلمات، وبما أنهن مسلمات فلهن طبيعة خاصة، وأخلاق معينة، وصفات محددة. وهنا أصبح الحجاب هوية لأنه يرتبط بها.

وهي الفكرة نفسها التي اتخذها عمر بن الخطاب فيما بعد حين فرض على أهل الكتاب لبس الغيار وشد الزنار، فمعلوم أن الرسول لم يفرض عليهم شيئا، ولا أبو بكر، فقد كانوا في ذلك الزمن يلبسون كما يلبس سائر العرب، ولم تكن القضية الدينية ذات أهمية في تحديد موقعهم الاجتماعي، إلا في الحالات التي تتطلب معرفة دينهم بناء على الأحكام أو الأعراف المبنية عليه، لكن بعد ذلك أصبح تمييزهم عن سائر الناس أمرا مقصودا بشئونهم كلها ابتداء من ملابسهم، وما يركبون وكيف يسيرون في الطرقات بناء على أنها جزء من تكوينهم، ومكونا من مكونات هويتهم، يتصل بكل طائفة منهم بدليل أننا نجد في بعض كتب الفقه ما يدل على أن ملابس اليهود تختلف عن ملابس النصارى.

على أننا قد نواجه إشكالية تحيل إلى أن هذه المظاهر، سواء أكان الحجاب في حالة المرأة المسلمة أو الملابس في اليهود والنصارى الآنف الذكر، تكتسب قيمتها بناء على ما تحيل إليه، وهو الدين في الحالتين الإسلام في الحالة الأولى، والنصرانية واليهودية في الحالة الثانية، الأمر الذي يقضي بأن المكون الحقيقي للهوية هو الدين، وليس هذه المظاهر التي تكتسب قيمتها مما تدل عليه، ولا تتجاوز أن تكون دوالا سيميائية على دين من يرتديها أو ثقافته وليس لها هي، وليس قائمة بذاتها.

إلا أننا حين نعيد النظر إلى صاحب الهوية دون العناصر الجزئية التي قد يحكم بأنها دوال سيميائية، وننظر إليه من زاوية أخرى لا يكون فيها قد ارتدى ما يميزه، بمعنى النظر إلى النصراني دون لبس الزنار،

[2] نشرت كثير من المقالات والتحقيقات الصحفية التي تتحدث عن الحجاب من هذه الزاوية، وتعتمد بالحديث عن أهميته على ذلك، ومن الكتب التي ناقشت هذه القضية ولكن من وجهة نظر مغايرة لمن يراه هوية كتاب: عايدة الجوهري، الحجاب: مفاهيم ودلالات، الطبعة الأولى، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007).

أو إلى النساء دون لبس الخمار، سنجد أن موقع أصحاب الهويات يختلف عما كان عليه بعدها، إذ سيتداخل مع الجماعة الأخرى التي يراد تمييزه عنها، وهو ما يعني أنه سيفقد هويته، ولن يكون فئة أو جماعة قائمة بذاتها بناء على اندماجه بالآخر، وانعدام ما يميزه عنه.

وهو ما يعني أن العلاقة بين هذه المكونات، وما تحيل إليها من مدلولات أبعد من أن تكون علاقة سيميائية أو رمزا تكشف بالتأويل، إلى أن تكون جزءا من المدلول نفسه يسهم في تكوينه، وهذا ما يحيلنا إلى الحديث عن الشكل الذي اعتبره الشكلانيون الروس مضمونا [10]، والحديث عن علاقة الرمز بالمرموز له الذي يتحول فيها الرمز قائما بذاته، ذا حضور خاص [11].

وتؤكده النصوص الدالة على وجوب التفريق بين الذكر والأنثى، وتحرم المشابهة بينهما، بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنساء، ولعن الله المتشبهات من النساء بالرجال" [12]، فالتفريق هنا يقوم على اختلاف النوع الجندري الذكر والأنثى[3] ، ويسعى إلى إقامة الحدود بينهما حتى لا تتداخل هذه الأجناس. فلكل جنس عالمه ومحيطه الخاص، بالفعل، والثقافة، واللباس، والمظهر. والفرق بين الجنسين يتجاوز كونه فرقا في اللباس أو طبيعة العمل، أو الكلام أو الذوق إلى الفرق في أصل التكوين، فالذكر ليس ذكرا لأنه يلبس ملابس معينة، أو لأنه يقوم بأعمال معينة، وإنما لأنه يملك من الأعضاء الفسيولوجية، والإمكانات الخلقية، والميولات الجنسية ما لا تملكه الأنثى، والعكس كذلك صحيح. وهذه الملابس أو الأفعال التي يقوم بها الذكر أو الأنثى ليست رمزا للفرق بينهما، أو للذكورة والأنوثة، لأنهما يظهران على كل واحد بلا ملابس أو أفعال، فيظهران في امتلاء وجه الرجل بالشعر، وخلو وجه الأنثى منه، وببروز صدر الأنثى كما في العلامات الأخرى مما ينتج عنه إدراك جنس كل واحد منهما حتى مع اختفاء هذه العناصر الجزئية. الأمر الذي يعني أن هذه العناصر للتفريق بينهما في المظهر ليست دالا سيميائيا على حقيقة خلقها، وإنما هي عناصر مستقلة تمثل في تكوينها جوهرا قائما بذاته من الذكورة أو الأنوثة، وهنا جاء التأكيد عليها في الثقافة الاجتماعية والعزم على الالتزام بها لشدة قيمتها بالاعتماد على صيغة اللعن، وهو من أشد التحريم الذي يرمي إلى جعل هذه الملابس والسمات، والأفعال جزءا من الذكورة، أو الأنوثة الذي لا يتم كل واحد منهما إلا بها.

والأمر عينه يبدو في حكاية الصبي اليتيم الذي مثله عادل إمام في مسلسل "العراف"، فهو لم يكن يختلف عن لداته، وأبناء وطنه في شيء، وإنما يماثلهم في كل ما يتصفون به دقيقه، وجليله، ولم يكن يحول بينه وبين مصريته إلا هذه البطاقة، الأمر الذي يعني أن هذه البطاقة هي هوية قائمة بذاتها ومستقلة عما تحيل إليه من دلالة ارتباط الإنسان بالمكان، بدليل امتلاكه تلك الدلالات، وحين فقد البطاقة لم تكتمل هويته.
البحث عن الهوية في المحددات بوصفه لغة حينا وعرقا حينا آخر ومكانا حينا ثالثة أو معتقدات يعتقدها المرء في خالص تكوينه، لكن أن تتحول هذه المميزة إلى سلوكيات وتصرفات تبدو في المظهر فإن هذا يعد أمرا جديدا، وهو موضوع هذا المقال.

ذات السيرة أو سيرة الذات:

بالرغم أنه من نافلة القول إن موضوع السيرة الذاتية، هو الأنا/ الذات، فهي ببساطة "سيرة كتبها من كان موضوعا لها"[15]. فالكاتب يجهد ليقدم حياته في الكتاب الذي يقدمه لنفسه أو لغيره، يجمع أشلاءها من كل حدب، ويلخص السنوات التي مر بها والأحداث التي عاشها في صفحات معدودة، وفي الوقت الذي يجمع

---

[3] أخذت قضية البحث في الفروق بين الذكر والأنثى في دراسات النوع بحثا كبيرا، وقد ذهب بعضهم إلى أن التفريق بينهما تفريق ثقافي يمارسه المجتمع الذي يصنف الناس في نوعين: ذكور وإناث ويتعامل معهم بناء على هذا التقسيم، ورأوا أن تبديل التعامل يؤذن بتبدل التقسيم، وطرحوا مسألة أن الاختلافات في الجسد لا تمثل مشكلة حقيقة في التقسيم بناء على أن الإنسان روح في الدرجة الأولى.[14]-[13]

هذه الأحداث ويدونها، فتأتي متسلسلة، هو أيضا يربط بينها ربطا منطقيا [16] ويظهرها بصورة مقبولة مشوقة للقارئ.

والأمر لا يتوقف عند هذا الحد، فكاتب السيرة لا يسرد أحداث حياته وحسب، لكنه يستعيدها في ذاكرته، ولدى من يعرفون هذه الأحداث، فيصنع منها شيئا جميلا مقبولا، هذا الجمال والمقبولية ينتج إما عن البناء المنطقي للأحداث وجعل لكل حدث في حياته معنى وسببا، كما يؤكد على ذلك الطلياني في رواية الطلياني حين قرر أن يسرد حياته لمريم، ورأى أنها مناسبة "ليعيد ترتيب الأشياء في ذاكرته، ويبحث عن معنى حياته الذي يراه مسارا من التلاشي والخيبات والخيانات الصغيرة، والتبريرات الحقيرة"[17] أو من خلال اعترافه بأخطائه وظهوره بمظهر التائب النادم على ما بدر منه، المعترف بذنبه، وهو ما يمثل نوعا من الخلاص عما بدر منه، وفي الأثر التائب من الذنب كمن لا ذنب له. ومن هنا فهو إذا يبني ذاته، بل الأبعد من ذلك أنه يبني ذاته كيانا متكاملا يستطيع أن يقرأه الناس، ويدركونه، فبالإضافة إلى أنه يدون نفسه هو أيضا يؤثثها بما يراه مناسبا من أحداث تستحق القص بالقدر الذي يهمل به بعض الأحداث التي لا يراها مستحقة الذكر ولا ينبغي أن تكون جزءاً من الصورة التي يريد أن يرسمها في ذهن القارئ، فيجعلها متخيلة من حبر وورق بعد أن كانت محسوسة من لحم ودم، وعلى هذا فهو يقيد الإنسان بعواطفه، وأحاسيسه، ومواقفه إنها تدوين الذات، وصنع لتاريخ الأنا في أدق خصائصها وتفصيلاتها، فليس عجيبا أن نجد من الكتاب من ينص على هدفه من كتابة السيرة المتمثل بأن ما يكتبه هو الكشف عن القيم الذي قامت عليها الحياة، الأمر الذي يعني أنه يختار من أحداث الحياة ما يدل على تلك القيم أو يتناسب معها بصورة من الصورة، فيقول: "إن الإنسان الذي أنتم واجدون هنا إنسان يرتبط وجوده بالأسئلة التي يطرحها الموت على دلالة العالم" [18] . ولذا يمكن القول بلغة أخرى إن السيرة الذاتية بقدر ما هي تسجيل للذات هي أيضا بناء لها؛ بناء لذات جديدة يريد أن يقدمها الكاتب لنفسه، أو كما تخيل ذاته، وبدت الأحداث له، وكأنها بيان سردي لرحلة البحث عن هوية، أو تقرير لرحلة مضت.

وسواء كانت السيرة قدمت على وجه الحقيقة كما يزعم روسو في بداية اعترافاته حين ينص على أنه يريد أن يقدم "عملا لم يكن له قط من نظير، ولن يكون البتة لإنشائه أحد يقلده. إني أريد أن أري من أشباهي [من الناس] إنسانا على تمام طبيعته الحق، وذلك الإنسان هو أنا" [19] ، أم شابها بعض الأكاذيب [20]، فإن هذا لا يبدل من حقيقة واحدة هي أن السيرة قد قدمت كما يريد أن يقدمها الكاتب نفسه، وهذا يعني أنه لا يجيب على سؤال "من أنا" بقدر ما يقول "هذا هو أنا"، وهذا ما يسميه جوث (Guth) "إعادة تأكيد الهوية" [21]، فهذا "الأنا" التي يقدمها روسو أو سواه من الكتاب لم تأت لشخصية مجهولة في الغالب ولذلك ذكر روسو عن نفسه حين كتب اعترافاته أنه لم يكن في أهل زمانه في أوربا من كان اسمه مشهورا أكثر من اسمه، وشخصه مغمورا أكثر من شخصه [22]، فهو معروف من قبل، وأيا كانت هذه الصورة التي رسمت في أذهان الناس عنه، فإنه يسعى إلى صنع صورة محددة يرى أنها تأكيد للهوية التي كان يظن أنه صنعها من قبل، ويخشى أن لبسا ما قد أصابها، أو شائبة قد شابتها بفعل التأويلات المختلفة له.

وهذا ما نجده في كثير من السير الذاتية إذ نجدها تبحث في الذات، ولا تكتفي بتقديم الأحداث وسردها، وإنما تقدم عواطفها ومشاعرها، وتفسيراتها لأحداث سابقة، وأيام طه حسين التي لقيت صدى كبيرا في الأدب العربي أكبر دليل على ذلك، إذ نجده يقص أحاديثه في الأزهر، ويعيد سردها من جديد كما كانت تدور في نفسه، وعينه التي تقع على الأشياء هي عين الذات، تكبر حينا وتصغر حينا أخرى كما يعتمل في نفسه، وكيف يجدها في دخيلته، ولذا وجدنا رؤيته لعلماء الأزهر واحدة، تقوم على تقليل الشأن والانتقاص، والبحث عن الزلات، فما إن ينضم إلى حلقة إلا ويكون ذلك هدفه، فبعضهم بسبب لازمة يرددها في حديثه، وآخر يكون بغضبهم وعدم قدرة احتماله، وثالث يكون بضعف علمه وعدم قدرته على السيطرة على المادة العلمية، ورابع يكون لفسقه وعدم التزام ما يوجبه عليه العلم، ولا يكاد يسلم أحد منهم إلا واحد أو اثنين.

ومن المؤكد أن الأمر ليس على هذه الصورة، وأن الصبي –كما في الأيام-قد تأثر بما يسمعه من أخيه الشيخ وأصحابه عن العلماء، فتأثر به، وازدادت حدته بما يتصف به من عناد وإصرار، ولقيه من نجاح ومعرفة وإتقان لبعض العلوم جعلته يثق بنفسه وبإتقانه، ويتمرد على الأزهر وما فيه من علم، وحين استقرت هذه الصورة في نفسه في ذلك زمن الحدث، سعى أن يبررها في زمن القص، وأن يبحث فيما يجعلها صحيحة مقبولة[4].

و"تجربة فتى متطرف"[24] لا تخرج عن هذه السير، فهي بناء للذات، وتقديم لها. إنها مرحلة البحث عن الهوية، فالفتى شخصية السيرة الروائية كان يتنقل باحثا عن هويته (حقيقته) من صفحات السيرة الأولى في النص التي كانت تمثل حياته الأولى في القرية وكلية اللغة العربية. تنقل فيها الفتى بين البؤر الثقافية التي يجتمع فيها معتنقو الاتجاهات الفكرية المختلفة محاولا أن يجد الصيغة الفكرية الاجتماعية التي تنطبق مع ما يجده في نفسه، والصالحة لأن يتخذها طريقا يعبر بها عن رؤيته، ويتلبسها بوصفها ذاته الكاملة كما يتخيل نفسه، وكما يحس بها في خلواته، ونوازعه النفسية والعقلية.

وليس مهما طريقة وصول الفتى لهذه التجمعات، أو وصولها إليه بناء على أن النتيجة واحدة، وهي المشاركة معها، ومحاولة البحث عما يناسبه فيها، والمرور بحالة الصراع التي تنتابه بين ما تدعو إليه هذه التجمعات ويتطلبه منه انتماؤه إليها وما يجده في نفسه مما يدفعه بعد ذلك إلى القول: إن رؤيته لذاته التي استقرت بوعيه لا تتناسب مع ما يدور حوله أو يطلب منه من وظيفة يجب أن ينهض بها أو يلتزم به من مواصفات وحدود.

هذه الحدود التي تميز كل فئة من هذه الفئات التي ترحل بينها، عن سواها تجتمع فيها عدد من السمات تضم جزءا يتصل بالرؤية، والمعرفة العلمية، وجزءا آخر يحوي نوعا من السلوكيات في الحديث والملبس وطريقة المأكل إلى بعض الأنشطة التي ينبغي أن ينخرط بها من يؤمن بتلك الأفكار وينتسب إلى الفئات، حتى تصبح جزءا منها وتغدو علامة فارقة لمن ينتسب إليها لا يمكن أن تنفصل عنه. ولكل فئة من الفئات ما يميزها عن غيرها تمييزا تاما حتى لتحكم بالفئة التي ينتسب إليها العضو من شكله الظاهر والحديث إليه دون أن يصرح بذلك، مما يدخل فيما يسميه سعيد بنكراد ب"الإرغامات الشخصية" [5] وهي الصفات التي تطبع الشخصية ذات الاتجاه الإيديولوجي بحيث تفرض عليه أن يتصف بتلك الإرغامات كجزء من إيمانه بالإيديولوجيا، وانتسابه إلى أصحابها.

هذه السمات (الإرغامات) تشكل جانبا جزئيا من تكوين هذه الجماعة بعد المكونات الكبرى، وهي الدين، أو اللغة، والمكان، والعرق، والهدف، والوسيلة حتى، ولكنها تمثل جانبا مهما في بناء هوية كل فئة من هذه الفئات حتى إنها لتمثل المرتكز الحقيقي في بناء تلك الفئات التي تتميز به كل واحدة عن الأخرى، فلا تختلف جماعة التبليغ عن جماعة الإخوان إلا بهذه السمات التي سميناها بالعنوان "المعرفي والسلوكي"، فالمعرفي الرؤية والمعارف التي يؤمن بها المنتسب إلى كل جماعة، والعلوم التي يحذقها، والسلوكي الصفات الشكلية والأنشطة الاجتماعية التي ينخرط بها مما تجتمع كلها تحت مسمى الإرغامات الإيديولوجية، التي من خلالها نحدد تكوين الهوية الثقافية لهذه الجماعة وتلك ومن ينتسب إليها بالرغم أنها لا تمثل جانبا جوهريا في تكويناها ولكنها تقوم بدور حاسم فيه.

---

[4] وهذه العادة معروفة من بعض صغار الطلاب، بأن يبدأ بتسفيه العلماء، وما يقال في الدرس العلمي، ويقلل جهودهم، خاصة من الطلاب الذين قد يصيبون قدرا من التفوق حيث يعكس جنون العظمة عند أولئك الصغار.[23]

[5] الإرغامات من وجهة سعيد بنكراد هي الصفات تفرض نفسها على الشخصية بناء على انتسابها لفئة معينة، على اعتبار وجوب مطابقة هذه الشخصية "بشكل كلي للصورة السلوكية المشتقة من النموذج الإيديولوجي"، وهي "كما أنها تحدد المعالم الأولى للشخصية، تقوم برسم الحدود الإيديولوجية الأولى التي ستؤطر الفعل السردي بمستوياته الحدثية والذهنية". [25]

ولا يصح القول إن هذه الجماعات ليست ذات هويات مختلفة، وإنما هي ذات هوية واحدة، فالفروق بينها جوهرية، وذلك أنها تعد نفسها متباينة تمام المباينة بالرغم ما بينها من تشابه، وليس أشد من الاختلاف بينها أن يفسق بعضها بعضا وقد يكفره بمعنى يخرجها من الدين، ويقع بينها من النزاعات والحروب كما يقع بينها من الاختلاف، فكل واحدة تعزل نفسها عن الأخرى، وتقيم حول نفسها سياجا عماده الدين، والحق، ترمي من يختلف معها من الجماعات الأخرى خارجه، بحيث لا يمكن أن تكون ذات صلة بها. وهذه الحروب بين الفصائل التي ترفع شعارا واحدا قد احتربت في القديم كما احتربت في الحديث، ففي القديم يذكر المؤرخون أن الحنابلة والشافعية قد اقتتلوا قتالا شديدا، كما يذكرون أن الشافعية قد عاملوا الحنفية معاملة النصرانية في الزواج. وفي الحديث نرى أن هذه الجماعات المختلفة تتقاتل فيما بينها في أفغانستان، وفي العراق وسوريا الآن، ويكفر بعضها بعضا، والمقولات المكفرة لعموم المسلمين لعدم موافقتهم في رأي أو موقف كثيرة ومشتهرة.

هذا الفرز الشديد القائم على الاختلاف يؤكد أن كل فئة ترى أنها فئة مستقلة بذاتها، ذات هوية مستقلة يجب أن تدافع عنها، وليس أشد من الإيمان بالاختلاف وأهميته، أن يرى الإنسان أنه يستحق أن يموت في سبيله، كما نرى في هذه الحالات التي أمامنا خاصة وأن قضية بعث الهوية والحفاظ عليها هي إحدى قضايا الجماعات الإسلامية المهمة [26].

وفي "تجربة فتى متطرف" حيث كانت الجماعات الدينية الموضوع الذي تنقل فيه السارد، نجد أن الجماعات تميز كل فئة عن نفسها تمييزا كاملا لا تقبل من خلاله بالاندماج مع الأخرى. هذا التمييز يقوم على رؤية فكرية مسنودة بمعلومات ومعارف، ومعززة بسمات تصف الشخصية المنتسبة لهذه الجماعة دون الأخرى، وببرنامج اجتماعي متكامل ينخرط به المنتسب إلى هذه الجماعة بمثابة التطبيق العملي للانتساب إليها ولكونه أحد أعضائها حتى تشكل كل واحدة منها هوية ثقافية قائمة بذاتها.

الجماعة السلفية:

بالرغم أن السارد لا يلقي عناية خاصة بهذا الاتجاه، فهو من البيئة التي نشأ بها، وينتمي إليه أهله، في حين كان مجال البحث بالنسبة للسارد/الفتى هو الجماعات الجدد التي يسعى لأن يكتشفها ويبحث في تكوينها، إلا أن السارد من خلال تقديمه للبيئة التي يقطن فيها، والشخصيات التي تمثلها وبيان أفعالها، ومواقفها قد شرح هذه المدرسة. فوالده، وصاحب والده، ووالدته، والمسجد الذي ينتمي إليه في الحي كله ينتمي في أساس تكوينه إلى هذه المدرسة. وهو ما يفسر غياب الرؤية النقدية للجماعة، أو اعتبارها حادثا طارئا على نسيج المجتمع يتسم بالنشوز والغرابة.

هذه المدرسة تتميز بالبساطة والعفوية، فأفرادها يميلون إلى الزهد والإعراض عن الحياة الدنيا والاكتفاء منها بالقليل، فهي دار ممر لا دار مقر وكل ما فيها ظل زائل في مقابل الحياة الأخرى الباقية [27].

يرفضون كل جديد حادث فالمذياع من المنكرات التي لا ينبغي أن تكون في البيوت، وتعليم الفتيات أمر سيجلب الفساد إلى المجتمع، والتلفزيون لا يمكن أن يدخل البيوت.

وتبلغ البساطة بهم الذروة حين نقف عند والدة الفتى التي لا تفرق بين الرجال أمامها في الحقيقة والرجال في التلفزيون إذ ترى أنهم جميعا رجال ينبغي التورع عن النظر إليهم وإسدال الخمار عنهم فربما يرونها. ومهما بذلوه من الشرح ليبينوا لها أن ما تراه في هذه العلبة السحرية لا يعدو أن يكون صورا مصنوعة من زجاج بلوري، ولكنها لا تقبل ذلك ولا تقتنع به.

بل إنهم ليرون في المدرسة خطرا يؤذن بتفلت المجتمع، وخروجه على قيمه التي نشأ عليها أبناؤه وتربوا:

"ولو علم والده بما تدعو إليه ليلى وبما أحدثته في نفس ابنه لذهب على الفور هاربا بابنته من معاقل المدارس التي تفسد أفكار وأخلاق البنات وتحولهن من طبائعهن الدينية التي جبلن عليها إلى طبائع وأخلاق الغرب الفاسدة! إن هذه هي أفكار والده عن تعليم البنات. وعن المستقبل القريب الذي ينتظرهن! وهو قلق إلى أبعد حد من اندفاع الحياة في المجتمع إلى هذا النحو، وتذكر الفتى أنه سمع والده يوما في المركز الطبي المتواضع في القرية يخاطب أحد الجيران متحسرا على أخلاق النساء حين رأى ممرضة مصرية تمسك عضد رجل لسحب الدم منه فقال: إن بناتنا سيكن كهذه في القريب العاجل يا أبا ناصر!! والمستعان!" [28].

ويورد السارد حكاية المعركة التي وقعت بعد صلاة الفجر بين الداعين لتعليم الفتاة والممانعين، الذين غالبهم من التيار القديم السلفي في حين أن المؤيدين من أنصار المتدينين الجدد، وقد افترقت الجموع وقد امتلأت أجسادهم بآثار العظ، والرفس واللكم، ولم يسلم المتحدث إلا بعد أن طوقته الحماية من رجل الأمن وأخرجته من باب الإمام بعيدا عن المتعاركين [29] .

هذه السمة الغالبة الشخصية على هذه الفئة يدعمها بعد آخر ثقافي معرفي يميزهم عن سواهم، يتمثل في مصادر المعلومات التي يتصلون بها، ويأخذون عنها معارفهم ألا وهي كتب ابن تيمية، وابن القيم، والنووي، وابن سعدي. ويقرؤون بعد صلاة العصر رياض الصالحين للنووي، وفي رمضان عقود اللؤلؤ والمرجان ويبكون مما فيه من مواعظ أو من سماعهم القرآن الكريم.

وبالإضافة إلى تلك النصوص والمصادر التي تعتمد عليها المدرسة السلفية في تكوينها، نجدها تميل نحو التواؤم الفقهي مع الظروف الاجتماعية، وضرورات الواقع الاجتماعي والسياسي، وتبتعد عن الصدامات والدخول في المتاه السياسي [30] ، فهي تقوم على السلم الاجتماعي، وتقديم الأهم وهو سلامة الآخرة على الدنيا، وتعتمد في بنائها الآخرة على سلامة المعتقد والتزود من العمل الصالح بعيدا عن السياسة. وبهذا تتميز المدرسة بالثبات والاستقرار، والركون لما اعتادت عليه وألفته، فهي ترفض الحراك الاجتماعي، وترى أن كل جديد بدعة وكل بدعة ظلالة وكل ظلالة في النار، وهو ما يؤذن باقتراب نهاية الزمن.

هنا اجتمعت هذه المكونات المختلفة سواء كانت سلوكية شخصية أو ثقافية في بناء هذه المدرسة والمنتسبين إليها، ووسمها بسمتها حتى أصبحوا يتميزون بها عن سواهم من الناس، خاصة وأننا نعلم أن المدرسة ليس لها برنامج عملي أو سمات محددة، والتعريفات التي تعرف بها مختلفة، ومتنوعة وأبرز ما يميزها هي أسماء أعلام تاريخية جمعوا العلم والزهد والجهاد، تنسب إليهم المدرسة وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، ولذا لا نعجب إذا وجدنا كثرة من ينتسب إليها[6] .

---

[6] انظر: مثلا حديث عثمان عبد السلام نوح في الموازنة بين الجماعة السلفية، والإخوان المسلمين حيث ذكر أن حسن البنا كان يزعم أنه من السلفيين. انظر: الطريق إلى الجماعة الأم، الطبعة الثانية، (الرياض: دار المنار للنشر، 1992/1412)، ص9. وقد تحدث د. صالح بن حميد عن تعريف السلفية وتاريخها في ورقة قدمها للمهرجان الوطني للتراث والثقافة في الجنادرية 25 في 1431/14/2هـ، كما أورد عبد الله البريدي عددا من التعريفات ونقدها بالتفصيل في كتابه: السلفية والليبرالية اغتيال الإبداع في ثقافتنا العربية، الطبعة الأولى، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2008م). ص 25 وما بعدها.

جماعة الإخوان[7]:

مثلت جماعة الإخوان المسلمين إحدى الجماعات التي ظهرت في العصر الحديث كصورة من صور رد الفعل على الاستعمار للبلاد الإسلامية، وبالرغم من حداثة عمر هذه الجماعة نسبيا إلا أنها قد أصبحت الجماعة الأبرز في المشهد العربي والإسلامي، وكان لها التأثير البارز على الفكر الإسلامي في العصر الحديث بوصفها جماعة قدمت رؤية جديدة للإسلام، وسعت إلى صياغة وجوه الحياة وفق هذه الرؤية حتى تماهت لدى الكثيرين مع مفهوم الإسلام ذاته. وكان مؤسس الجماعة قد جهد أن يضع برنامجا عمليا لنشر رؤيته، ويدعمها بالكوادر المؤهلة على حمل رسالتها حتى أصبحت ذات مواصفات تستقل بها عن الآخرين وتتميز عنهم.

وقد تناول السارد هذه الجماعة بكثير من الاهتمام، والبحث والعرض، حتى نجدها قد استغرقت معظم السيرة الروائية وقد استطاع السارد أن يتتبع جوانب متعددة من الجماعة وأن يقدم كثيرا من جوانبها المختلفة، بل يمكن القول إنها هي موضوع الكتاب.

تظهر السمة الأولى للجماعة عند نقطة البداية فيما سماه "استقطاب" [8] ، والحقيقة أنه يمكن أن يكون التوظيف أو التجنيد، حيث تبدأ الجماعة بضم العناصر التي تراها فاعلة في المجتمع المحيط بها، سواء كانت هذه العناصر متدينة أم لا، فقد بذلت الجماعة فيه جهدا لأجل أن تضمه إلى أعضائها، "فقد وجد فيه نفر من أولئك الجادين السالكين طريق الدعوة وإصلاح المجتمع ضالتهم" [31] . وذلك لما يتسم به من نشاط وإيجابية في محيطه الاجتماعي، ومحبة للمعرفة ورغبة في الاطلاع، وحرص على القراءة.
لقد بدا حرص الجماعة وهي تعرض عليه أن ينضم إليها، ثم وهي تبحث عنه، وتتعقبه في كل مكان، ولا تدعه وحيدا في "عالمه ذاك المتفرد بالقراءة والاطلاع، فها هم يفدون إليه في كل وقت؛ صباحا ومساء، لا يدعونه لنفسه؛ ...لقد جاءه أحدهم عصر يوم من أيام امتحانات السنة الثانية الثانوية فلم يجده في المنزل؛ فأخبرته (الوالدة) بأن (الفتى) يذاكر في الوادي، فلم يأل جهدا هذا الداعية المتأمل خيرا في فتاه فذهب يبحث عنه في أي واد هو؟! حتى وجده منكبا على شرح ابن عقيل" [32] .

وهذا يبدو أولا في اختيار العناصر المرشحة للانضمام إليها، فهي تحرص على أن يكونوا من المتميزين الذين لهم حضور ونشاط، ثم في المتابعة لهم، والمثابرة في الحرص على حضورهم، وعلى أن يلتحقوا بصفوفها.

ثم تظهر سمة هذه الجماعة بعد ذلك في الكتب التي بدأت الجماعة تفرضها عليه، في محل الكتب الأخرى التي لا ترغب في أن يقرأها، وهي كتب مجموعة من الكتاب الذين يتبنون الفكر الحركي الإخواني من أمثال: سيد قطب، وحسن البنا، وأبي الأعلى المودودي، وفتحي يكن، ومصطفى الرافعي، ومالك بن نبي،

---

[7] نتحدث عن سمات الجماعة كما جاءت في السيرة الروائية باعتبارها قد أصبحت مكونات للجماعة، ولا نتحدث عن غيرها من المصادر بالرغم أننا حين نوازن ما جاء في هذه السيرة مع مصادر أخرى نجد تطابقا كبيرا في التجارب التي مر بها الفتى مع غيره من التجارب، وفي الحالات التي ذكرها مع غيره من المصادر كما أشرنا في بعض المواضع.

[8] يعني الاستقطاب البحث عن العناصر المميزة، ثم بذل الجهود لضمهم إليها، وقد تميزت الجماعة بهذا الأمر حتى يكون أكثر عناصرها أو الذين يتولون القيادة فيها من العناصر ذات الكفاءة العلمية والاجتماعية، وبهذا استطاعت أن تضم إليها عددا كبيرا من الكتاب، والنقاد، والمفكرين، والشعراء. وهذا أمر يحمد لها في ظل عدم وجود برامج عربية للعناية بالكفاءات العلمية والعقلية، وإهدار الخبرات العربية، إلا أن الذي يؤخذ عليها في هذا الصدد اتخاذها مواقف مناهضة لمن لا يتفق مع رؤيتها، أو لا يقبل الانضمام إليها تقوم على التهميش، والإقصاء، والتحذير، والمحاربة في الرزق أحيانا عوضا عن الحوار العلمي ومواجهة الفكر بالفكر.

ومحمد إقبال، ومصطفى السباعي، وسعيد حوا، وزينب الغزالي، ويوسف القرضاوي، في محل نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، ويوسف السباعي، ونزار قباني، وتوفيق الحكيم، وعباس العقاد، والكتب المترجمة.

والسارد وإن لم يذكر أن الجماعة قد استبعدت الكتب الأولى التي كان يتدارسها مع جماعة المسجد ككتب ابن تيمية، والنووي والعسقلاني، وابن عبد الوهاب إلا أن عدم ذكر هذه العناوين مع الكتب التي أوصت بها الجماعة يدل على أنها ليست من مصادرهم الفكرية والثقافية، وأن المصادر التي يوصون بها هي المصادر الأولى التي يذكرونها.

يساند هذه المصادر أنشطة اجتماعية تقوم الجماعة من خلالها بنشر الأفكار، والمعارف التي يجدونها في الكتب التي يقرؤونها، وتمارس قناعاتها، وتجمع أنصارها، وقد مثلت هذه الأنشطة علامة فارقة للجماعة تقوم بها في كل مكان وهي تتمثل بالآتي [33] :

1. **الخلوات البرية:**

فالجماعة تخرج في خلوات برية تكاد تكون أسبوعية بأنصارها، والمنتمين إليها، بحيث إنها تمثل برنامجا تواصليا مع أعضائها، وتنشر ما يريدونه من رؤية وأفكار فيها، وتمثل عامل جذب للانتماء إليها من أجيال جديدة من الشباب.

2. **الأنشطة المدرسية:**

فالأنشطة المدرسية أيضا مثلت عنصرا من عناصر هذه الجماعة، سعت دائما للسيطرة عليها، والعمل فيها ونشر ما تراه من أفكار ورؤى. وقد تعددت هذه الأنشطة ما بين لقاءات مختصرة، ولقاءات مطولة وبرامج كاملة.

3. **الرحلات إلى مكة والمدينة:**

وهي تماثل الرحلات الأخرى في القيمة والوظيفة، إلا أنها تختلف عنها من حيث النوع، فهي إلى أماكن إسلامية وتاريخية، ولذا فإن طابع الرحلة منذ البدء يختلف بناء على المكان، وما يمكن أن يقوم به هناك، فالعمرة تمثل برنامجا كاملا يشغل به أعضاء الجماعة أنفسهم وتتصل بالقيم العليا التي يعلنونها وتمكنهم من ممارسة الأنشطة الأخرى كإقامة الدروس والمواعظ والمسابقات.

4. **الزيارات الخاصة:**

وهي زيارات تقوم بها الجماعة للكبار من أعضائها يتحدثون عن شئون الجماعة وما يشغلهم من قضايا، وقد تكون هذه قريبة، وقد تكون بعيدة للمشاهير من أعضائها.

وقد جاءت هذه المناشط كلها في السيرة الروائية التي بين يدينا، أشار إليها السارد مرات عدة بإيجاز حينا وتفصيل حينا آخر، فذكر أنهم يخرجون في خلوات برية إلى شعيب (الخابية) فقد صور السارد إحدى الرحلات البرية التي قام بها مع الجماعة وكانت مخيما في البر، مرت مشاركة الفتى معهم بمراحل عدة قبل أن يوافق والده، ككل مرة يريد فيها الفتى أن يخرج مع الجماعة، يقوم بها أعضاء الجماعة بدور كبير حتى يقنعوا والده بالذهاب معهم.

يقول السارد في وصف المخيم البري الذي ذهب إليه:

"اختير للمخيم موقع متميز بين لفيف من أشجار السلم الوارفة الظلال. وضربت خيمتان كبيرتان؛ واحدة للمنام، وأخرى للجلوس والكلام!.. وكان صوت الشيخ المقرئ محمد صديق المنشاوي –رحمه الله-يصدح بتلاوة آيات من الذكر الحكيم، وقد وضع على (تندة) السيارة المقابلة للخيمة الكبيرة مسجل له سماعتان كبيرتان، مما أضفى على المكان حالة خاصة بالغة الرقة والشفافية والروحانية متداخلا ذلك الصوت الخاشع الحزين بمشاعر فوارة

تجيش بها نفوس هؤلاء الفتية الأنقياء الصادقين العازمين على أن يكونوا مقدمة ونواة المجتمع الإسلامي الوليد الجديد" [34].

يتبع ذلك وصف لما يدور في الجلسات، يكشف عن السمة الخاصة التي تتسم بها الجماعة، وما تطمح إليه من عمل، مما يتكرر في جميع أعمال الجماعة ومناشطها. وهذا يعني أن الجماعة تعد نفسها فئة مختلفة عن غيرها من الفئات الاجتماعية ولذا فهي تصطفي الآخرين لتحقيق رسالتها الخاصة.

وجاءت المناشط المدرسية في الأحداث المتمثلة بدار العلم التي ذكر فيها السارد أن فيها عددا من الأعمال التي قاموا بها كالخطبة الحماسية التي يعلن فيها الخطيب رفضه لما يراه أمامه من منكرات في المجتمع يعزز بعدها عن دين الله، ويؤكد على منهجها الجاهلي، ثم مسرحية تحكي قصة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وما مر به من محنة لرفضه القول بخلق القرآن، أتبعت بعد ذلك بقصيدة هادرة "تتحدث عن أوضاع الأمة الإسلامية السيئة في كل مكان من كشمير وباكستان، وتركيا وغيرها من بلاد العالم الإسلامي ثم تم توزيع الجوائز وهي كتب إسلامية لمح منها الظلال لسيد قطب، ومذكرات الدعوة والداعية لحسن البنا، والحجاب لأبي الأعلى المودودي وغيرها" [35]. وقد كانت المناشط تصاحب بالتكبير الشديد الذي يفصل مقاطعها سواء كانت خطبة أو مسرحية أو قصيدة، وهو ما يزيد حماسة المتلقي ويذكي من تمازجه مع موضوعه وينشئ شعورا بالتداخل بين الملقي، والحاضرين.

وقد قامت الجماعة برحلة إلى مكة والمدينة باصطحاب الفتى معها، صاحبها ما صاحب الرحلة إلى البر من محاولة إقناع والده، وتكرار زيارته أصحابه، ثم انطلقوا إلى مكة وفي طريقهم يقفون للصلوات، وربما ألحقوها باستراحة يلعبون بها الكرة قليلا، أو قد يصحبها وأما الرحلة نفسها فيتخللها مسابقات، ونكات، وقفشات وربما قام "الأخ الأكبر"[9]. ببعض الخطب التي يحلل فيها الواقع ويبين بعده عن منهج الله والإسلام.

وحين بلغوا مكة قاموا بعمرتهم، وأدوا مناسكها، وكان برنامجهم يعتمد بالإضافة إلى أداء الصلوات والتراويح وقراءة القرآن إلى درس بعد صلاة الفجر يتحدث فيه المسئول عن الرحلة عما يدور حولهم ورأيهم فيه.

وفي الزيارات الخاصة تقوم الجماعة بترشيح العناصر التي ترى أنها قادرة على حمل رسالتها في المستقبل، ويمكن أن تمثل لها هذه الزيارات قيمة روحية وعلمية، وقد قام الفتى بزيارة أحد كبار الجماعة في بيته، كما مرت الرحلة في طريقها إلى مكة بأحد أعضاء الجماعة وتناولوا عنده طعام العشاء.
وكانت الزيارة الأهم التي قامت بها الجماعة هي الرحلة إلى شبه القارة الهندية لزيارة الأعلام من المفكرين الإسلاميين في تلك المنطقة ممن كان لهم تأثير كبير على الفكر الإسلامي الحديث، وكانت الجماعة تعتمد كتبهم مصادر لفكرها من أمثال أبي الحسن الندوي، وأبي الأعلى المودودي، وقد قامت الجماعة بتنظيم رحلة إليهما شارك فيها الفتى، وصف فيها شيئا مما رآه هناك، بل إنه قام بتنظيم برنامج الرحلة الثقافي، وكان مسئولا عن تنفيذه.

وهذه البرامج تعبر عن الجماعة وعن شخصيتها، وكذلك المسابقات فيها والأعمال الموجودة فيها، فلا بد أن تكون متوافقة مع رؤية الجماعة الكلية، وقد بدت هذه الوظيفة للبرنامج الثقافي في الرحلة إلى شبه القارة

---

[9] يأخذ مصطلح "الأخ الأكبر" Big Brother مفهومات سياسية بحيث يطلق على الدول الكبرى المتحكمة بالدول الأخرى، وهو مستمد من السلطة التي يأخذها الأبن الأكبر في العائلة على إخوته حين يمارس عليهم سلطته بناء على كبر سنه في العائلة خاصة حين يطلق أبوه يده على إخوته الأصغر منه سنا. وهو هنا لأن الأعضاء في جماعة الإخوان يلقب بعضهم بعضا بالأخ، وهو الأكبر إما لعلمه أو سنه أو لمكانته في الجماعة.

الهندية حين أصر الفتى وهو المشرف على الرحلة على دخول أفرادها إلى أحد المتاحف بالرغم من وجود طالبات إحدى الجامعات الهندية في المتحف، ورفض المشرف عليها هذا الأمر لأنه يتعارض مع مبادئ الجماعة، ثم أصر الفتي على رأيه حتى أعوزهم إلى التصويت، ثم بعد أن أدخل قصيدة كتبها الفتى في البرنامج بعنوان: "إلى ذات الساري الأخضر" وكان قد كتبها إلى فتاة هندية رآها في بهو الفندق الذي يسكنون فيه، مما أدى إلى استرابة الشيخ حامد به وبمواقفه هذه، بل عرضه بعد ذلك لسيل كبير من النقد بناء على أن للشعر غاية، وأن إضاعته في هذه الموضوعات مفسدة للشعر أي مفسدة [36] [10] .

والسبب في هذا أن الفتى قد أخل بصفة مهمة من صفات المنتسب إلى الجماعة، وتمثل مكونا مهما من مكوناته ألا وهي الطاعة العمياء التي تحدث عنها الفتى عن حاله في الجماعة عندما كان في مكة: "لم يكن الفتى حفيا أين يسكن؟ ولا كيف يسكن؟ ولا مع من يشاركه المبيت من أعضاء الجماعة؛ فذلك كله عائد إلى أمير مجموعته، فهو المتصرف الآمر الناهي، وما عليه هو سوى أن يؤمر فيطيع كما تقضي تعليمات الجماعة، وكما يفرض نظامها الصارم" [37] .

فإصراره على مواقفه أمام أمير المجموعة، وأمام الجماعة كلها جعله يكسر سمة محددة من سمات التابع، وهي الطاعة العمياء التي تميز كل من ينتسب إلى هذه الجماعة، وهي سمة سلوكية تصاحب العضو في كل مناشط حياته، يبدو ذلك من موقف الفتى حين ذهب إلى المستشفى مرافقا لأخيه، وفي موقفه من الممرضة حين امتنع عن النظر إلى الفتاة، وحاول فتح الباب حتى لا يكون في خلوة معها، أو الخروج من الغرفة وتركها للفتاة ريثما تنتهي من عملها، وحين أصرت على أن يساعدها بدأ يساعدها وقد صرف عينيه إلى الناحية الأخرى [38] .

وقد أشرت من قبل إلى أن الجماعة تستقطب عناصرها ممن تتوسم فيهم القدرة على حمل رسالتها، فهي تبحث عن سمات معينة يجب أن تتوافر فيمن تراه أهلا لعضويتها. هذه السمة حين تتكرر، وتتأكد في كل عضو من أعضائها تصبح سمة سلوكية لأفرادها جميعا، وهذا ما وجدناه في الفتى الذي يتسم بالجد والنشاط، والمساهمة في مناشط المجتمع من حوله، ومناشط المدرسة، فكان يقدم الفقرات في الإذاعة الصباحية، وصوته يجلجل من مكبرات الصوت في المدرسة كل صباح محاكيا عبد الباسط عبد الصمد حتى نصحه بعض كبار السن بالحذر من العين، وكان يقرأ على الناس في المسجد بعد صلاة العصر من "رياض الصالحين"، ويؤمهم في صلاة التراويح في رمضان ملونا صوته ومنغما آي التنزيل حتى يبكي الارجال، وتنشج النساء من خلف الستار، وحين يقرأ من كتاب " عقود اللؤلؤ والمرجان" بكاء الرجال بدعوات الرجاء. بالإضافة إلى ما يعرف به من حب للقراءة، والاطلاع، والمعرفة، وتفوق في المدرسة في قريته الصغيرة.

هذه السمة السلوكية المتمثلة بالإيجابية والنشاط، والجد في العمل قد اتسم بها الفتى قبل انضمامه إلى الجماعة، وكانت سببا في اصطفائه ذلك، ثم ظلت صفته فيما بعد، وقد أهلته إلى القيام بعدد من الوظائف أهمها ترشيحه ليتولى أمر مكتبة الثقافة التي من خلالها يتم تزويد القرية بكتب الجماعة [39] ، وتمثل منفذا علميا لها يتم من خلالها اللقاء، والاتصال بالآخرين، ونشر مجلات الجماعة الخاصة كالإصلاح، والبلاغ، والدعوة. ثم قدرته على المشاركة بمناشط الجماعة المختلفة والترحل إلى الرياض حيث يتمكن من تزويد المكتبة وتغذيتها بالكتب الجديدة، وحمل الاشتراكات الأسبوعية من الصحف والمجلات، وما تبع ذلك من كتابة المقالات في الصحف والمشاركة في النقاش الدائر حول رؤى الجماعة وما يدور فيما حولهم من مواقف. كل هذا كان ميزة سلوكية خاصة به يراها المرء منذ الوهلة الأولى.

---

[10] وإلى هذه الرؤية تعود وجهة نظر الجماعة فيما يسمى بالأدب الإسلامي، التي تحدث عنها سيد قطب في كتابه: في التاريخ فكرة ومنهاج، الطبعة السادسة، (القاهرة: دار الشروق، 1403هـ/1983)، ص11 وما بعدها.

ويرافق هذه السمات سمة أخرى تتمثل بالسعي إلى إبعاد ما لا يتفق مع الجماعة وفكرها، ورؤيتها، أو ما لا يسير في ركابها، فقد ذكر السارد أن الجماعة تمارس "عملية الإحلال أو الإبدال، إحلال عضو الجماعة المتصف بالالتزام شكلا ومضمونا والمعبأ بالرؤى الإسلامية التغييرية محل العناصر غير الملتزمة والتي كثيرا ما تصفها الجماعة المنحلة أو الفاسدة أو البوهيمية" [40].

وقد ما رست الجماعة هذا الفعل على الفتى حين حرصت أن تصل إليه كتب الفكر الإسلامي بالإهداء ثم استبدلت المجلات التي يقرؤها بمجلات أخرى تلتزم بفكرها، [41] ثم بدأت تنكر عليه قراءة كتب طه حسين، ونجيب محفوظ، ونزار قباني وإحسان عبد القدوس، ما جعله "يخبئ كثيرا من هذه القراءات عن مرشديه من الجماعة؛ لأنه يعلم مقدار تحرجهم من إقباله على هذا اللون من الكتب؛ لم يجد بدا من الصد قليلا عن كثير منهم" [42] لأنهم يريدون أن يحصروه في قراءة كتب بعينها.

بل يحرصون على أن يظل سائرا في الركب منفذا ما يملى عليه من الجماعة، غير مراعين ما قد يصيب العضو من تطور في العلم والمعرفة، والرؤية، ولذا حين يتخذ مواقف مغايرة للجماعة، يعبر عنها بكل وضوح وصراحة ويصر عليها تبدأ الريبة تحيط به من قبل الشيخ حامد، ويبدأ ينظر إليه بتمعن وريبة شديدة [43]، تؤكد لديه بعد قصيدته "إلى ذات الساري الأخضر" انتكاسة الفتى، ووقوعه في الحور بعد الكور [44].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى أن يدعوه المشرف على النشاط الطلابي، ويواجهه بالشكوك التي تدور في النفوس، وبالمآخذ التي أخذت عليه في رحلته إلى شبه القارة الهندية، وفي قاعة الدرس من مخالفة الرأي والحدة في مواقفه مما تعتقده الجماعة سواء في قاعة الدرس أو سواها من القضايا الفكرية. مما أدى إلى خيبة أمل الجماعة فيه لأنه لا يتفق مع سلوك العضو الناجح، بالرغم أنها كانت تعقد عليه آمالا عراضا كما أشار السارد في أكثر من موقع وتقرنه ببعض الأسماء الذين يحملون راية الجماعة وأفكارها في الجامعة، إلى أن ينتهي الحوار إلى تخيير الفتى بين القبول التام بكل ما تقوله الجماعة، والانصياع لها أو ألا يكون منها، وسيعد من الخارجين على قواعدها:

"وصلت إليه الرسالة واضحة وجلية، إن كنت مع فستكون ثالث ثلاثة من نجوم الجامعة، وستحظى بالإعادة، وسيكون لك شأن. وإن كنت ضد أو حتى مختلفا بعض الاختلاف فإن مصيرك سيكون غير جيد، وستكون معدودا من المنتكسين الذين ينظر إليهم بحذر وريبة" [45].

هذا الجانب الإقصائي الفرزي القائم على ثنائية إن لم تكن معي فأنت ضدي، جعل أعضاء الجماعة في سلوكهم يتصفون بصفة واحدة في ظاهرهم، وفي أفعالهم، وهو ما يؤكد أن السلوك الظاهري هو جزء من مكون الهوية لهذه الجماعة، وعنصر من عناصر تكوينها، ولذلك فهم لا يقبلون معهم من يخالف هذا السلوك ويبعدونه من عضويتهم.

المعرفي في تكوين الهوية:

على أن العنصر السلوكي قد لا يكون هو المكون الوحيد في بناء جماعة الإخوان، بل إن المكون المعرفي لا يقل أهمية عن السلوكي، بل ربما يفوقه في الأهمية إذا اعتبرنا السلوكي نتيجة عن المعرفي، وليس قائما بذاته، ولكننا نعلم أن السلوكي هو جزء قائم بذاته في الفكر الإخواني، بالرغم أنه غير كاف عن المعرفي الذي يشكل الرؤية.

وقد بسط السارد الجانب المعرفي الذي يكون الجماعة والذي ينبغي أن يتسم به فكر من ينضم إليها ابتداء من المصادر التي تحدث عنها وتطالبه الجماعة بقراءتها ومرورا بالمحتوى الذي تضمه الدروس والعظات التي تقال في كل لقاء أو خلوة برية، أو اجتماع في منزل أو نشاط.

تبدو ملامح هذا الجانب المعرفي منذ الصفحات الأولى في دعوة الفتى إلى أن يتحمل مسئولية تجاه أمته، فالأمة هي المحيط الواسع التي تتحرك به، والتي تنتمي إليه، وليس الوطن، أو القبيلة. تتكرر هذه الكلمة "الأمة" عدة مرات دون أن يكون هناك مرجع محدد. وبناء عليه فقد أصبح إنشاء "أمة إسلامية من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق لا منازع لها ولا مكافئ" [46] ، من سمات الخطاب المعرفي للجماعة، وقد بدا ذلك في حديث الفتى عن الاجتماع المنعقد في منزل التركستاني حين "رأى في تلاقي هذه الوجوه بسحنتها المختلفة وانتماءاتها المتعددة خير ما يطمئنه على نبل اتجاهه الإسلامي، وعلى خيرية الحركة التي ينتمي إليها؛ فلا فرق بين من هو من أصول غير عربية، ومن هو من أرومة عربية قحة، ولا فرق بين من هو على جانب كبير من العلم أو من وجاهة المنصب ومن هو طالب متطلع للمعرفة" [47] .

هذه الوحدة تتأسس بعد ذلك على هجاء المجتمع المحيط بهم المتصف بجميع أنواع الفساد، والمثالب مما يجعله مجتمعا جاهليا ضالا بعيدا كل البعد عن المجتمع الإسلامي المنشود [48] ، الذي تمثله الجماعة بشبيبتها المؤمنة، وتهيب بأبنائها السير في طريقه.

هذه المثالب، والمفاسد تحدد بالتشبه بالغرب، والميوعة، والتبلد، والضعف، والتبعية والاستسلام لتقليد الغرب الكافر، والإعراض عن نصرة إخوتهم في الدين من المسلمين في بقاع الأرض كتركستان، ومورو، والهند وفلسطين وغيرها.

وهذه المآسي والمشاكل التي تقع للمسلمين في أصقاع المعمورة هي الوسيلة الكبرى لتغذية مشاعر الغضب، والحماسة في نفوس شباب الجماعة حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من خطاب الجماعة ولقاءاتها، فلا يلتقي أعضاؤها حتى يقوم خطيب فيهم يتحدث عن الفساد الذي يحيط بالأمة الإسلامية، بل أصبحت الشخصية المسلمة هي الشخصية الناقمة على الواقع والمجتمع [49] ، والجاهلية التي تعيشها، وما حل بها من الضعف والهوان حتى تلتهب الحماسة وتضج الحناجر بالتكبير، وقد يغذي هذه الحماسة، ويشيع السخط من خلال الحديث عن النقص في الجوانب الخدمية والتلميح بالمسئولين، أو النقد القاسي لما يبدو في الإعلام من مشاهد، كما كان يفعل عبد الحميد كشك، [50] والإسلام هو الحل لكل هذه المآسي التي تواجه المسلمين، والذي ينبغي أن يسير عليه المسلم، فيبني "حياته الخاصة والعامة كما يريده الله، وكما يصوغه الإسلام" [51] ، فالإسلام هو الحل لمشاكل الاقتصاد والتعليم، وتدني الأخلاق، والأمانة. الإسلام يقدم رؤية شمولية تحتوي تقسيمات دقيقة ومعالجات لكل جزئية؛ المرأة، العدالة الاجتماعية، العدالة المالية الإسلامية [52] .

وواضح من خلال ما سبق أن الخطاب الإسلامي في هذه التجربة يقوم على جانبين:

1. إثارة النقمة والسخط على المجتمع من خلال ما يرونه من مظاهر الفساد، والتخلف، والضعف، والجهل.
2. إثارة الحماسة بين الشباب للإصلاح والانخراط في مجموعة تعلن أنها هي القادرة على قيادة المجتمع وإصلاحه، وإخراجه مما هو فيه.

يتبع ذلك إعلان أن الإسلام هو الحل لهذه المشاكل بجميع أنواعها، مستعينا بالنصوص الشرعية التي تعالج بعض مظاهر الفساد، دون البيان الدقيق لما يمكن أن يقوم به، أو البرنامج التفصيلي، وهو ما وصم هذا الخطاب، وجعل حماسة الفتى فيما بعد تخف عن التمسك به.

جماعة التبليغ:

تمثل الجماعة إحدى الاتجاهات التي تمثل الحركات الإسلامية في العصر الحديث، وكان ظهورها في السيرة يمثل وجودها في مجتمع الفتى، وارتباطه بها. وهي تتسم كغيرها من الجماعات ما يميزها عن سواها من جوانب سلوكية ومعرفية وقف عندها السارد في حديثه هنا.

فالجماعة خليط من السوداني، والهندي، والباكستاني، واليمني، والسعودي يؤمنون على ما يقوله شيخهم دون اعتراض أو استفهام. [53] وإذا كانت هذه هي صفات تتوافر في جماعة الإخوان أيضا فإن هؤلاء الأعضاء يزيدون بأن تلك الطاعة قد توجت بالبيعة التي يأخذها أميرهم في نهاية كل لقاء، دون بيان ما تكون عليه هذه البيعة، وهو ما يعني الطاعة التامة العمياء، كما يزيدون عنهم بتواضع أحوالهم الاجتماعية، فهم يبيتون في المسجد في فرش متواضعة، تغلب عليهم الدروشة في ترد للمظاهر الخارجية.
هذا التردي منطلق من الولاء لمبادئ التبليغ القائمة على الزهد، والتقشف، والبعد عن ملذات الحياة الدنيا، والتطهر الذاتي، وليس بالضرورة بسبب الضعف المادي، والاجتماعي لهذه الجماعة، ف"قناعات الأفراد التبليغيين بأن الإسلام والدعوة تنحصر في العبادات وبتخليص المسلم من حب الدنيا، ومن الانصياع للشهوات، والإقبال على الله بالتفرغ للعبادة وتطهير النفس، والإخلاص للعمل التبليغي والانقياد إلى ما تعزم عليه من رحلات دعوية في الداخل والخارج" [54] .

وما عدا ذلك فيغلب عليهم تواضع الفكر، والبعد عن نقد المجتمع أو إثارة الشحناء والبغضاء، والسخط عليه كما هو حال الجماعات الأخرى، بل يبلغ بهم الحال إلى ترك أفرادهم يعملون ما يشاءون من أعمال تخالف ما يؤمنون به من مبادئ ما دام ذلك يرغبهم في الجماعة والانضمام إليها كما هو حال الشاب التبليغي الذي وجده يشرب البيرة في مؤخرة الطائرة وهو في رحلته إلى الهند [55] .

وعلى الرغم أن البرنامج السلوكي للجماعة يحوي نوعا من التراتبية التنظيمية، وخروجا منظما مع الجماعة ينذر فيها المنتسب إليهم نفسه (إحالة خارجية) إلا أن السارد لم يتناول هذه القضية، ولم يفصل بها وذلك لعدم انتظامه معهم انتظاما كاملا كما هي حاله مع جماعة الإخوان، ومع ذلك فقد وقف على جوانب مهمة في تمييزهم عن سواهم.

وإذا بلغنا الجانب المعرفي للجماعة نجده يتردد بهذه القضايا المتمثلة بالدعوة إلى تطهير النفس، والعناية بتزكيتها، والدعوة إلى الإعراض عن ملذات الدنيا، والزهد فيها، والنأي بالنفس عن المجتمع الفاسد، فالانتساب إلى التبليغ يعني "أنه ينقطع عن مفردات الفساد اليومية ويهاجر بنفسه وبروحه مع الجماعة أينما حلت أو رحلت لأنها –كما يرى المتحدثون-المجتمع البديل الصالح"، مكتفين بهذه الرقائق اليسيرة التي تؤكد هذه المعاني مع قراءة في كتاب "حياة الصحابة" لكاندهلوي، وكتاب رياض الصالحين، [56] .

البحث عن الذات:

سبق القول إن الاتجاه الديني بوجهه السلفي قد نشأ مع السارد منذ نعومة أظفاره مترسما خطى والده في القرية، غير مكتف بالتقيد به مظهرا بل كان منخرطا بعدد من الأنشطة الاجتماعية الدينية التي تثبت انتسابه إلى ذلك التيار وحمله جزءا من مسئولياته، فكان يقرأ الأحاديث بعد الصلوات على جماعة المسجد، وربما أمهم في صلاة التراويح، كما كان يتولى إذاعة المدرسة الصباحية.

بيد أنه منذ الوهلة الأولى يعيش صراعا حادا بين نوازعه الشخصية الفردية، وما يقوم به من دور إصلاحي، بدا أول ما بدا في حادثة الفتاة التي كانت تنتظره عند الباب في طريقه إلى المسجد مفتعلة تنظيف ما

يقرب من باب الخروج، لافتة الانتباه إليه بابتسامة مشرقة داعية هفت لها نفسه، ومال إليها قلبه لولا أن صوتا قطع عليه أحاسيسه تلك، وجعله ينصرف إلى ما كان ينوي أن يقوم به.

على أنه من الممكن القول إن هذه النزعات التي تراوده هي نزعات طبيعية، فالإنسان مجبول في تكوينه على الصراع بين طبيعتين، أو اختيارين نوازع الخير والشر، وليس معنى أن مجرد ميله إلى أمر يناقض ما يدعو إليه التدين بوجه عام يعني أنه يرفض ذلك المبدأ أولا يناسبه، إلا أن الفتى قد اتخذ من هذا أداة للوصول إلى تكوينه الشخصي الحقيقي والهوية التي وصل إليها. ونحن نعلم أن هناك كتبا كثيرة تساعد الذين يسيرون في طريق الدعوة على التغلب على نوازعهم النفسية، والتطهر من كل ما يعيقهم من الكمال لتحقيق أغراضهم.

بيد أن الكاتب لم يقصر هذه النوازع على النواحي الفطرية التي تعتري قلب الشاب ممن هو في عمره، وإنما ضم إليها في البحث عن ذاته بعدم الالتزام بما تطلبه منه الجماعة في قراءته الثقافية، واستجابته لرغبته الملحة بالاطلاع على كتابات طه حسين والعقاد، ونجيب محفوظ، ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، ونزار قباني، وغادة السمان، وسهيل إدريس، وتوفيق الحكيم بالرغم من إصرار الجماعة على رفض هذه الكتب، واختلاسه الأوقات التي يكون فيها بعيدا عن أعينهم حتى يشتريها.

هذان الاتجاهان يجعلانه في دخيلته يشعر أنه غير مؤمن بقدرته على تحمل مسئولية الجماعة التي ترغب في أن تلقيها على عاتقه حين لجت نفسه بالتساؤل بعد أن أخبره أحد الإخوة بأنهم يتعشمون به أن يتحمل مسئولية كبيرة "لا تخلو من تضحية وفداء" [57] فقد تساءل عن قدرته على القيام بهذه المهمة من حيث المقدرة العقلية، والفكرية، ومن حيث الطهر وصفاء الروح، فهو لا يقدر على مواجهة شهوات نفسه ورغباتها، فكيف سيصلح العالم [58] .

على الرغم أن ذلك القلق قلق إيجابي، فهو يعني أنه في حالة مراجعة لنفسه وتطوير لها بما يتناسب مع ما يراه من مقاييس مثالية تطمح له الجماعة، وهو ما يتفق مع شخصية المثقف الطموح المثالي الإيجابي، ويتفق مع طبيعة جدلية الواقع والمثال المعروفة. إلا أن الفتى نظر إلى الجانب السلبي منها بوصفها إرهاصات على التحول، وأنها تنبئ عن حقيقة نفسه الدفينة التي لا تتناسب مع متطلبات الجماعة وحقيقتها.

الأمر الذي غذى الصراع في داخله بين ما يجده في نفسه وما يطلب منه أن يعمله كلما تذكر الأقوال التي تتردد في ذاكرته "احفظ المعالم، وتذكر أنك مهيأ للعب دور ما" [59] ، مما يدفعه إلى إجابة هذا الهاجس بأنه لا يرغب في ذلك، فشخصيته، وتكوينه النفسي لا يتناسب مع ما يتطلبه ذلك من عمل سري أو هدم، أو اقتحام أهوج، فهو مسالم، لطيف، شاعري مقبل على الحياة بكل متعها، ومحرماتها، يعاني صراعا داخليا شديدا بين ما يشعر به من رغبات متمردة نهمة شيطانية، وما يظهر عليه من نسك وطهر [60] .

وحين ألحت عليه النفس في عذاباتها تقابل بين ما يراد منه، وما يشعر به، بين كتب حسن البنا، وكامل الشريف، ونجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس التي تتزاحم في رفوف مكتبته، اصطلح معها على أن تكون كما هي، فحينا تكون نفسا شفافة مثالية تبحث عن عالم الجمال وتستجيب له، وحين جسدا ملتهبا يبحث عن المتعة والجمال أيضا مع ما يتابع ذلك من استجابة للجماعة ما يطلب منه ما أمكن.

وقد رضي بهذا الصلح فكان يقرأ ما يرغب به من كتب الأدب العربي بفنونه المختلفة، ويستمع لأم كلثوم في الإذاعة وفي السيارة، بل ألح على أن يحضر المذياع في المنزل بوصفه صورة من صور إرضاء ما يجده من نزعات ذاتية، ونشر مقالة عن التأثر بالأجنبي في تقاليد البلاد ينعى فيها تفشي هذه الظاهرة، وألقى

محاضرة عن الأندلس (الفردوس المفقود)، و(أصحاب الأخدود)، وبدأ أعضاء الجماعة يهنئونه على ما بدا فيه من مستوى عال [61] .

وبالرغم أنه مر ببعض الحوادث التي تتفق مع ما يصفه بطبيعته الشهوانية إلا أنه أعرض عنها وسار في اتجاهه الطهراني مع الجماعة وتحقيق ما يتطلبه منه موقعه فيها إلا من قراءاته المتنوعة اللاتي تخالف اتجاه الجماعة الثقافي المعرفي، ويسترق إليها الوقت والمال من دون علم الجماعة ورضاهم أيضا.

وفي غمرة هذه التبعية الكاملة، والاندماج التام مع الجماعة وأهدافها يعاوده شعور القلق في نفسه الذي يثير تساؤلات حول أفكار الجماعة القائم على الإقصاء المؤدي إلى التكفير، أو حول مصادر تمويلها، والإنفاق عليها مما جعله يستريب فيها وفي أفرادها [62] ، أو حول موقفه في كل ما يدور حوله القائم على الذوبان التام في الجماعة، والانقياد الكبير حتى لا يصبح له شخصية وهو ما يرفضه ولا يقبله، ففي كل غمرة إنجاز يجد السؤال عن حقيقته، وما يريد، وإلى أين هو صائر يعيده إلى نقطة البداية في موقفه من الجماعة وإقباله عليها، ويبعث في داخله سؤال ما يحقق ذاته أهو ما يقوم به الآن، وهل هذا ما كان يبحث عنه قبل سنوات حين تمرد على قواعد والده باحثا عن بناء شخصية مستقلة عن والده جديدة حين بدل التوقيت من الغروبي إلى الزوالي وبذل جهودا تكلل بعضها بالخسران حتى يدخل المذياع في منزلهم،[63] ثم تجاوزه قواعد والده والأدب حتى تتمكن أخته من دخول المدرسة، فيصير إلى إقناع نفسه بأن ما أعطته الجماعة له لا يقل أهمية عما أعطاه والده له، وأنها قد عمقت إحساسه بذاته، وقيمته من خلال الدور الكبير الذي يضطلع به، وهو ما يبعد عنه القلق إلى حين، وهو موقف طبيعي ذكره ابن رشد حين أكد "أن ولادة هؤلاء أشرف من ولادة الآباء لأن الآباء ولدوا أجسامنا والعلماء ولدوا أنفسنا. فالشكر لهم أعظم من شكر الآباء، والبر بهم أوجب، والمحبة فيهم أشد، والاقتداء فيهم أحق" [64] .

بيد أن هذا الغرق في عوالم الجماعة، والشعور الإيجابي لم يمنع هذه الأسئلة أن تطل برأسها كلما جاءت مناسبة، فمن شباك غرفته في الجامعة حيث منظر قبور العود يجد نفسه في موازنة مع الأموات، ويجد أن انغلاق حياته على مجموعة معينة ذات رؤية محددة تجاه الآخرين، وعلى منتجاتها الفكرية، ووصم من عداهم بالكفر والزندقة والفسوق، لا يختلف عن هؤلاء الذين حبسوا في القبور، مما جعله يلج بالهروب من أعضاء الجماعة بالرغم من زياراتهم المتكررة له في غرفته باحثين عنه، يمتنع عن مقابلتهم لعلهم ينصرفون، الأمر الذي يزيد تساؤلاته، ويزيد حدتها للحد الذي يصير في داخل نفسه، وهو يستمع إلى طرق الباب من لدن أحد زملائه إلى التساؤل: "إلى أين أنت ذاهب أيها الفتى؟ وأي المصائر تختار؟ أأنت تحيا؟ أم أنت في عداد الأموات كواحد من أولئك الساكنين والهامدين من مئات السنين أمامك"[11] . ثم يذهب في حوار تأملي طويل عن الطريق الذي يذهب إليه، وغايته وما يوصل إليه مما يجعله يتعارض مع منهجه.

إذاً كان السؤال الذي يطرحه هو من أين تنبع هذه السلوكيات والأعمال التي يقوم بها، والصفات التي يتصف بها، أهي من داخله أم تملى عليه من الخارج، وقد كان الجواب الذي يعود إليه في كل مرة ينبعث هذا السؤال هو أنها من خارجه، ولا تتوافق مع صورته كما يتخيلها كثيرا، بل يجد ما يخالفها قبل أن ينضم إلى الجماعة وبعد انضمامه.

إلا أن الهزة العنيفة التي ضربت الفتى وكأنها توقظه من منامه، وتواجهه بما آل إليه حاله، كانت من فتاة عربية تعمل ممرضة في إحدى مستشفيات الرياض، حين تعجبت من حاله، ورفضت كل ما يعده من

---

[11] ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة، ص 8-9. نقلا عن فتحي المسكيني، الهوية والزمان تأويلات فينومينولوجية لمسألة "النحن"، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الطليعة، 2001)، ص111.

مسلمات، ونقدت كل أطروحاته، وسخرت بها، [65] ثم نعت عليه ضياع شخصيته في عباءة الجماعة ودهاليزها، وألا يسكون تابعا ولا إمعة ولا مصفقا ولا منقادا إلى حيث يؤمر [66] .

لقد نسجت منه شخصا آخر وزرعت فيه بذرة الاعتزاز، والذات القائمة المستقلة التي تجعل من نفسها ندا لأولئك العلماء الذين وضعوا تلك الأفكار، فصار يتساءل ألا يمكن أن يكون مفكرا، ومنظرا كما يفكر هؤلاء وينظرون ويفسرون الدين، هل ختم العلم بهم، وهل لا بد أن يكون معهم حتى يكون على صراط مستقيم؟ [67].

إن هذه الأسئلة جعلته يتيقن أنه ينبغي أن يسير في طريق آخر، وأن ذاته الحقيقية التي ألح على طمرها، والتنكر لها فيما سبق هي هويته التي يسعى إليها، والتي لا تحدها حدود أو أطر ضيقة لجماعة أو أخرى، وإنما يكون فيها منطلقا على سجيته، ومنفتحا على الجميع دون أن يكون لديه حرج أو تصنيف لأحد، لم يعد ذلك الذي يخرج ويدخل وفق مواعيد الجماعة، ويسأل أين سيذهب ومع من، ويلاحق ليعلم حركاته في كل مكان، ويقرأ وفق قائمة تحددها له الجماعة، ويرفض وفق رؤية الجماعة، لقد استعاد هويته الجديدة القائمة على أنه هو الذي يحدد خياراته، ويتخذ مواقفه بناء على رؤيته وليس بناء على مواقف آخرين.

ولعل الموقع الذي حير شخصية السيرة الروائية هو بين أن يكون متميزا، منفردا يقيم الحدود والعوازل ويبحث عما يميز نفسه به تمييزا دقيقا وخاصا، أو أن يكون مشاعا مشتركا بين الثقافات متذوقا جميع الطعوم، ذائبا في الأمم، كائن عائم يشبه العلامة، -كما وصفها الغذامي- تعوم حرة تغري المدلولات لتملأها بما يناسبها [68]، سابحة في كل سياق، وفي كل نص، أو كما وصفت شخصية رواية "ألف" للكاتب البرازيلي باولو نفسها بأنها اكتشفت داخلها ذاتا جديدة أكثر جاذبية، ومغامرة وانفتاحا للعالم والتجارب الجديدة، وأن الذات القديمة غير مجدية في مواجهة التحديات الجديدة [69] .

وهو موقع إشكالي، فالأمم تبحث عما يميزها، وهي في الوقت نفسه تأخذ من بعض، فنحن نعلم من التاريخ أن العرب في القرن الثاني بل قبل ذلك قد أخذوا من الفرس والروم كثيرا من عاداتهم، وأصبحوا يتداخلون معهم في طريقة عيشهم، ولبسهم.

صحيح أن الدين أيضا يعلي من قيمة "الاختلاف" بوصفه مكونا من مكونات الأمم ينبغي على الأمة أن تتمسك به، وعنصرا تلتئم عليه الجماعة في حدودها، فكأن التميز أم مهم، وغاية في نفسه حتى ولو كان عن طريق الاختلاف المقصود، ونحن نقرأ في الحديث النبوي مثل قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من تشبه بغيرنا"، وهو ما يعني أن الاختلاف أمر مقصود لذاته في هذه المواضع للتميز عنهم.

وفي الاتجاه المقابل جاء ذم التشبه بالآخرين، وذمه، فنهى عن التشبه باليهود والنصارى، بل اعتبر التشبه نوعا من الأنواع الانتساب في الجماعة والدخول فيها، فقال: "من تشبه بقوم فهو منهم". ومع هذا نعلم أن هذا الخطاب لم يكن يوجه برنامجا دقيقا تتحول الأمم المؤمنة به إلى جماعات متطابقة تمام المطابقة بل نجد أن كل أمة من الأمم آمنت بهذا الخطاب تلقته بطريقته، وميزت نفسها عن الآخرين بصورتها، فنجد مثلا الأندونيسيين يختلفون عن الباكستان، الذين يختلفون بدورهم عن الأفارقة بناء على عادات القوم في مكانهم قبل أن يعتنقوا الإسلام، مما يعني أنهم لم يخالفوا الكفار من بني قومهم مخالفة تامة، كما أنهم لم يروا بأسا بالتشبه بهم أيضا في أحوالهم، ومعاشهم [12] .

---

[12] تشير إلى هذه الفكرة بشكل سريع أمارتيا سين وتضرب على ذلك مثلا بانفصال البنغال عن الباكستانين بالرغم من اتحاد الدين، وذلك لأسباب لغوية، وأخرى تتصل بالأدب والسياسة ولم يدفع هذا أحدا لاتهامهم بالخروج من الدين.[70]

ولعل اتجاه الفتى الجديد هو الذي دفعه إلى أن يغير شكله، فيما سماه "New Look"، فقص شعره وفق نظام معين، وحلق ما كان يعتمر من شعر على الذقن "سكسوكة"، ثم لبس العقال حتى "يكمل به صورته الجديدة" [71] . مع أن هذا التغيير الذي أصاب الشاب في شكله لا يجعله من غير تصنيف، بقدر ما يجعله منحازا من فئة إلى أخرى، وإذا كان قد تخلص من تصنيف الآخرين بالكفر والإيمان، فإنه قد فعل الأمر عينه بالنسبة للجماعات الإسلامية. إضافة إلى أن ما كان يكرهه من التزام للجماعة للقيام بمهامها أصبح يقوم مكانه بما يلتزمه للصحيفة التي يعمل بها، من اجتهاد، ونشاط وسفر، ومقابلات، وكتابة مقالات وغيرها من الأعمال التي يتطلبها موقعه الجديد.

بيد أن الفاصل بين هذين الأمرين، هو ما يجده في نفسه حيال كل واحد منهما، ويشعر بأنه يعبر عن ذاته الحقيقية، ويمثل هويته الشخصية، وقد ذكر الفتى في مواضع متفرقة أن هذه الحال الأخيرة التي صار إليها تمثله أكبر تمثيل، وتتوافق مع طبيعته المتنوعة التي تجمع المثال، والطموح لتحقيقه بطبيعة ابن آدم المجبولة على التقصير، وتجمع بين الرغبة في تحقيق نهضة الأمة لكن من خلال الوطن والوفاء بمتطلباته الحضارية التي لا تجعله في شقاق مع المعرفة ولا شروطها الاجتماعية والعلمية، وهذا ما رأى أن وضعه الأخير بالاندماج مع أبناء الوطن المخلصين يوصل إليه أكثر من غيره.

المراجع

[1] Edward W. Said, *On Late Style*.(London:Bloomsbury,2007), p3.
[2] Malcolm Gladwell, *The Tipping Point*.. (New York: Back Bay Books /Little Brown and Company, 2013), P35.
[3] Walter Benn Michael , Race into Culture: A Critical Genealogy of Cultural Identity,p.672.
[4] Peter Brooks, *Enigmas Of Identity*. (New Jersey: Princeton University Press, 2013), P11.
[5] Ibid, P13:
[6] إبراهيم الشتوي، الصراع الحضاري في الرواية المصرية، الطبعة الأولى، (الرياض: مطابع الحميضي، 1422ه)، ص665.
[7] شطح المدينة، طبعة دار الشروق، (القاهرة: دار الشروق، 1992م)، ص209.
[8] الهوية والاختلاف في المرأة والكتابة والهامش، د.ط، (المغرب: أفريقيا الشرق، 1988)، ص16.
[9] سورة الأحزاب، آية 59.
[10] بوريس أيخنباوم، نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب، ص41.
[11] إبراهيم بن محمد الشتوي، سلطة الرمز، جريدة الجزيرة، عدد 443، 1435/8/23.
[12] الترمذي، الجامع الصحيح، تحقيق كمال يوسف الحوت، د.ط، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ج5، ص98. باب 34 كتاب الأدب. حديث رقم 2784.
[13] Judith Butler. *Bodies That Matter, on the discursive limits of "sex".* (London: Routledge, 1993).
[14] And *Gender Trouble: Feminism and the Subversion Of Identity*. (New York: Routledge, 1990).
[15] جورج ماي، السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي وعبد الله صولة، الطبعة الأولى، (أبها: نادي أبها الأدبي، 2011/1432)، ص19.
[16] ليون إدل، فن السيرة الأدبية، ترجمة صدقي خطاب، الطبعة الأولى، (بيروت: دار العودة، 1988)، ص17.
[17] شكري المبخوت، الطلياني، الطبعة الثالثة، (تونس: دار التنوير للطباعة والنشر، 2015)، ص313.
[18] جورج ماي، مصدر سابق، ص102.
[19] جان جاك روسو، الاعترافات، ترجمة خليل رامز سركيس، الطبعة الأولى، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، ص.33
[20] فيليب لوجون، السيرة الذاتية والميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلي، الطبعة الأولى، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994م)، ص44.
[21] تيتز رووكي، في طفولتي دراسة في السيرة الذاتية العربية، ترجمة طلعت الشايب، الطبعة الأولى، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2002)، ص277.
[22] جورج ماي، مصدر سابق، ص51.
[23] طه حسين، الأيام، الطبعة السادسة والعشرون، (القاهرة: دار المعارف، 1979)، ص ص100-150.
[24] محمد عبد الله العوين، تجربة فتى متطرف سيرة روائية، الطبعة الأولى، (الرياض: المؤلف، 2011).
[25] النص السردي نحو سميائيات للإيديولوجيا، الطبعة الأولى، (الرباط: دار الأمان، 1996)، ص 93-97.
[26] عبد السلام حيدر، الأصولي في الرواية، الطبعة الأولى، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003)، ص15.
[27] محمد العوين، مصدر سابق، ص 39.
[28] المصدر سابق، ص190.
[29] المصدر سابق، ص50.
[30] المصدر سابق، ص73.
[31] محمد العوين، مصدر السابق، ص14.
[32] المصدر السابق، ص16.
[33] كتاب الأصولي في الرواية، عبد السلام حيدر أن حسن البنا هو الذي سلك هذه المناشط لضم الأتباع إليه، ولجماعته. ص21 وما بعدها.
[34] المصدر السابق، ص 42.
[35] المصدر السابق، ص 109.

[36] المصدر السابق، ص221.
[37] المصدر السابق، ص137.
[38] المصدر السابق، ص167.
[39] انظر: المصدر السابق، ص36.
[40] انظر: المصدر السابق، 87.
[41] انظر: المصدر السابق، ص ص16، 17.
[42] المصدر السابق، ص25.
[43] انظر: المصدر السابق، ص215،214.
[44] انظر: المصدر السابق، ص221.
[45] المصدر السابق، ص232.
[46] المصدر السابق، ص55.
[47] المصدر السابق، ص90.
[48] المصدر السابق، ص43.
[49] المصدر السابق، ص64.
[50] المصدر السابق، ص62،55،44، 133،109،108، 161، 186.
[51] المصدر السابق، ص54.
[52] المصدر نفسه، ص133، وص43.
[53] المصدر السابق، ص97.
[54] المصدر السابق، ص96.
[55] المصدر السابق، ص204.
[56] المصدر السابق، ص97.
[57] المصدر السابق، ص18.
[58] المصدر السابق، ص19.
[59] المصدر السابق، ص19.
[60] المصدر السابق.
[61] المصدر السابق، 25-31.
[62] المصدر السابق، ص 110، 111.
[63] المصدر السابق، ص120.
[64] المصدر السابق، ص155.
[65] المصدر السابق، ص168.
[66] المصدر السابق، ص 213.
[67] المصدر السابق، ص 220.
[68] الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، الطبعة الثانية، (الرياض: المؤلف، 1412/1991)، ص46.
[69] Paulo Coelho, Aleph. (London: Harper, 2012), p.11.
[70] الهوية والعنف وهم القدر، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، الطبعة الأولى، (بيروت: جداول للنشر والتوزيع، 2012)، ص50. وسبق للكتاب أن صدر بترجمة أخرى في سلسلة عالم المعرفة في الكويت.
[71] محمد العوين، المصدر السابق، ص 291.

تفاعل الملفوظات وسياقاتها في حديث "الإسراء والمعراج" (مقاربة في ضوء لسانيات التلفظ)

أ.د. ربيعة برباق[1] , أ. سارة جابري[2]

[1] أستاذ اللسانيات، جامعة العربي التبسي، تبسة، الجزائر.

[2] باحثة دكتوراه، اللسانيات التطبيقية، جامعة تبسة، الجزائر.Djabri.sara@yahoo.com

الاستلام	٢٠١٦/٦/٣	المراجعة	٢٠١٦/٩/٢٣	النشر	٢٠١٦/١٢/٣٠

الملخص:

تهتم لسانيات التلفظ بربط النصوص والخطابات بما تحيل إليه من عوامل ودواعي إنتاجها، في حين كانت الدراسات البنيوية وما قبل البنيوية قد فصلت بين السياق اللغوي وغير اللغوي، مما جعل من عملية الفهم والتأويل مهمة صعبة، وسيحاول هذا البحث أن يجعل فهم وتأويل حديث الإسراء والمعراج أمرا أسهل من خلال النظر في أصناف الملفوظ وخصائصه اللغوية، وكيفية دلالتها على السياقات التي أحاطت بالرسول صلى الله عليه وسلم قبل وخلال وبعد الحادثة، وذلك لما وجدنا في حديث الإسراء والمعراج صورة واضحة لدور هذه السياقات، حيث كانت مؤثرا إيجابيا في تشكل الملفوظات وتنوعها.

The Enunciables and its contexts interaction in the say of “elisrae wa elmierag”. (Linguistics inonciational Approach)

Dr. Rabea Berbak[1], Dr.Sara Gabry[1*]

[1] Professor of linguistics, Al-Araby Al-Tebsy University, Tebessa, Algeria.

[*] Djabri.sara@yahoo.com

Received	3/6/016	Revised	23/9/2016	Published	30/12/2016

Summary:

Bother to linguistics pronunciations linking texts and speeches, including transmit factors and reasons of production, while the structural studies and pre-structuralism has separated the linguistic context and non-linguistic, making the understanding and interpretation process a difficult task, and this research will try that makes understanding and interpretation talk "Elisraee wa Elmieerag "of awer prophet Mohammed is easier by looking at ejected varieties of language and its characteristics, and how its significance on the contexts in which it took the Prophet, peace be upon him before, during and after the incident, so what we found in an interview with Flowers and a clear picture of the role of these contexts, where she was positively influential in the forms of spokens and it,s variety.

تمهيد:

يعد السياق أحد المنطلقات التي ارتكزت عليها نشأة اللسانيات الاجتماعية واللسانيات التداولية باعتبارها اتجاها لسانيا يؤمن باستحالة دراسة اللغة معزولة عن محيط استعمالها وبيئة تداولها، كونها في أساسها وسيلة تواصل.

يقول باختين: "إن المقال الإجتماعي المباشر وكذا المحيط أو الوسط الاجتماعي الشامل هما اللذان يحددان بنية التلفظ كليا" [1]، ومن هذا المنظور تكون العلامات اللغوية معرضا أو مسرحا لتصارع القوى الاجتماعية المختلفة [2]، والتي تجعل منها نظاما متفاعلا ومتجانسا منطقيا وفكريا.

وما دامت اللغة في جوهرها ظاهرة إنسانية اجتماعية، فلا يمكن الحكم على دلالات ومقاصد ما تنتجه من نصوص وخطابات بمجرد النظر في بنيتها الصوتية والصرفية والتركيبية، ومن هذا المنطلق أولت لسانيات التلفظ عناية واضحة بالسياق، بدءا بدوره في صناعة الحدث الكلامي وتوجيه دلالاتها وانتهاء بدوره في تحليله وتأويله، وبذلك تكون قد قدمت منهجا جيدا لمقاربة مختلف النصوص.

ويعد الحديث النبوي الشريف، على اختلافه عن بقية النصوص لقداسته وسمو رسالته، مدونة ثرية من جانبها السياقي، فطبيعة ملفوظاته وظروف إنتاجها تقتضي دراسة تعبر بنا إلى السياق، وتسبر أغواره، انطلاقا من المعطيات التي تقدمها لنا أنساقه اللغوية المختلفة.

وحديث الإسراء والمعراج واحد من هذه النصوص التي تعطينا صورة جليّة لمدى تفاعل الملفوظات وسياقاتها اللغوية على اختلافها، ومدى دلالتها وإحالتها على السياقات غير اللغوية التي تفسرها تفاصيل تلك الحادثة، وهذا ما سنحاول بيانه في ثنايا هذا البحث.

1. لسانيات التلفظ وعنايتها بالسياق:

1.1. مفهوم التلفظ وعلاقته بالسياق: هو "نشاط لساني مدروس وقصدي يعمد من خلاله إلى إبلاغ سوي، وتحقيق تواصل فاعل بين أفراد مجموعة ما، وتشارك في عملية التلفظ محفزات داخلية وخارجية، فأما الداخلية فطاقات وقدرات الفرد، وأما الخارجية فالسياقات والظروف...الخ المحيطة بهذا الفعل الإنتاجي، والتي تتجلى ملامحها في المنتج اللغوي المحقق بالتلفظ" [3].

فالتلفظ نشاط عملي مقصود وواع تتحكم فيه عوامل داخلية ذاتية وأخرى خارجية موضوعية أو سياقية.

وقد اتجهت اللسانيات المعاصرة إلى دراسة الخطاب باعتباره مجموعة من الملفوظات، فلسانيات التلفظ تجاوز اللسانيات البنبوية إلى السياق، تقول **باتريشيا فان هي (Patrisya Van He)**: "اللسانيات تهتم بالإنتاج اللغوي العملي القاعدي أو يرسمه التنظير، بل تأخذ في اعتبارها المنتج وأحواله والمنتج وظروفه،

والمنتج إليه وشروط قابليته وعوامل تحفيزها"[4]، وهذا يعني أن لسانيات التلفظ تعنى بعملية إنتاج الملفوظات وما يستلزمه هذا الإنتاج من عوامل.

ويظهر في تعريفها هذا تركيزها على مدى تفاعل عناصر كثيرة في صناعة الملفوظات وانتاجها، وليس من السهل تجاوز تلك العناصر، وقد حددها **بنفنيست** (**E, Benvinist**) [5] في (الزمان والمكان والمتكلم والمخاطب) فتفاعل الشخص مع غيره ومع المكان والزمان يكون سياقات فكرية ونفسية واجتماعية ودينية... تتمظهر بشكل جلي أو خفي في السياق اللغوي.

2.1. مفهوم الملفوظ وعلاقته بالسياق: الملفوظ تابع لفعل التلفظ، و"هو كل متوالية محددة من كلمات لغة ما أنتجها شخص أو مجموعة أشخاص، كما يمكن أن يكون الملفوظ جملة أو مجموعة جمل" [6].

وبذلك يكن القول: إن الخطاب هو ملفوظ أو مجموعة من الملفوظات، وأن الملفوظ هو متوالية لغوية ضمن سياق تلفظي معين.

2. السياق أنواعه وأشكال تفاعله:

1.2. مفهوم السياق: السياق في لغة العرب من مادة (سوق)، فقد ورد في مقاييس اللغة "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حذو الشيء، يقال ساقه ويسوقه سوقا والسيقة، وما استيق من الدواب، ويقال سقت امرأتي صداقها، وأسقته، والسوق مشتقة من هذا لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، إنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق إليها" [7].

فالسياق في اللغة العربية يعني الحذو والمصاحبة، فالرجل يذهب إلى امرأته مصطحبا المهر، والرجل يذهب إلى السوق مصطحبا بضاعته... وهكذا.

أما السياق في اصطلاح اللسانيين فهو البيئة اللغوية وغير اللغوية المحيطة بالوحدة اللغوية، سواء أكانت صوتية أو صرفية أو تركيبية.

وقد استخدم مصطلح السياق مقابلا للمصطلح الأجنبي (contexte) والذي يعرفه معجم تحليل الخطاب بقوله: "إن السياق كل عنصر س هو مبدئيا كل ما يحيط بهذا العنصر، وعندما تكون س وحدة لغوية (صوتم، وصرفم، كلمة، ملفوظ) فإن محيط س يكون في الآن نفسه من طبيعة لغوية (المحيط اللغوي) وغير لغوية (السياق المقامي الاجتماعي الثقافي)" [8].

فالمعنى الاصطلاحي للسياق لا يخرج عن أصله اللغوي فهو منقول عنه، فكل حدث كلامي يصاحبه مجموعة من الملابسات والمعطيات اللغوية وغير اللغوية.

2.2. أنواع السياق:

من خلال التعريف الاصطلاحي للسياق يظهر أنه على نوعين هما:

1.2.2. السياق اللغوي (الداخلي): وهو تجاور الوحدات اللغوية من مفردات وتراكيب وكيفية تنظيمها وتسلسلها وتصاحبها، أي علاقاتها بعضها ببعض في الحدث الكلامي، ويكون لهذه العلاقات دور بارز في تمييز المعاني وتوضيح الدلالة.

ويطلق عليه قاموس اللسانيات مصطلح (L'environnement) ويعرفه بأنه مجموع العناصر اللغوية التي تسبق أو تلحق وحدة لغوية معينة ضمن تركيب معين [9].

2.2.2. السياق غير اللغوي (الخارجي): وهو مجموع الظروف والملابسات الاجتماعية التي تصاحب الحدث الكلامي [10]، أو بتعبير آخر مجموع الظروف المصاحبة للحدث الكلامي، أو الشروط الاجتماعية والنفسية والثقافية المرتبطة باستعمال اللغة في مقام تواصلي معين.

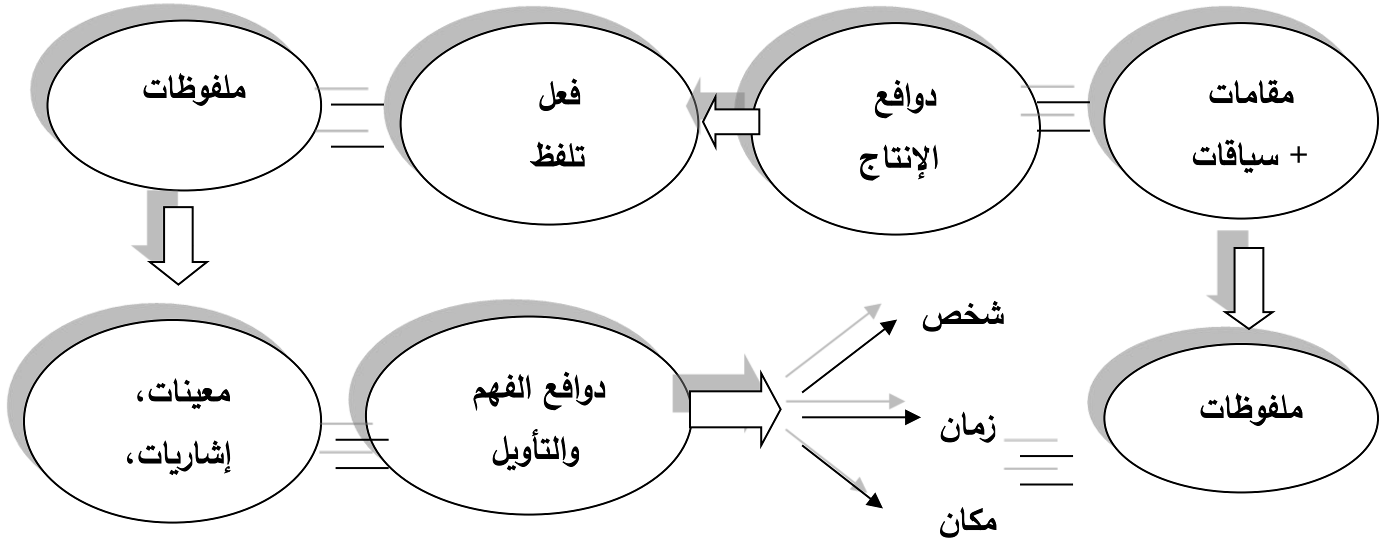
ونميز في السياق الخارجي بين معطيات مادية تتعلق بمقام الحدث اللغوي، كالإطار المكاني والزماني والحضور وأشياء أخرى، تصنف ضمن سياق الموقف، وتصدق عليه عبارة "لكل مقام مقال". ومعطيات اجتماعية كالعادات والمعتقدات، وغير ذلك مما تصنف ضمن السياق الاجتماعي أو الثقافي. ومعطيات أخرى ذاتية كالخوف والتشاؤم والحزن وغيرذلك مما تتعلق بالسياق النفسي.

3. أصناف الملفوظ وتشكل السياق اللغوي :

قبل الحديث عن تفاعل الملفوظات وسياقاتها المختلفة، يجدر بنا فهم العلاقات التي تربط بين عناصر التلفظ من دوافع وأفعال وسياقات... الخ.

1.3. دورة إنتاج الملفوظات وتأويلها وآلية عمل المعينات:

يمثل كل ملفوظ بمختلف مظاهره سياقا لغويا تحكمه قواعد موزعة حسب مستويات اللغة، ويتجاوز الملفوظ أفق السياق اللغوي إلى سياقات غير لغوية فتعمل مع بعضها بصورة تفاعلية عكسية على النحو الآتي:



<u>دورة إنتاج الملفوظات وتأويلها وآلية عمل المعينات</u>

وتختلف الملفوظات باختلاف الظواهر التي تعمل على نقلها والتعبير عنها، ويؤدي هذا الاختلاف إلى تجلي الخصائص اللغوية الأكثر بروزاً في كل ملفوظ، ويحمل هذا الملفوظ صنفه وصفته من خلال هذه الخصائص.

2.3. أصناف الملفوظات: الملفوظات أصناف كثيرة نذكر منها:

1.2.3. ملفوظات أحادية التمظهر:

يقصد بهذا النوع تلك الملفوظات التي تدل على ظاهرة لسانية أو تداولية أو تعبيرية واحدة، وفيها:

- **الملفوظ الوصفي:** تعد ظاهرة الوصف أولى الظواهر اللغوية والفكرية، التي يعمد إليها الفرد –على اختلاف المستويات- خلال تعبيره، ويرجع السبب في ذلك إلى ما يوفره الوصف من تقريب للأفكار والمعاني، وتكشف العلامات الوصفية للملفوظ على دلالات خفية ومرجعيات داخلية وخارجية لا يمكن أن يكشف عنها سواه،[11] كما تحدد سمات في المتلفظ والملفوظ وتربطها بسياقها، بسبب ما تحمله الشحنات الوصفية داخل الملفوظ.
- **الملفوظ الإسنادي:** يرجع مصطلح الإسناد إلى المنطق، وهو اقتران ذات فاعلة، يمكن أن تكون الذات عنصرا أساسا، ويكون الموضوع مكملا وكاشفا عن متعلقات الذات، ويخرج المفهوم الإسنادي من عالم التفكير المنطقي إلى أفق التعبير اللساني، فتكون ظاهرة الإسناد اللغوي بين العناصر متمظهرة في عدة أشكال نحوية مختلفة حسب مقتضيات الاستعمال.

أما عند **جميل الحمداوي** فالملفوظ الإسنادي هو: «الملفوظ الذي يحدد علاقة الذات بالموضوع، أو هو الذي جمع بين المسند والمسند إليه، ويقصد به امتلاك القيم، ومن ثم المسند قد يكون مبنيا للمعلوم أو للمجهول أو خبرا، والمسند إليه قد يكون فاعلا أو نائب فاعل أو مبتدأ » [12] . مثل عوقب المذنبون، ووصل الأمر نهايته.

- **الملفوظ الانزياحي:** إذا كانت ظاهرة الإسناد قد كشفت عن نموذج القاعدة العامة التي تحكم الوحدات اللغوية للملفوظ، فإن ظاهرة الانزياح تقضي بتغيير تلك القواعد والتصرف فيها حسب الغايات التي يخدمها تجاوز الحدود النظرية [13].

وظاهرة الانزياح مفهوم لساني وأسلوبي أثبت ما جاءت به لسانيات التلفظ والتداولية لطرحه، وهو العناية باللغة في حيز الممارسة الأوسع، يقول **حمداوي** بهذا الصدد: « كل ملفوظ ينتهك (يتجاوز) القواعد المألوفة أو قواعد المعيار لوظائف فنية جمالية وإبداعية، وبهذا نكون أمام عدة أنواع من الانزياحات، صرفي، نحوي، دلالي، بلاغي، وانزياح منطقي تداولي. [14]، ومثالنا في ذلك التقديم و لتأخير في قولنا "هذب جيادا أبوه" (تقديم المفعول به وتأخير الفاعل).

- **الملفوظ القضوي**: ويعرفه الهادي السنوسي، بقوله: "يقصد بالملفوظ القضوي تحول الملفوظات إلى مجموعة من القضايا المرتبطة بالإسدال والحجاج المنطقي القضوي، وقد تكون تلك القضية المتكونة من ذات وموضوع موجبة أو سالبة، ويرجع ذلك إلى علاقة النتيجة بالسبب"[15]. كقولنا وبعد انتهاء الحوار أكد صدق موسى، فالصدق قضية وموحرها موسى، وهي قضية موجبة.

- **الملفوظ المتوازي:** ويقصد بالتوازي تكافؤ الوحدات اللسانية إما تكافؤ تاما أو جزئيا، والملفوظ المتوازي عند **جميل حمداوي** هو: «توازي العبارات أو تجانس على مستوى الآلية أو الوظيفة أو الدلالة» [16] ، وتختلف صور هذا التوازي حسب المستويات اللسانية.
- **ملفوظ التضام:** ويعني تضام المكونات النحوية استلزاما وحذفا وذكرا، وهكذا يتضام الفعل والفاعل، المبتدأ والخبر، الجار والمجرور، النعت والمنعوت، المعطوف والمعطوف عليه، وهذا المفهوم استند فيه **جميل حمداوي** إلى كتاب اللغة العربية مبناها ومعناها، لـ**تمام حسان** [17]. ويكشف عن صور التلازم النحوي والتعالق بين العناصر الثابتة في الجمل والتوابع، ومدى تأثير هذه الظواهر في بقية المستويات الأخرى، خاصة الدلالة، وبقية الوظائف اللغوية وخاصة التعبيرية والجمالية... فاللغة مبنى ومعنى، ولكل ظاهرة في مستوى المبنى تعليلها على مستوى المعنى.

2.2.3. ملفوظات ثنائية التمظهر:

تشمل كل أصناف الملفوظات السابقة تمظهرا واحدا، في حين تمثل الملفوظات ثنائية التمظهر ملفوظات تجمع بين ظاهرتين لغويتين أو تداوليتين، وقد تكون العلاقة بينهما إما علاقة تكامل أو تخادم أو تناقض أو اتحاد، وهذه الملفوظات هي:

- **الملفوظ الذاتي والملفوظ الموضوعي:** تشبه هذه الفكرة في جانب معين فكرة **"إيميل بنفينست"** المتمثلة في حضور الذات في الخطاب والنص ومدى اشتراكها في إنشاد مضامين الملفوظات، وهذا المفهوم لا يختلف مطلقا عن المفهوم العام للذاتية والموضوعية، ويشرح **حمداوي** ذلك قائلا: «يتميز الملفوظ الذاتي عن الموضوعي بحضور الذات وتحول النص إلى انفعالات دالة على حضور المتلفظ إلى جانب وجود تقويم بأحكام إيجابية أو سلبية، في حين يتميز الملفوظ الموضوعي بغياب الانفعالات داخل المتن»[18]. فالذاتية تحمل فكرة المشاركة والموضوعية تحمل فكرة المراقبة.
- **الملفوظ الصريح والملفوظ الضمني:** وهذا المفهوم شائع في جميع ميادين التحليل اللغوي، لأن اللغة لا تعني المذكور فحسب، فللمحذوف أيضا دلالات ومفاهيم غير مباشرة، وتحصل منه إفادة لا تقل أهمية عن دلالات وإفادات المذكور[19]. كقولنا التزم بشرف العمل، ونفهم منه عدم خيانته.
- **الملفوظ الحسي والمجرد:** التجريد والتجريب ميدانان ومنهجان فلسفيان أثبتا تقسيم المدركات في هذا العالم، وما دام المتلفظ ينتمي إلى هذا العالم ويعبر بأدلة لغوية وغير لغوية لها مرجعيتها وسياقاتها، فالمتلفظ (المنتج) أمام ملفوظ دلالة، إما أن تكون حسية أو مجردة، وهي في الحالتين تمثل مرجعية في جملة السياقات التي أنتج فيها الملفوظ، وهي ذات الفكرة التي أشار إليها الحمداوي قائلا: «...وتكون الملفوظات حسية أو مجردة حسب السياقات النصية التي وردت فيها » [20]. مثل الصدق زينة في الخلق والابتسامة زينة في الخلق.
- **الملفوظ الجسدي والإيمائي:** في تلك النصوص التي ترصد تجارب فردية أو جماعية يهتم المتلفظ بالجوانب التعبيرية التي يمكن أن تكون هي الأخرى ذات أغراض وأهداف رسائلية، ومن نحو ذلك ما تحدثه لغة الجسد من تعابير سواء كانت بالحركات الصادرة عن المتلفظ ذاته إما عن شخص أو مجموعة ، كما أن الجسد ومواصفاته دون تعبير إيمائي يمكن أن تؤدي

وظائف تقريب وتصوير وإخبار[21] إذا أحسن المصور النقل، إذا الملفوظ يمكن أن يكون صورة لغوية مختزلة عن شخص أو سلوك...

وما دام للجسد هذا الدور الفعال في التعبير ونقل الأفكار والسلوكات، فإن الملفوظات ينبغي أن تؤدي دورها التعبيري كذلك، يقول **الحمداوي**: «تتضمن النصوص ولا سيما السردية والقصصية ملفوظات إيمائية في شكل حركات وإشارات وأنساق بصرية صريحة أو ضمنية، ومن ذلك لا يهتم الملفوظ بما هو لساني»[22]. مثل قولنا: وقف رجل طويل القامة ولوح بيمينه.

- **الملفوظ الزماني والمكاني:** إذا كانت لسانيات التلفظ تركز على تحليل الملفوظات إلى عناصرها المكونة للحدث والمحتوية لها، فإن عنصري الزمان والمكان من أهم عناصر الملفوظات،[23] وهو ما تقدم ذكره، ولا تكتفي لسانيات التلفظ برصد عناصر الزمان والمكان فحسب، بل تكشف عن صور التفاعل بين هذين العنصرين في إنتاج الحدث ودورهما في هذا الإنتاج.

4. أصناف الملفوظ في أحاديث الإسراء والمعراج:

إن تنوع أصناف الملفوظ في أحاديث الإسراء والمعراج، يعكس تنوعا في الطاقات التعبيرية للنبي الكريم؛ وكما يبين حسن توظيفها وتفاعلها مع ملابسات ومقتضيات التلفظ، وبيان ذلك على النحو الآتي:

1.4. ملفوظات أحادية التمظهر :

1.1.4. الملفوظ الوصفي: يعد الوصف واحدة من أبرز آليات التعبير البارزة في أحاديث النبي ﷺ بشكل عام، كما يأخذ مساحة واسعة في أحاديث الإسراء والمعراج لكثرة المشاهد والمواقف، لذلك ارتأينا أن نقف عن الوصف في عدة مظاهر هي:

- **مظهر وصف الجماد:** كوصفه للآنية التي غسل فيها قلبه عليه الصلاة والسلام: «أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا»[24] ، وكذلك وصفه للعير التي لقيها في الطريق إلى بيت المقدس: «وثَنِيّةُ التّنْعِيمِ عَلَيْها جَمْلٌ أَوْرَقُ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ إحْدَاهُمَا سَوْدَاءُ وَالْأُخْرَى بَرْقَاءُ...»[25] .
- **وصف الأنبياء:** وذلك في حديث مستقل عن حديث الإسراء والمعراج المفصل حيث، يقول: رَأَيْتُ مُوسَى وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ، فَإِذَا وَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ ، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَبِهِ »[26] .
- **وصف يوسف عليه السلام:** «فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَضَلَ النَّاس فِي الْحُسْن كَالْقَمَرِ لَيْلَة الْبَدْر عَلَى سَائِر الْكَوَاكِب »[27].
- **وصف الجنة والنار:** أهم ما وصف النبي ﷺ في الجنة نهر الكوثر الذي أعطاه إياه فقال عنه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ الْمُجَوَّفِ ، قُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَإِذَا طِينُهُ أَوْ طِيبُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ...»[28] .

وفي هذا الوصف لمسة جمالية؛ فالنهر موجود بذاته وتلك صفاته، لكن دقة النقل وتقريب الصورة يؤدي وظيفة جمالية للملفوظ، فمثل الوصف بذلك ملفوظ ترغيب وجذب. وفي المقابل وصف الرسول ﷺ النار قائلا بعد أن أمر جبريل مالك خازنها أن يريها للنبي ﷺ: «فَكَشَفَ غِطَاءَهَا فَفَارَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَأْخُذَنَّ مَا أَرَى ، قَالَ: فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ مُرْهُ فَلْيَرُدَّهَا مَكَانَهَا ، فَأَمَرَهُ فَقَالَ لَهَا: أُخْبِي فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ ، فَمَا شَبَّهْتُ رُجُوعَهَا إِلَّا بِوُقُوعِ الظِّلِّ...»[29] .

وقد جاء التشبيه والوصف دقيقا، كما في سابقه، لكنه هنا لغرض الترهيب، فإذا كانت رؤية النار وسماع الصحابة عنها بهذا الوصف فكيف بعذابها ؟

أما في الحكم عن هذين الوصفين فنلاحظ الآتي:

- ملفوظات وصف الجنة جاءت أسماء وثوابت دلالة على الاستقرار.
- ملفوظات وصف النار جاءت أفعالا متوالية لتدل على الهيجان.

● **وصف سدرة المنتهى:** جاء وصف سدرة المنتهى متعلقا بوصف أنهار نابعة عن أصلها، ومثلت لوحدها مشهد تأمل يطرح السؤال عن علاقة الأنهار بالسدرة، بل هي حكمة قبل أن تكون سؤالا لما فيها من التأمل والتدبر، وذلك في قوله ﷺ: «ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ ، نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ ، فَقُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ، قَالَ أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ»[30] .

ودقة التصوير في هذه المشاهد واضحة، فكأن المستمع أو القارئ يعايشها؛ غير أن من الظواهر –أيضا- ما لم يصفه النبي ﷺ، بل وعبر عن عدم وصفه، وذلك وصف في حد ذاته، وهذا ما ورد في:

- الحديث عن مالك خازن النار: «إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَضْحَكْ وَلَمْ أَرَ مِنْهُ مِنَ الْبِشْرِ مِثْلَ مَا رَأَيْتُ مِنْ غَيْرِهِ » .[31]

- وصف المعراج: «لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتي بالمعراج ولم أر شيئا قد أحسن منه» [32]، حيث اكتفى النبي بذكر الحسن، ولم يذكر تفصيلا.

ونلاحظ من خلال وصفه ﷺ للأنبياء، اعتماده الوصف العام دون تفصيل، كما نلاحظ من ناحية ثانية أن الكتب القديمة، التي وردت فيها أوصاف الأنبياء تتطابق إلى حد بعيد مع الأوصاف التي ذكرها، وهو دليل على الصدق وثبات التجربة فعلا.

● **وصف المعاقبين:** ورد في صحيح البخاري حديث **لسمرة بن جندب** -رضي الله عنه- بين فيه بعض المشاهد التي لقيها النبي ﷺ ليلة الإسراء به إلى الأرض المقدسة منها: «وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ...»[33] .

وقوله: «فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ...»[34] ، ثم عبر عن هذه الأوصاف بما يقابلها من سيئات الأعمال، فالأول من يرفض القرآن وينام عن الصلاة، والثاني الرجل الكاذب...

والجدير بالذكر أن قيمة الوصف هنا، وفي مواضع أخرى ليست في رسم الرسول ﷺ للمواصفات من ذاته، بل في دقة نقل ما رآه، لما في ذلك من عبر، فالوصف هنا نقل توجيه وتنفير من سوء العمل.

2.1.4. الملفوظ الإسنادي:

نبدأ بالإسناد المنطقي، حيث تعلق موضوع الإسراء والمعراج بذات واحدة ومقصودة، هي شخص الرسول ﷺ، إذ تبدو الحادثة محور ارتكاز الحديث، ومثل النبي الكريم المقصود بهذه الحادثة من جهة والمعبر عنها من جهة ثانية.

فعلى هذا الأساس تجلت جميع ظواهر الإسناد النحوي، فكانت الجمل المعبرة عن ذات النبي الكريم إسنادات هو فاعلها، وكانت إسنادات الموضوع إسنادات فاعلها هو الله تعالى بتنفيذ من الملائكة، وكان المقصود من هذه الأعمال الذات (سيدنا محمد).

3.1.4. الملفوظ الانزياحي:

جاءت الانزياحات في حديث الإسراء والمعراج قليلة، لكنها مع ذلك معبرة، فمن أمثلة ذلك: الفصل بين الفاعل والمفعول به بجار ومجرور كقوله: «فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ »[35] ، إذ نلاحظ أن الفاعل هو الله والمفعول هو بيت المقدس وبينهما ضمير المتكلم المسبوق بحرف الجر، ودلالة ذلك أهمية النبي ﷺ، إذ كان فعل الجلاء لأجله.

ومثال ذلك أيضا: تأخير الصفة عن مرتبتها الموالية للموصوف مباشرة، في وصفه للبراق قائلا: «ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبْيَضَ» [36] ، فالملاحظ أن النبي ﷺقدم حدود الماهية على صفة اللون لأنها أهم في التحديد، وهو ذاته ما حدث في سورة البقرة، فرغبة بني إسرائيل في تعريف البقرة كانت بتعيين الماهية ثم صفة اللون، وهو ما أثبته القرآن الكريم في قوله تعالى: «قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ﴿68﴾»، ثم قال: {قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴿69﴾}[سورة البقرة الآية: 69/68].

أما ظاهرة التقديم فكانت عند حديثه ﷺ عن أول سماء (السَّمَاءَ الدُّنْيَا)، عندما أخر المبتدأ وقدم الخبر شبه الجملة بقوله: «إِذَا فِيهَا آدَمُ»[37] للتأكيد على مكان تواجده عليه السلام، خاصة أنه فصل بين وصوله إلى السماء الدنيا وهذه الجملة بحوار جبريل مع غيره من الملائكة.

وهناك صورة أخرى من صور الانزياح، وذلك عندما حذف الخبر في بقية الملفوظات المعبرة عن الأنبياء في بقية السماوات، كقوله: «فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيس»، «فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى»[38] ، إذ غدا واضحا أن في كل سماء نبي.

أما في جانب الانزياح المعجمي والدلالي فقد استعمل الرسول الكريم مفردتين غير عربيتين هما: (طَسْت، ديماس) الأولى بمعنى الآنية، والثانية بمعنى الحمام، وهذا دلالة على تطويع اللغة لغايات تلفظية، فلو لم تكن العبارتان أليق وأكثر تعبيرا وأدرج معنى لدى الصحابة ما بدا الاستعمال عاديا عند الكثير منهم، فبعض الرواة شرحوا العبارة والأغلب فهمها.

وقد كانت أهم حالات الانزياح الملفوظي هادفة إلى تقوية المعاني، ووضع الألفاظ في دائرة الاستعمال الأكثر تعبيرا ودلالة.

4.1.4. الملفوظ المتوازي:

وسنحاول عرض الملفوظات في حدبث الإسراء والمعراج في شكل متواز، والكشف عن مدى التطابق فيها:

– **تطابق كلي:** وتمثل هذا الصنف في تكرار بعض العبارات لفظا ومعنى مثل: «فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ» التي تكررت في كل سماء ومع كل نبي. وكذلك عبارة: «فَلَمَّا خَلَصْتُ»[39] التي كان يذكرها عند الوصول لكل نبي، فالعبارات متطابقة لفظ ومعنى ودلالة.

– **تطابق جزئي:** ويتمثل في تشابه بعض العناصر في سمات واختلافها في أخرى، كتشابه الفعل: أَتيت-أُتيت، إذ تشابهتا في البنية الصوتية نوعا ما واختلفتا في المعنى والوظيفة ودليل ذلك ورودهما في السياق: «أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ »، «أُتِيتُ الْبُرَاق»[40] ، فالأولى جاءت مرادفة للفعل وصل، والثانية جاءت بمعنى منحت ووهبت، ويدل ذلك على مرونة الأداء الملفوظي وتنوعه لدى النبي الكريم. وبين الصنفين الأول والثاني نلاحظ:

✓ أن التطابق الكلي جاء في مقام لساني يقتضي التعبير عن المواقف بشكل متواز ومتساو، لتساويها وتشابهها.

✓ التطابق الجزئي عبر عن تشابه المواقف في اندراجها ضمن سياق عام واحد ثم تنوعها من ناحية كل تفصيل.

5.1.4. ملفوظ التضام:

إن مجرد القول بوجود نص أو خطاب يدل دلالة قاطعة على وجود ظاهر تضام ملفوظي؛ إذ نحن لسنا بصدد الكشف عنها، بل بصدد تقييمها من خلال بعض العلاقات وأبعاد تشكلها تواصليا وجماليا...، وسنبرز ذلك في ما يلي:

• الفاعل من مادة الفعل: استعمل النبي ﷺ هذا النوع من التضام، حيث وظف ملفوظات فعلية فعلها مشتق منها وعلى صيغة اسم الفاعل كقوله: «أتاني آت»[41] ، «نادى مناد»[42] ، ولهذه الملفوظات دلالة مهمة منها:

- اتصاف هوية الفاعل بالخفية.
- لفت انتباه المخاطب لقيمة الفعل وفاعله.
- امتياز الفعل بقيمة وطبيعة مختلفة.

• **الخبر جملة اسمية**: في هذه الصورة من صور التضام تبدو لنا الملفوظات متسعة مفصلة أكثر، ومن ذلك قوله: «فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلالِ هَجَرَ وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيَلَةِ »[43] ، وهذا ما وصف به سدرة المنتهى، فيكون الخبر جملة يدل على الرغبة في التفصيل، وكون المصور من طبيعة المصور كلاهما جامدان مجسدان، وتبقى صورة التجسيد ذات بعد جمالي خاصة وأنها صورة بيانية (تشبيه) قائم على مناسبة المشبه للمشبه به.

• **التعريف ووظائف التعيين:** وردت في الأحاديث الشريفة المنتقاة للدراسة عدة حالات تضام قائمة على الإضافة.

وكان من وظائف ذلك التعيين والتحديد، كقوله ﷺ: «ثُمَّ ذُهِبَ بي إلى سدْرَة المُنتهَى»[44] ، ففي ذلك تحديد وتعيين لشيء لم تحصل معرفته سابقا، وستحصل معرفته من حين تعريفه، ذلك التعريف الذي تم بالإضافة، فكلمة المنتهى إضافة تبين معنى النهاية، والحد الأقصى.

وكذلك قوله: «السَّمَاءَ الدُّنْيَا»[45] فصفة الدنيا عرفت السماء، وتم تعريف السماء الأولى بما هو مضاف إلى رتبتها، وفائق فيها، وهو الدنيا، وقد ذكر هذا في القرآن الكريم مرارا ومن ذلك قوله جل وعلا: «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴿05﴾»[سورة الملك الآية: 05].

2.4. الملفوظات ثنائية التمظهر في أحاديث الإسراء والمعراج:

1.2.4. الملفوظ الذاتي والملفوظ الموضوعي:

أفضى تحليلنا لجوانب الملفوظ القضوي إلى كون القضية عموما قائمة على (ذات وموضوع)، وعلمنا مدى تجلي هذين العنصرين في شكل ملفوظي وأداء تلفظي، في حين سنكشف في هذا الصنف عن العلاقة القائمة بين الملفوظ الذاتي والموضوعي من زاوية ثانية.،وهي مشاركة الذات في الأفعال والأحداث من عدمها من خلال:

- **الملفوظ الذاتي:**

مثلت ذات النبي ﷺمحور الحدث وركيزة الخطاب، ولما كانت بهذه الدرجة من الأهمية، جاءت الملفوظات الذاتية كثيرة ومعبرة عن صور مختلفة للذات، ومنها:

– **ذات اكتشاف:** كقوله ﷺ: «إِنِّي رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، مَاذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟».[46] إذ يبدو من خلال هذا الملفوظ غبة النبي الكريم في معرفة تأويل ما رآه من مشاهد تعذيب (الزناة، آكلي الربا، والكذابين) فمقام التلفظ هنا مقام رغبة في الكشف عن حقائق؛ لأن وجودها يضيف الي ذات.

– **ذات مكلفة:** النبي ﷺ بوصفه رسولا مكلف بطبيعته، وجاءت حادثة الإسراء والمعراج لتعزز ذلك التكليف من خلال فرض الله جل وعلا الصلاة، ومن الملفوظات الدالة على ذلك: «ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ».[47]

و الملاحظ أن هذا التكليف أخذ بعدا آخرا، وهو بعد استفادة النبي الكريم من سيدنا موسى -عليه السلام- وبعد التواصل مع الله جل وعلا، وهذا البعد المناسب لطبيعة الصلاة عموما، فسائر البشر وهم يصلون يقيمون صلة بينهم وبين الله تعالى.

- **الملفوظ الموضوعي:** من الملاحظ أن شخص النبي ﷺ رغم حضوره الحدث إلا أنه اكتفى في بعض المواقف بالرصد الموضوعي، والنقل للأفعال والأقوال دون مشاركة في صنع الأحداث ولا في التعبير، ويتجلى ذلك في ما يأتي:

– **الرصد الموضوعي:** يبدو هذا الرصد جليا في بعض المواقف التي صورها الرسول الكريم كما هي، مثل ما رآه وهو في الطريق إلى بيت المقدس قال: «إِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ الْحَجَرُ هَا هُنَا فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى».[48]

إذ تمثل هذه الوحدة التلفظية وحدة وصفية (كما تقدم) لم تشارك ذات النبي الكريم في أحداثها واكتفى بتصويرها كما هي، وكان ذلك النقل للوعظ والتوجيه والاعتبار.

– **النقل المحرفي:** إذا كان الرصد الموضوعي قد أوصل مواقفا عن طريق أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم فإن النقل المحرفي يقتضي نقل الملفوظات كما وردت دون تغيير، مثل قوله ﷺ: «فَقِيلَ لِي: خُذْ أَيَّهُمَا شِئْتَ» و«هُدِيتَ الْفِطْرَةَ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ، غَوَتْ أُمَّتُكَ».[49]

2.2.4. الملفوظ الحسي والملفوظ المجرد :

خلال عملية الفصل بين الحسي والمجرد في نصوص الأحاديث، وجدنا ظاهرة بارزة جدا وهي خدمة الحسي للمجرد بصورة واضحة، والجدير بالذكر أن هذا العنصر اعتنى بشكل كبير بجانب التأويل وارتكز على مقوماته، ومن أمثلة ذلك:

تجلي الإيمان والحكمة وتجسيدها، وذلك من قوله ﷺ: «أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا فَغُسِلَ قَلْبِي ثُمَّ حُشِيَ»[50] ، فما نعرفه نحن البشر العاديون هو أن الإيمان والحكمة قيمتان ومطلبان مجردان، غير أنهما تجليا في شكل مادي واحتوته الآنية، ثم أفرغا في قلبه صلى الله عليه وسلم، دون البحث في صورة التجلي والتجسيد.

وكذلك ما نقله الرسول ﷺ عن المعذبين، فالأفعال التي عوقبوا عليها مفاهيم جسدت في أعمالهم وجسدت في مشاهد معبرة بشكل رمزي قابل للتأويل كما أولته الملائكة، وعبرت عنه في قوله: «أَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الذي فِي الرَّوضَةِ فَإِنَّه إبراهيمُ ، وَأَمَّا الوِلدَانُ الذِينَ حَولَه فَكُلُّ مَولُودٍ مَاتَ على الفِطْرَة»[51] ، إذ يحيل شخص إبراهيم عليه السلام على أصل المسلمين الأول، وتحيل كلمة (الولدان) على حداثة الولادة وفطرة بني آدم، وتحيل الروضة على استقرار حالهم، فامتزجت المفاهيم مدركة بالعقل والتصور، فنحن لم نر المشهد بل تخيلناه وفهمناه بالرجوع إلى تأويله.

وتؤدي علاقة التكامل بين الحسي والمجرد في هذه الأحاديث إلى فهم جوانب الإدراك بالحواس مع الفهم العقلي للكون، وكل من هذين الجانبين الخاصين في رحلة الإسراء والمعراج عبرا عن الحكمة التي زود بها النبي الكريم.

3.2.4. الملفوظ الجسدي والملفوظ الإيمائي:

مثل هذا الصنف لدى النبي ﷺ سمة تعبيرية بارزة، حيث كان يعبر عنه بأنساق لغوية عند اقتضاء الأمر ذلك، لأن لديهما من التأثير والتعبير ما لا يسكت عنه أثناء التحليل.

غير أن الواجب ذكره أن الملفوظات الجسدية والإيمائية ليست صادرة عن النبي الكريم فحسب، بل زاد على ذلك نقل بعض المشاهد الأخرى. وعليه تقسم هذه الملفوظات:

– **ما عبر عن النبي عليه الصلاة والسلام:** وهو كل ملفوظ يعبر عن حواسه أو حركاته أو أفعال بدنية صادرة عنه -عليه الصلاة والسلام- ومن أمثلته: «رأيت»،[52] و«فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»،[53] وقوله واصفا طير الجنة:«يَا جِبْرَيلُ إِنَّ هَذِا الَطَير لنَاعِم »،[54] وقوله معبرا عن كيفية شق صدره: «فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي »،[55] وكل هذه الملفوظات عبرت عن تفاعل ووجود النبي ﷺ في الحدث ومعايشته لما فيه، وعلى المزايا التي أدركتها حواسه.

– **ما عبر عن أشخاص غير النبي صلى الله عليه وسلم:** فرحلة الرسول ﷺ بين الأرض والسماء كانت مملوءة بالأشخاص الذين مثلوا أطرافا في الحدث، ووصلت من خلال مشاهدة النبي الكريم لهم عدة رسائل، كما نقل النبي ما شاهده عنهم بالتجسيد اللغوي، ومثال ذلك: «فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل قال فتفتح أفواههم فيلقفون من ذلك الجمر، ثم يخرج أسافلهم فسمعتهم يضحكون»،[56] «إِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ بُطُونهمْ أَمْثَال الْبُيُوت ، كُلَّمَا نَهَضَ أَحَدهمْ خَرَّ»،[57] حيث عبرت هذه الملفوظات عن وضعيات جسدية لأشخاص شاهدهم النبي ﷺ ، ثم أعلم بتأويل هذه الوضعيات، إذ هم يمثلون (أكلة أموال اليتامى، أكلة الربا).

والملاحظ على الصنفين ما يلي:

- كون الملفوظات الجسدية المعبرة عن الرسول ﷺ قد اتصلت بـ(الإدراك- الفهم- التأويل- الكشف- المعرفة).
- كان إدراك الملفوظات المعبرة عن أشخاص غير الرسول ﷺ وانتقالها دليل على تحقق وظائفها السابقة.

4.2.4.الملفوظ الصريح والملفوظ الضمني:

اعتنت علوم الشريعة المختلفة بهذا الجانب في قراءة النصوص الشرعية وتأويلها، ولقد وردت ثنائية (صريح ضمني) (منطوق ومفهوم) على صور ملفوظات مختلفة في أحاديث الإسراء والمعراج، ونذكر من ذلك كقوله ﷺ: «حَتَّى ظَهَرْتُ الي مُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ »، فهذه العبارة عند الوقوف على ظاهرها تدل على وجود كتبة كثر تصدر أقلامهم صريفا، لكن هذا الظاهر يزداد وضوحا إذا ما بحثنا في مفهومها الضمني، فهذه الأقلام تكتب ما ترصده الملائكة وما أمرها الله به، ويبحث عن هذا المفهوم الضمني بالتأويل والاستناد على معطيات خارج النص.

ومثال ذلك -أيضا- قوله: «فَأَوْحَى الله إِلَي مَا أَوْحَى »،[58] حيث يبرز منطوق هذا الملفوظ الصريح أن هناك وحيا إلهيا إلى الرسول الكريم، لكن هناك ملفوظا ضمنيا مفهوما يطلب تأويلا، ولقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [سورة النجم،10]. وفصل في تفسير هذه الآية بأن اختلف في نوع الأمر الموحى، فقد يكون آية قرآنية أو آية مادية، ويذكر في تفسير الجلالين أنه (لم يذكر الموحى تعظيما لشأنه).[59]

كما وردت في الأحاديث عدة ملفوطات فسرها أو أولها جبريل -عليه السلام- منها:

- تفسير اللبن بالفطرة السليمة والخمر بالغواية.
- تفسير خمش الناس لحومهم بأظفر من نحاس لهاتكي أعراض الناس.

وما دمنا في مقام الكشف عن المفهوم بدلالة المنطوق فلابد أن نشير إلى الغايات الحاصلة من ذلك:

- الوقوف على عظمة الله، فرغم معرفتنا بمواقف عديدة في الإسراء والمعراج إلا أن هناك ما يخفى ويتعذر على البشر الكشف عنه.
- صدق ومصداقية الرسول الكريم، حيث نقل الأحداث والأقوال كما هي، ولم يخفي انبهاره وعجز طاقته البشرية على فهم بعض الظواهر (المعراج- سدرة المنتهى).

5.2.4.الملفوظ الزماني والمكاني:

جميع أنواع الملفوظ المزدوجة تجمع بين طرفيها علاقة قد تكون تكاملا وتضادا...، في حين تجمع بين الملفوظ الزماني والمكاني علاقة التلازم وحتميته، غير أن عنصر الزمان والمكان في حادثة الإسراء والمعراج يتجاوزان الحدود العادية ويكتسبان صورة إعجازية هذه الصور التي تقتضي تجليا ملفوظيا معينا نكشف عن بعض حدوده في ما يلي:

– انحصار زمن الحدث (الإسراء) في ليلة واحدة، وهذا ما ذكرناه، ونحن نحدد زمان التلفظ في (أول الفصل)، حيث قالت أم هانئ: «لما صلى الصبح وصلينا معه قال: « يا أمّ هانِئٍ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمْ العِشاءَ الآخِرَةَ كَمَا رأيْت بِهَذَا الوَادِي، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاةَ الْغَدَاةِ مَعَكُمْ »»[60] ، إذا فوقت الإسراء حسب وقتنا في الحساب العادي، هو ليلة واحدة (بعد العشاء وقبل الصبح)، وهو ما يؤكده القرآن الكريم في قوله جلا وعلا في سورة الإسراء: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**[سورة الإسراء، 01]، وتدل هذه الآية وكذلك حديث أم هانئ على انحصار المكان في حدود مكانية معلومة هي المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

ولقد وقف العلم طويلا مع هذه العلاقة الإعجازية من ناحية عدم تحقق هذه الظاهرة في حدود حياة البشر العاديين، وهنا ندرك أن الزمن لم يكن زمنا عاديا وأنه مختلف عن ما نقيس ونعدد به في حساباتنا اليومية.

– انحصار زمن ومكان المعراج، حيث تقدم الأدلة النصية المختلفة أن المعراج أيضا حدث ليلا، وأن مداه المكاني محصور بين الأرض والسماء، وهو ما أكدته كذلك سورة النجم في قوله تعالى: **{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ** أَوْ **أَدْنَىٰ}**[سورة الإسراء الآية: 08-09].

ولإن كان البحث في طبيعة الزمن المستغرق في الرحلة الأرضية بين المسجدين (الحرام- الأقصى) رحلة إعجاز، فماذا عن رحلة من الأرض إلى السماء؟

ولقد تجاوز العلم مرحلة البحث عن وقوع الحادثة من عدمه إلي البحث في سرعة وزمن تحققه، فكان من أمثلة ما سيق في هذا المقام قول **كارم غنيم**: «إنه إذا تخيلنا أن صاروخا اقتربت سرعته من سرعة الضوء اقترابا شديدا، فإنه يقطع رحلة تستغرق 50 ألف سنة حسب الساعة الأرضية في يوم واحد لطاقم الصاروخ»، [61] أي لا سبيل للمقارنة بين:

– ما عاشه النبي ﷺ من أحداث بما يمكن أن يجربه شخص على الأرض.
– لا يمكن أن نقارن المدة الزمنية والمسافة بين الأماكن بما نعيشه نحن عليه.

إنما ذكر مقياس الليلة الواحدة هو مقياس أهل الأرض، وليس مقياس من عاش وزار أهل السماء.

والواضح من خلال ما تقدم أنه لابد من أخذ الزمان والمكان في الإسراء والمعراج بمراعاة ثلاثة اعتبارات:

– زمننا نحن البشر العاديون وكيفية قياسنا له.
– المكان بحسب إدراكنا البشري وكيفية إدراكنا له.
– المكان والزمان على اعتبارهما نقطة مستثناة في عالم الغيب الإعجازي.

– لعل هذا التحليل عميق وموسع عما نبحث فيه نحن كلسانيين، لكن ما نلاحظه ما صنعه الملفوظ من عامل صدق يخرج أسافلهم فسمعتهم يضحكون»»[62] ، «إِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ بُطُونهمْ أَمْثَال الْبُيُوت، كُلَّمَا نَهَضَ أَحَدهمْ خَرَّ»»[63] حيث عبرت هذه الملفوظات عن وضعيات جسدية لأشخاص شاهدهم النبي ﷺ ، ثم أعلم بتأويل هذه الوضعيات، إذ هم يمثلون (أكلة أموال اليتامى، أكلة الربا). والملاحظ على الصنفين ما يلي:

- اتصال الملفوظات الجسدية المعبرة عن الرسول ﷺ بـ(الإدراك- الفهم- التأويل- الكشف- المعرفة).
- كان إدراك الملفوظات المعبرة عن أشخاص غير الرسول ﷺ وانتقالها دليلا على تحقق تلك الوظائف السابقة.

6.2.4.الملفوظ الصريح والملفوظ الضمني:

اعتنت علوم الشريعة المختلفة بهذا الجانب وقراءة النصوص الشرعية وتأويلها، ولقد وردت ثنائية (صريح ضمني) منطوق ومفهوم على صور ملفوظات مختلفة في أحاديث الإسراء والمعراج، نذكر نماذج عن ذلك كقوله ﷺ: «حَتَّى ظَهَرْتُ إلى مُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ »، فعند الوقوف على ظاهرهذه العبارات نجدها تدل على وجود كتبة كثر تصدر أقلامهم صريفا، لكن هذا الظاهر يزداد وضوحا إذا نحن بحثنا في مفهومها الضمني فهذه الأقلام تكتب ما ترصده الملائكة وما أمرها الله، إذ يحث هذا المفهوم الضمني على التأويل والاستناد على معطيات خارج النص لفهم أكثر.

كما أن هناك عدة مفردات وعبارات واردة في الأحاديث أولت وفسرت من قبل جبريل في حد ذاته منها:

- تفسير اللبن بالفطرة السليمة والخمر بالغواية.
- تفسير خمش الناس لحومهم بأظفر من نحاس لهاتكي أعراض الناس.

وما دمنا في مقام الكشف عن المفهوم بدلالة المنطوق فلابد أن نشير إلى الغايات الحاصلة من ذلك:

- الوقوف على عظمة الله، فرغم معرفتنا بمواقف عديدة في الإسراء والمعراج إلى أن هناك ما يخفى ويتعذر على البشر الكشف عنه.
- صدق ومصداقية الرسول الكريم حيث نقل الأحداث والأقوال كما هي، ولم يخفي انبهاره وعجز طاقته البشرية على فهم بعض الظواهر والمظاهر (المعراج- سدرة المنتهى).

5. تفاعل عناصر السياقات اللغوية وغير اللغوية في أحاديث الإسراء والمعراج:

1.5. الشخص الركيزة (الضمير):

لا شك أن الشخص الأساسي في أحاديث الإسراء والمعراج هو شخص النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي يعد الذات بكل ما يمكن أن تتصف به، وهي تتصل وتحقق موضوعها، ويمكن أن تقف على ذات الرسول -عليه الصلاة والسلام- على اعتبارين هما: (ذات الحادثة- ذات الحديث) أي (ذات تلفظ- ذات داخل ملفوظ) ونكشف ذلك كالآتي:

1.1.5. ذات الحادثة (داخل الملفوظ):

عبر الملفوظ عما دار من أحداث ومحطات عاشها وعايشها النبي الكريم؛ حيث كان للأداء اللساني دور كبير في هذا التعبير من خلال:

- **ضمير المتكلم متصلا ومنفصلا:** أدى هذا الضمير دور التعبير عن المعايشة، ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ »،[64] حيث مثل ضمير المتكلم "أنا" العلامة الأولى عن الشخص ووردت في بداية الحديث كدليل على محوريتها.

أما الضمير المتصل فقد جاء في صور عدة منها:

✓ اتصاله بالحرف: مثل قولهﷺ: «حِينَ أُسْرِيَ بِي»،[65] ودل هذا الاتصال على جانب الخوارق والأسباب الخفية التي تحكم هذا الحدث، وكذا مسؤوليته إزاء تكييفه كقوله ﷺ: «فُرِضَتَ عَلَي الصَّلَاة ».[66]

✓ اتصاله بالفعل: مثل قولهﷺ: «ثم أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ...»،[67] فدل هذا الاتصال على كون النبي ﷺ هو المقصود بهذه الأحداث، وأنها كانت لأجله، وأدلة ذلك كثيرة في الملفوظ الإسنادي والقضوي.
✓ اتصاله بالاسم: كقوله عليه الصلاة والسلام: «غُسِلَ صَدْرِي »،[68] وتوحي بحالة الإدراك والوعي بالذات والحدث معا على الرغم أن هناك مواقف خارقة، وهذا دليل على ما زود به ﷺ من إيمان وحكمة.

- **ضمير المخاطب (تحول الدلالة):** تحولت الذات النبوية في بعض مقامات الملفوظ إلى مخاطب مقصود بخطاب ما، وذلك مثل قول جبريل: «هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ »،[69] ويوحي هذا بكون الذات النبوية ذات موجهة حيث أصبح مخاطبا من قبل جبريل، ليريه مشاهد ومواقف مختلفة.

وإلى جانب التوجيه جاءت الضمائر (المخاطبة) لتبرز مكانة النبي ﷺ رسولا مكلفا ونبيا صالحا في قول جبريل بعد اختيار النبي إناء اللبن: «هُدِيتَ الْفِطْرَةَ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ »،[70] حيث مثل الضمير "أنت" التأكيد وقصديته التوجه إلى المخاطبة، ومثلت "كاف" الخطاب انتساب أمة كبيرة إلى المخاطب، بما تحمل الدلالة من مسؤوليات وكأنها تكمل عبارة التي كان يرحب الأنبياء به في قولهم: «مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ » «مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ».[71]

- **ضمير الغائب واحتواء الذات:** ذات النبي ﷺ كانت معلومة من قبل الله جل وعلا وجبريل عليه السلام، غير أن الملائكة في السماوات لم تكن تدر وتعلم بذلك، وهو ما جعلهم يتحدثون عنه بصيغة الغائب مثل: قال جبريل لخازن السماء: «افتح، مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ جِبْرِيلُ ، قَالَ هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ ، قَالَ جِبْرِيلُ: نَعَمْ مَعِيَ مُحَمَّدٌ ، قال: بُعِثَ إِلَيْهِ ، قَالَ نَعَمْ»،[72] ثم يتضح من العبارات ما كان عليه الخازن من مرحلة اللاعلم بالشيء أو الشخص النبي حين رد على جبريل: «فنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ »،[73] إذ يمثل هذا الحدث حدثا عظيما في السماوات العلا، ولقد تكررت مثل هذه الملفوظات فيها جميعا.

2.1.5. ضمير الحدث (فعل التلفظ):

قلنا أن فعل التلفظ يؤثر في الملفوظ من بدايته إلى نهايته، ويكسبه مقومات (النص- الخطاب) جميعها، وهذا لا ينفي كون فعل التلفظ في حد ذاته تتجلى فيه الذات باعتبارها ذاتا مخاطبة بعد الحدث، ويتجلى ذلك في:

- **تقديم الذات للحدث:** ومن أمثلة ذلك ما بدا عن حديث سمرة بن جندب الذي أبرز حديث النبي ﷺ عن الحدث بعد وقوعه، إذ يقول: «قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ»[74] .

ومثل هذا الملفوظ الحد الفاصل بين ما كان عليه الرسول ﷺ من مستوى التلفظ إلى إنشاء الملفوظ.
وكذلك قوله ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ ، وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا ، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ »،[75] ويدل هذا الملفوظ على الفصل بين ما وقع وما يروى.

- **دعم الشخص (الركيزة):** ننطلق في هذا العنصر من ما ختمنا به العنصر السابق وهو حديث النبي ﷺ عن دعم الله تعالى له، بإبراز تفاصيل بيت المقدس في الحجر يراها كما هي، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أن رحلة الإسراء والمعراج في حد ذاتها دعم له، ﷺ، وكذلك من سبل دعم الله، التخفيف على الأمة؛ حيث كانت الصلوات المفروضة خمسين صلاة، وأصبحت بتخفيف الله خمس صلوات.

2.5. الزمان وتجلياته:

كانت للوقت خصوصية كبيرة في حادثة الإسراء والمعراج، وبينت مدى البعد الإعجازي، كما بينا في الملفوظ الزماني والمكاني، وسنفرد فيما يلي قراءة لملفوظات الزمان في الأحاديث وفق الأصناف الزمن:

1.2.5. الزمن الطبيعي: هذا الزمن هو زمن حقيقي بمجرد أن نقول أن الحدث متعلق بشخص من الواقع وهو النبي ﷺ.

2.2.5. الزمن التاريخي:إن خط الزمن في الأحاديث يدل على الاسترجاع، ورواية الحدث السابق، وهذا يقتضي توظيف دلالة ملفوظية خادمة لذلك، وفي مقدمتها:

- **الزمن الماضي:** وهذه أغلب الأفعال الواردة (أتاني- أتيت- شق- غسل- صليت- رأيت- جاء- فتح- صعدت) وغيرها كثير، وكانت الدلالة حقيقية.
- **دلالة الفعل صيغة ومعنى:** لعل أبرز فعل احتوى هذه الدلالة وحققها الفعل (انطلق) الذي عبر به صلى الله عليه وسلم في سائر مراحل سيره إلى بيت المقدس، حيث كان يقول:

«قَالَ لِي انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا»، فهذا الفعل يدل على دلالتين الأولى هي الوزن، فصيغة انفعل تدل على التحول والتبدل، وكذلك على اتساع مدى الفعل، والثانية هي المعنى، فالفعل انطلق ومادته (طلق) يدل على اندفاع وتدفق وانسراح سريع، فأوحت الصيغة والمعنى بما كنا قد وضفنا به الزمن من إعجاز ومضية وتسارع.

- **دلالة أحرف العطف على خط الزمان:** استعمل النبي ﷺ أدوات الربط لبناء السرد، وهو ما وقفنا عليه في عنصر الترابط الملفوظي، ونلاحظ اعتماده على الرابط "ثم" الذي أدى دور الدلالة على التعقيب والترتيب الزمني- التباعد الزمني بين المراحل رغم تعاقبها.

ولقد تكرر هذا الرابط في جميع مراحل الانتقال السماوي في قوله: «وثُمَّ صَعِدَ بِي» وكأن المسافات متساوية أو متعادلة. وليست هذه الروابط الوحيدة، بل استعمل "فاء" للدلالة على تسارع أكبر وموالاة وكذلك "فلما" التي تدل على الغاية الزمانية لكنها غير محددة كقوله ﷺ: «فَلَمَّا خَلَصْتُ».[76]

والملاحظ في جميع جميع هذه الملفوظات دلالتها على التوالي الزمني والترتيب الكيفي، دون ذكر الكم، وهذا يعني أن الكم هنا متميز، لا تدركه المقاييس العادية.

3.2.5. زمن الخطاب:

بدا زمن الخطاب واضحا بمجرد تحديده ﷺ لزمن الحادثة إذ حكاها بعد حدوثها بليلة واحدة وقبلها، وهو ما حدده حديث أم هانئ الذي وقفنا عليه، وقد حدد زمن الحادثة انطلاقا من زمن الخطاب.

3.5. المكان:

سنقف عند المكان في نقطتين هما:

1.3.5. فضاء التلفظ والملفوظ: كان مكان تلفظ النبي ﷺ لأول مرة هو بيت أم هانئ كما ذكرت في قولها: «نَامَ عِنْدِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي بَيْتِي » ثم قال يا أم هانئ: «لَقَدْ صَلَّيْتُ لْعِشَاءَ الآخِرَةَ مَعَكُمْبِهَذَا الْوَادِي »،[77] وهناك مكان تلفظ ثاني وهو المكان الذي كان فيه الحجاج بينه وبين قريش في قوله: «لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُفِي الحِجْرِ...».[78]

أما أمكنة الملفوظ فهي كثيرة بدأت من بيت أم هانئ إلى بيت المقدس، إلى السماوات العلى، ثم العودة إلى المنطلق.

2.3.5. طبيعة الفضاءات والأمكنة:

عندما نتحدث عن الطبيعة فإننا نتحدث عن طبيعتها بالنسبة للمتلفظ والمتلفظ له (سامعا وقارئ)، ولاحظنا على الأماكن المذكورة في الأحاديث كونها:

- **أمكنة معروفة (من قبل المتلفظ له):** إما بزيارتها وإما بالسماع عنها، وهو ما حدث خلال اختبار صدق زيارة النبي الكريم لبيت المقدس من عدمه من قبل من زاره وعلم تفاصيله لقوله ﷺ: «فجلا لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن تفاصيله وأنا أنظر إليه».
- **أمكنة غير معروفة (من قبل المتلفظ له):** حيث ذكر الرسول الكريم في رحلة المعراج أماكن لم يكن لغيره أن يراها أو يدركها من أمثلة ذلك:

– السماوات السبع.
– السماء الدنيا.
– السماء الثانية.
– السماء الثالثة.[79]
– البيت المعمور: «والبيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة».[80]

6. تمظاهرات السياقات غير اللغوية في أحاديث الإسراء والمعراج:

أبرزنا عبر محطات عديدة صلة المحيط والملابسات بتشكيل الملفوظات، وبروز ظواهر ملفوظية معبرة عن دواعي وأبعاد التلفظ، ثم كشفنا في مرحلة سابقة عن عناصر التلفظ (كفعل لساني) عن طريق معينات (الشخص- الزمان- المكان)؛ والتي زادت مقامات التلفظ وضوحا.

أما في هذه المحطة فسنمد حبل الوصل بين الملفوظ كمادة لسانية ومرجعيات التلفظ وسياقاته استثمارا لما مدتنا به معينات التلفظ، وذلك على النحو التالي:

1.6. السياق وآفاق التأويل:

لا شك أن حدثا عظيما ومعجزة كالإسراء والمعراج، حدث محاط بظروف وسياقات خاصة وكثيرة، بل إن كتب تفسير القرآن والحديث معا تجمع على هذا وتقف عنده، وسنقف عنده بدورنا لكن وفق المخطط الذي حددناه سابقا (الانطلاق من الملفوظ، استقراء المعينات، تحري أثر السياقات) وذلك حسب معيار تصنيفات السياقات:

1.1.6. السياق النفسي والاجتماعي:

في نصوص الأحاديث إشارات لفظية واضحة تدل على أن النبي ﷺ أسري به في مرحلة كان في أمس الحاجة إلى التفريج والدعم، ومن ذلك تنقية الله تعالى صدره.

ولقد أثبتت مصادر السيرة النبوية -فعلا- أن ﷺ كان قبل الإسراء والمعراج ضائق الصدر يشكو ضعف نفسه التي أحاط بها كيد الحاسدين وتكذيب المشركين، وهو ما عبر عنه ﷺ في دعاء الطائف ونصه: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي , وَقِلَّةَ حِيلَتِي , وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ , يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ

رَبّي إلَى مَنْ تَكِلُنِي إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي...»،[81] إلى آخر الدعاء.

ولو رجعنا إلى سبب هذا الأثر النفسي وهو الضغط الاجتماعي الذي عبر عنه ملفوظ (هواني على الناس) وهي نفسها الجماعة التي كذبت الرسول الكريم حتى بعد الإسراء والمعراج، حين ذكرهم بعبارة «كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ»، فقد كان السياق النفسي دالا على علاقة متوترة بين الرسول ﷺ وقريش يشوبها عدم الاعتراف بالرسالة، وعلى طرف مواز كان المجتمع الصغير الذي دعم النبي ﷺ ممثلا في آل بيته وفي الصحابة.

ويكفينا دليلا على ذلك ما ورد في خبر تصديق أبي بكر له، حيث يقول الشيخ محمد العريفي: «إنه وفي عز تكذيب قريش للنبي عليه الصلاة والسلام قال أبو بكر، إن قال ذلك فقد صدق، وكان ذلك مرد تلقيبه -رضي الله عنه- له بالصديق، ولقد كان لهذا الموقف دعم نفسي قوي لسيدنا محمد».[82]

فكان لذلك بعد نفسي واضح تجلى في الوقوف إلى جانب النبي ﷺ لتحمل رحلة الإسراء إيحاءات الترفيه والراحة، خاصة وأنها كانت ليلا، والليل مبعث الهدوء والسكينة، وهو على حسب مصادر السيرة من أحب الأوقات للنبي ﷺ، وهي كذلك (رحلة الإسراء والمعراج) صورة عن قدرة الله الإعجازية التي تقف إلى جانب النبي الكريم وتشد عضده.

2.1.6. السياق الديني:

إننا أمام نص شرعي، فمن البداهة أن تكون له سياقاته الدينية التي ساهمت في تشكله، بل ودفعت لوجوده، فالغايات الدينية والعقائدية تجاوزت حدود وجود النص إلى حدود حدوث المعجزة المعبر عنها بنص، والملاحظ من خلال نص الحديث أن الرحلة ختمت بفرضه -جل وعلا- للصلاة، في قول الرسول ﷺ: «فُرِضَت علي الصَّلَاة »،[83] وما دامت الصلاة عماد الدين؛ فإنه يمكن عد معجزة الإسراء والمعراج مرحلة إرساء دعائم الدين الإسلام وتثبيت ركائزه. وبهذه الفكرة نعقد علاقة بين مفهوم الصلاة وهذه الرحلة:

- إن الصلاة صلة بين العبد وربه.
- إن رحلة الإسراء والمعراج كانت صلة بين العبد وربه
- الرحلة كانت بين صلاتين (صلاة الليل والنهار).
- الرحلة توقف فيها الرسول الكريم عدة مرات للصلاة (في بيت المقدس، وفي البيت المعمور).

غير أنه لابد من الإشارة إلى أن أحاديث الإسراء والمعراج تضمنت عدة أحكام شرعية مستقاة، ويأتي في أولها تحريم الخمر لكونها منافية للفطرة الإسلامية السليمة. والدقيق في التأمل يلاحظ أن هذا البند جاء في سياق فرض الصلاة لأنهما أمران لا يلتقيان، وهو ما أثبته القرآن الكريم لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴿43﴾}[سورة النساء الآية: 43].

إلى جانب نبذ الكذب- الربا- الزنا وجميعها منكرات نهى الله تعالى عنها وحرمها، وجاءت صور المعاقبين كما قلنا للتأكيد على ذلك والترهيب.

فإذا إن أحاديث الإسراء والمعراج تعكس صورة السياق الديني الذي يعبر عن مرحلة ارتكاز الدين وتثبيت أركانه.

3.1.6. السياق الفكري:

تحاط الحياة الدينية والعقائدية دائما بأبعاد فكرية عديدة قد تكون موافقة لها ومؤيدة، وقد تكون على العكس من ذلك، ولقد بينت نصوص أحاديث الإسراء والمعراج الأبعاد الفكرية التي كانت محيطة بالحياة الدينية في تلك الفترة.

إن المسألة الفكرية التي كانت مواقف الإسراء والمعراج تمثلها لفظا في الأحاديث هي مسألة (الممكن والمعجز)، حيث مثل الممكن إرادة الله الذي إن قال للشيء كن فيكون، ويصدر عنها الفعل من العدم، وهذا الممكن هو بالنسبة للبشر معجز خارق لقوانين الطبيعة متجاوز لها.

وقد أكد التحليل الملفوظي ذلك في مواضع عدة، كارتقاء النبي ﷺ إلى مراتب لا يصل إليها بشر سواه، فقد ورد في صحيح البخاري، حدثنا طلق بن غنام، حدثنا زائدة عن الشيباني قال: سألت زرا عن قوله تعالى: **{**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴿09﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿10﴾**}**[سورة النجم الآية: 08-09] قال اخبرنا عبد الله إنه محمد ﷺ ، رأى جبريل له ستمائة جناح.[84] وهذه المراتب التي وصل إليها النبي الكريم مراتب لم يستوعب الزائرون للفضاء، مراتبا أقل منها بكثير مثل ما قال زغلول النجار: «أول رجل تجاوز المائتي كيلومتر أصابه شيء من الذهول وقال كلمة أو جملة مبهرة قال كأني فقدت بصري أو اعتراني شيء من السحر»[85] .

في حين نوه القرآن الكريم إلى ما أوتيه النبي ﷺ خلال عروجه لم يزغ بصره وجاء ذلك في سورة النجم لقوله تعالى: **{**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴿17﴾**}** [سورة النجم الآية: 17]، فكانت هذه ميزة خاصة به عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

فقد ورد في القرآن ما يؤكد ذلك في قوله تعالى: **{**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿14﴾ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿15﴾**}**[سورة الحجر الآية: 14-15].

ويعد هذا طرحا للدقة العلمية التي اكتنفت جانبا من جوانب المعجزة عموما، وهي ليست مقصودة لذاتها بل هي إبراز لنوعية الجدل الفكري الذي فتحته، فكانت المواقف الفكرية على وجهتين:

- وجهة التصديق والإيمان القبول.
- وجهة التكذيب والكفر والرفض.

وهذه الحكمة من أعظم الحكم التي تصلنا عبر هذه المعجزة، فالإيمان هو الفارق الوحيد الذي يحدد إلى أي الوجهتين يمكن أن ينتهي العبد، إذ كان الإيمان والحكمة زاد النبي الأول في رحلته، وهذا ما تطرقنا إليه ملفوظيا.

7. وساطة الإحالة والمرجعية بين السياقات اللغوية والسياقات غير اللغوية في أحاديث الإسراء والمعراج:

سنخصص الحديث ههنا بالإحالة الخارجية التي تشير فيها الملفوظات إلى مراجع خارج النص، والتي نصنفها كالآتي:

1.7. إحالة مراجعها معروفة: ونقصد بها كل الأشخاص والأشياء والأفعال التي حصلت معرفتها لدى المتلقي قارئا كان أو سامعا، سواء أكانت المعرفة حاصلة عن الحواس أو التناقل، ومن أمثلتها: بيت المقدس، بمجرد ذكر الرسول الكريم عبارة: «صَلَّيْتُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ».

«صَلَّيْتَ فِي بَيْت لَحْم»،[86] يعود بنا الملفوظ إلى هذا المكان حسب مصادر معرفتنا له، وكذلك ذكره للبراق، فإذا كان بعض الصحابة ونحن كذلك لا نعرف هذه الدابة، فمنهم من عرفها وعرّفها، من بينهم أنس -رضي الله عنه- في قولهﷺ: «نَعَمْ يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ». وكذلك الحال بالنسبة للقافلة التي لقيها الرسول ﷺ ، فهي عند من رآها وانتظرها مرجع معروف، وإن جهلت عند غيرهم، والأمثلة في هذا المقام كثيرة.

2.7. إحالة مراجعها غير معروفة: حيث كان النبي يذكرها، ويذكر إما وصفا دقيقا لها، أو ما يقاربها، ليحصل بها الفهم وتتحقق المعرفة، مثل سدرة المنتهى: «ثم صعدت سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى فتغشاني فَكَانَ بيني وبينه قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى »[87] .

وكذلك وصفه للبيت المعمور الذي تجمع تعريفاته على أنه مقابل الكعبة في السماء، لا سيما أن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- هو النبي الذي لقيه سيدنا محمد عنده، كما أنه واضع قواعد الكعبة المشرفة في الأرض، لقوله تعالى: **{**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**}**[سورة البقرة الآية: 126]، وجاءت صورة البيت المعمور في الأحاديث كما ذكرنا سابقا.

وإن كانت مسألة معرفة المراجع من عدمها مسألة معيارية على مستوى الأشخاص في بعض الأحيان، فإنها من ناحية أخرى تعود إلى عالم الغيب وعالم الشهادة، فالإدراك والمعرفة بالحواس تخص كل ما هو موجود في عالم الشهادة، وكل ما هو متصور يعود إلى عالم الغيب الذي لا يصلنا عنه شيء إلا بالنصوص المقدسة.

وخلاصة القول إن الظواهر الملفوظية في أحاديث الإسراء والمعراج كثيرة، ومعبرة عن ثراء الأداء الكلامي للنبي صلى الله عليه وسلم واحتواءه على تفاصيل خاصة، لها دورها وفاعليتها في إنتاج الخطاب اللغوي وفي تلقيه، وجب الوقوف عليها من أجل فهم دلالاته الظاهرة والخفية، والمظاهر الإعجازية الناجمة عن النبوة، واجتماع العلم واللغة والدين في شخص واحد.

8. خاتمة :

في الختام يمكننا القول: إن السياق يمثل عنصرا أساسا في إنتاج الملفوظات، لذلك لا يجدر بنا إغفاله في تحليلها إذا ما أردنا الكشف عن جميع جوانبها، فلكل ملفوظ سياق داخلي ويمثل بنيته اللغوية، وسياق خارجي ويمثل مجموع عناصر البيئة التي تنتجه، لذلك تجاوز التحليل الملفوظي في اللسانيات التداولية في مقاربته للنصوص والخطابات مجرد البحث في السياق اللغوي إلى تجليات السياق وتمظهراته.

كما تجدر الإشارة إلى أهمية تصنيف الملفوظات في تحليل الأنسجة اللغوية، والكشف عن مدى تفاعلها فيما بينها ضمن أنساقها الداخلية.

وقد مثل حديث الإسراء والمعراج ملفوظات جاهزة ومثالية لمثل هذا التحليل، لما تكشفه أصنافها من دلالات لغوية وما تحيلنا إليه من سياقات خارجية بمختلف عناصرها، من زمان ومكان وشخص... وما تتميز به من تداخل وانسجام فيما بينها، وتجلي ذلك في تفاعل الملفوظات وتنوعها وانسجامها.

ولا يخفى عن هذه الملفوظات ارتباطها الواضح بالدواعي الخارجية لانتاجها، والمتمثل في الجو العام الذي أحاط بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل وبعد تجربته مع حادثة الإسراء والمعراج، والتي نقلها الحديث على شكل ملفوظات متنوعة، لعبت وساطة الإحالة والمرجعية دورا بارزا في التفاعل بين سياقاتها اللغوية، وانسجامها مع بعضها البعض وكذا مع السياقات الخارجية، مما يضمن تحقق مبدئي التلاحم والتلازم، ويجعل لنص الحديث وحدة دلالية.

المراجع

[1] Bakhtine, Le marxisme et la philosophie du langue, Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, p124
[2] رايص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، مطبعة سايس، فاس، المغرب، ط1، 2007، ص85.
[3] بايون براول وسلفر جيل، موسوعة المصطلحات اللسانية، ترعمر النقاش، بيروت، لبنان، 2000، ص177.
[4] باتريشيا فان هاي، حتى نتجاوز البنيوية، تر: جاد عوض، ديوان الطباعات الجامعية، عمان الاردن، 2015، ص100.
[5] E, benvénist, problems de linguistique, paris,1966,p73
[6] جون غوركو سيمون، من الجملة إلى الملفوظ، تر، علي عياد، بغداد، العراق، ط1، 2008، ج2، ص48.
[7] أحمد ابن فارس مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1979، ج3، ص117.
[8] باتريك شارودو، دومنيك مانغو، معجم تحليل الخطاب، تر عبد القادر المهيري، حمادي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008، ص133_134.
[9] Jean Dubois et otres, Dictionnaire de linguistique et des sciences du langue , Larousse, France, 1999, pp120_121 .
[10] جون ليونز، نظرية المعنى عند فيرث، تر عبد الكريم مجاهد، مجلة الفكر العربي، ع78، 1994، بيروت، ص25.
[11] ينظر: أحمد غزاوي، آليات التعبير، دار جيل، دبي، الإمارات، 2000، ص65
[12] ينظر: جميل حمداوي، أنواع الملفوظ السردي في القصة القصيرة جدا، المغرب، 2014' ص3. شبكة الألوكة.
[13] المرجع نفسه،آ ص4.
[14] المرجع نفسه، ص5.
[15] الهادي السنوسي، التأسيس لأصناف الملفوظات عند جميل حمداوي، مجلة آراء في التحليل اللغوي، مخبر الدراسات والبحث، الدار البيضاء، العدد2081، ص3.
[16] المرجع نفسه، ص4.
[17] ينظر: كمال عطوان، تجليات البحث الألسني في بنية ومعاني اللغة العربية، دار التقليد، تونس، ط2012، ص45.
[18] جميل، حمداوي، المرجع السابق، ص12
[19] عبد الجليل مرتاض، الوظائف النحوية على مستوى النص، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص151.
[20] جميل، حمداوي، المرجع السابق، ص07.
[21] شادية العمري، الإيماء واللغة، قفصة، تونس، 2009، ص20.
[22] جميل، حمداوي، المرجع السابق، ص08.
[23] ينظر: أبو هني الدين الرفاعي، التجربة النحوية المغاربية في التحليل الملفوظي، دار الإسراء، بغداد، العراق، 2016، ص33.
[24] عبد الله البخاري: صحيح الأحاديث النبوية، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط2004، ص: 682.

[25] محمد بن هشام، السيرة النبوية، تح: محمد علي القطب، ومحمد عليبلطة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2001، ج1، ص46.
[26] زكي الدين بن عبد العظيم المنذري مختصر صحيح مسلم، بيروت لبنان، ط1 2001 ص 44.
[27] عماد الدين ابن كثير: تفسير القران العظيم، تح: سامي بن محمد السلام، دار صادر، بيروت، ص: 244.
[28] البخاري: مصدر سابق: 68.
[29] بن هشام: مصدر سابق، ص: 47.
[30] البخاري، مصدر سابق، ص68.
[31] بن هشام: مصدر سابق، ص: 47.
[32] نفسه، ص46.
[33] عبد الله البخاري: مصدر سابق، ص: 1246
[34] نفسه.
[35] البخاري، مصدر سابق، ص 66.
[36] نفسه ، ص: 67.
[37] نفسه.
[38] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مختصر صحيح مسلم، بيروت، لبنان ط1، 2001، ص 42 43.
[39] البخاري: مصدر سابق ، ص 67.
[40] مسلم بن حجاج بن مسلم: صحيح الأحاديث النبوية، شرح الإمام الدمشقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1954، ص 171
[41] البخاري: مصدر سابق، ص66.
[42] المصدر نفسه ، ص 69.
[43] المصدر نفسه ، ص 68.
[44] مسلم: مصدر سابق، ص 147.
[45] المصدر نفسه، ص 162.
[46] البخاري: مصدر سابق ، ص 1247.
[47] المصدر نفسه ، ص 68.
[48] المصدر نفسه ، ص 1246.
[49] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 44.
[50] البخاري: (ذ1)، مصدر سابق ، ص 67.
[51] المصدر نفسه، ص 1246.
[52] المصدر نفسه ، ص 838.
[53] بن كثير: مصدر سابق ، ص 238.
[54] البخاري، مصدر سابق، ص 75.
[55] مسلم: مصدر سابق، ص 170.
[56] بن كثير: مصدر سابق ، ص 244.
[57] المصدر نفسه، ص 243.
[58] نفسه، ص 236.
[59] جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين، مكتبة المثنى، بيروت، لبنان، د ط، ص 697.
[60] ابن هشام: مصدر سابق، ص 45.
[61] كارم غنيم: معجزة الإسراء والمعراج، مجلة روائع فكرية، بيروت، لبنان، ع138، ص 4.

[62] البخاري: (ذ1)، مصدر سابق، ص 66.
[63] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 44.
[64] البخاري، مصدر سابق، ص66.
[65] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 44.
[66] البخاري: مصدر سابق ، ص68.
[67] المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
[68] المصدر نفسه، ص67.
[69] المصدر نفسه، ص68.
[70] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 42.
[71] البخاري: (ذ1)، مصدر سابق، ص 67.
[72] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 42.
[73] البخاري: مصدر سابق، ص 67.
[74] المصدر نفسه، ص1246.
[75] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 45.
[76] البخاري، مصدر سابق، ص683.
[77] بن هشام: مصدر سابق، ص: 45.
[78] البخاري: (ذ1)، مصدر سابق ، ص 66.
[79] مسلم: مصدر سابق، ص 170.
[80] بن كثير: مصدر سابق ، ص 244.
[81] صفي الدين المباركفوري: الرحيق المختوم، دار الوفاء، المنصورة، مصر ط1، 2004، مصدر سابق، ص 125.
[82] حمد العريفي: قصة الإسراء والمعراج، محاضرة سمعية بصرية.
[83] عبد الله البخاري: مصدر سابق، ص 69.
[84] البخاري: مصدر سابق، ص 884.
[85] زغلول النجار: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، تقديم أحمد فراح، مكتبة الشروق، ط2، 2008، ج4، ص 10.
[86] بن كثير: مصدر سابق، ص 245.
[87] نفسه، ص 244.

انشطار الذات وتشظي السرد
قراءة في رواية (والبحر ليس بملآن)

د.أحمد بن سعيد العدواني[1]

[1] أستاذ مشارك جامعة أم القرى- كلية اللغة العربية- قسم الأدب، السعودية aladwania@hotmail.com

الاستلام	٢٠١٦/٤/٢٩	المراجعة	٢٠١٦/٨/٣٠	النشر	٢٠١٦/١٢/٣٠

ملخص البحث

يحاول البحث رصد ملامح التغيير التي طرأت على الرواية العربية في العقود الأخيرة، بالوقوف على نموذج للرواية العربية الجديدة، من خلال رواية (والبحر ليس بملآن) للروائي المصري جميل عطية إبراهيم، الصادرة عام 1985م.

تعالج الرواية في موضوعها الرئيس، العلاقة مع الآخر، ولكن بطريقة مغايرة عن الروايات التي سبقت حول هذا الموضوع، وذلك في ظل بحث الراوي عن المعنى الكامل للحياة. حيث يعاني حالة من الانشطار، بين الحياة في وطنه العربي، ونمط الحياة في الغرب، فتتجاذبه عدد من الثنائيات المتقابلة. وفي ظل وعيه الحاد بالأزمة، تتولد لديه حالة من الرفض، تنتج مشاعر الوحدة والاغتراب، وبالتالي العجز عن الوصل إلى حالة الانسجام والطمأنينة. فالأولى حياة مألوفة حالمة تنبض بالحياة لكنها محبطة، والثانية عقلانية عملية، لكنها مادية باردة.

في ظل جدلية (الذات والموضوع) ينشطر وعي الراوي، وتهيمن عليه الرؤية الداخلية، فيتشظى السرد، حين يعتمد على الذاكرة، في تداخل سردي متزامن، بين مشاهد وأحداث الحاضر والماضي، فيفضي ذلك إلى التداعي والاسترسال، وتهشيم الحبكة السردية، وغياب الحدث الممتد، ومحاولة السيطرة على تدفق الزمن. كل ذلك انطلاقاً من موقع تبئير داخلي، تقدمه الشخصية الرئيسة في الرواية، ويمتزج فيه موقع الراوي مع الصوت السري.

الكلمات الدالة: انشطار- الذات- تشظي- السرد

Self- splitting and fragmentation of the narrative Reading the novel (And the sea is not full)

Dr. aladwani ahmad saeed[1]

[1] Associate Professor, Department of literature - Arabic college- Umm alqura university- Makkah- Saudi Arabia
aladwania@hotmail.com

Received	29/4/2016	Revised	30/8/2016	Published	30/12/2016

Summary

The research tries to investigate changes that occurred in Arabic novels in recent decades, through a new model of Arabic novel: (and the sea is not full) by the Egyptian novelist Jamil Ibrahim Attia, first published in 1985.

The main theme of the novel tackles the individual's relationship with the other in a different way than its predecessors. The narrator of the novel is still seeking the whole meaning of life while suffering from a state of dichotomy between life in his homeland and lifestyle in the west. In light of his sharp consciousness of this dilemma, a state of denial within him prevails, which consequently produces a feeling of loneliness and alienation. Thus, he cannot reach a state of harmony or tranquility, because where life in the homeland is a familiar dream which pulses with life but is also frustrating, life in the west is practical and rational, but materialistic and cold.

The narrator's awareness is then split into a self/ subject kind of narration, and his inner vision dominates, leading to a narrative fragmentation –which depends mainly on memory-, and consequently there is an overlapping of a parallel narrative between scenes of the present and the past, which then leads to the demolition, continuation, and marginalizing of the narrative plot, and the absence of an extended event, and an attempt to control the flow of time. All of this is done from an internally focalized position, which the main character in the novel presents, where the narrator's position merges with the narrative voice.

Key words: splitting, Self, fragmentation, Narrative.

أولاً: طبيعة الرواية الجديدة

ظهرت الرواية في الأدب العربي الحديث بوصفها استجابة جمالية لظروف المرحلة الحضارية، فكانت دلالة التغيير موضوعها الرئيس، الذي انبثقت منه بقية الموضوعات، نظراً لما تمتاز به الرواية من سمات حوارية تجعلها قادرة على التداخل مع بقية الحقول المعرفية، وما تتوافر عليه من قدرة على التفاعل مع الواقع، وتمثيله إبداعياً.

ويمكن التمييز بين مراحل ثلاث للرواية العربية، على مستوى رؤيتها ومبادئها الجمالية، ابتداء بالرواية التقليدية التي انطلقت من مبدأ إعادة إنتاج الوعي السائد، وإدراك الذات الجماعية لأهمية البحث عن شكل تعبيري وذوق فني مختلف عن الشعر، فكان تركيزها على نقل الأفكار، وتقديم العبر والعظات، وركزت اهتمامها على الوقائع والأحداث، في لغة يغلب عليها التقرير، وسرد يهيمن عليه الراوي العليم. ثم جاءت الرواية الحديثة منطلقة من رؤية وثوقية للعالم، ترى في الرواية حيازة جمالية للعالم، وبحثاً عن عالم أفضل، وتسعى إلى تجاوز الوعي السائد، واكتشاف علاقات جديدة، وتغليب مبدأ العلة والسببية، وترابط عناصرها البنائية وتناميها، وتنوع الضمائر والمواقع السردية، وصولاً إلى تحقيق (مبدأ الإيهام بالواقعية). فالرواية الحديثة ترى أن العالم والظواهر يمكن أن تخضع للفهم والربط والتفسير، وبالتالي مواجهة الواقع وتغييره [1].

أما الرواية الجديدة فتنطلق من رؤية لا يقينية للعالم، وتعتمد فلسفتها التمرد على التحديد والتصنيف، وجماليات الوحدة والتماسك، فهي تعبر عن الأزمات المصيرية للإنسان المعاصر، وحالة التلاشي واهتزاز القيم، وتشتت الذات الجماعية، وغياب المنطق، في ظل غموض الواقع. وعليه تأتي الرواية الجديدة بوصفها فعلاً مقاوماً يعيد النظر في كل شيء، ويسعى إلى تأسيس وعي جمالي جديد، تشظى فيه السرد واضمحلت فيه أدوار الشخصيات وتفتت فيه الأزمنة والأمكنة، وغابت الحبكة القائمة على مبدأ التسلسل والترابط والمنطق، انطلاقاً من تشظي البنية الاجتماعية والفكرية، بل أصبحت مواجهة القارئ ضمن دائرة السرد ملمحاً يحاول به الروائي كسر مبدأ الإيهام بالواقعية [2] .

لقد كان الشرخ الكبير، والهزة العنيفة التي أحدثتها هزيمة حزيران في الستينيات، ثم سيطرة قيم الاستهلاك في العقود التالية، وراء تلك التغييرات التي طالت كافة مناحي الحياة، حيث اهتزت بها الشخصية العربية، فحل الشك محل اليقين، وسقطت معها كثير من القيم، بما فيها القيم الجمالية، ظهرت في الرواية من خلال حساسية جديدة أصبحت معها الكتابة الإبداعية "اختراقاً لا تقليداً، واستشكالاً لا مطابقة، وإثارة للسؤال لا تقديماً للأجوبة، ومهاجمة للمجهول لا رضا عن الذات بالعرفان" [3] . وفي ظل تلك التحولات الكبرى، فقد كان بروز تيار التجريب في الكتابة الروائية "وليد شعور بالمغايرة والتمايز، أنتجهما موقع محدد في السياق التاريخي، ووعي حاد بما يصطرع فيه من رؤى ومصالح. وعلى هذا النحو نلمس ضرباً من الجدل بين بنية اجتماعية بعينها واستجابة الكتابة الروائية" [4] .

ويذهب الدكتور سعيد يقطين، في سياق التمييز بين مرحلتين رئيستين مرت بهما الرواية العربية، إلى اجتراح مصطلح (عمود السرد) للدلالة على استقرار الأعراف والبناء السردي المحكم، في ظل جيل تربى على قيم الوطنية والتحرر وبناء مجتمع وإنسان جديد، لكن مرحلة ما بعد هزيمة 67م جعلت اليقينيات السابقة موضع تساؤل، وأصبحت معها الرواية لا تعكس عالماً مكتملاً أو واقعاً يحكمه المنطق، وإنما تتطور متعالية على أي معيار أو خطاطة سردية، ففي مقابل (السرد المحكم) أصبح (السرد المتقطع) الذي ألغى الخطيّة السردية، و(السرد المرسل) حيث لا توجد فيه قصة محورية أصلاً [5] .

كذلك فقد كان التأثر بالتجارب العالمية في كتابة الرواية عاملاً مهماً في ظهور الرواية الجديدة في الأدب العربي، مثل تيار الوعي والوجودية والسرياليي، وقد مثلت الرواية الجديدة في فرنسا المؤثر الأكبر، بوصفها رؤية جديدة لإنسان جديد، كما يصفها آلان روب غربيه، حيث يقوم ميثاقها على الآتي [6] :

1) أنها بحث دائم وخروج على الأشكال البالية، وليست تحديداً لقوانين بديلة.
2) أنها ليست انفصالاً عن الماضي وإنما إدراك للطبيعة التعاقبية في سياق التطور والتغيير.
3) أنها لا تهمش الإنسان ولكن ترصده من زاوية الرؤية والنظر تجاه الأشياء.
4) أنها تبقى تجربة ذاتية في حدود الزمان والمكان مهما تعلقت بأوهام الموضوعية.
5) أنها لا تتعمد الغموض والانفصال، ولكنها تمثل ذائقة جمالية مختلفة.
6) أنها لا تقدم معاني جاهزة وإنما هي بحث يخلق بنفسه دلالات نفسه كلما تقدم.
7) أن الالتزام الوحيد بالنسبة للكاتب هو الأدب، فليس هنالك شيء قبل العمل أو فوقه.

وقد وجد الجيل الروائي الجديد في أعمال روب جرييه ونتالي ساروت ومارسيل بروست النموذج المعادل لهواجسه وآلامه، "كما نهلوا من إبداعات كل من همنجواي وكافكا وجيمس جويس...وغيرهم. مع مراعاة ضرورة الأخذ بعين الاعتبار التمايز بين طبيعة المجتمعات الغربية، والعوامل التي ساعدت في ازدهار هذه التيارات الأدبية والتحولات الجارية في المجتمع العربي، بما هو مجتمع له مواصفات محددة: باعتباره مجتمعاً متفجراً، يتوق إلى التغيير" [7] .

ففي مقابل الأسئلة المعرفية (إبستمولوجية) التي تتمحور حول تفسير العالم وحدود معرفته وموضوعها، وانتقالها من عارف إلى آخر، في الرواية التقليدية، تقوم الرواية الجديدة على أسئلة (أنطولوجية) حول ماهية العالم، وأنواع العوالم المتوافرة، وكيفية اختراق الحواجز بين تلك العوالم [8] .

لقد كانت الرواية النوع الأكثر قدرة على استيعاب تلك التحولات، حتى إنه يمكن القول "إن سؤال الثقافة العربية الآن هو بامتياز سؤال الرواية" [9] . وفي ظل رحلة التيه التي اعترت الثقافة العربية، أخذ الروائيون في تجريب طرائق جديدة تستوعب تلك الحالة، "ذلك أن العالم الذي نعيش فيه يتغير بسرعة كبيرة. والتقنيات التقليدية للقصة لم تعد صالحة لاستيعاب جميع العلاقات الجديدة التي تنشأ عن هذا الوضع الجديد" [10].

حتى على مستوى التلقي، فقد حرصت الرواية الجديدة على تغيير علاقة المتلقي بالرواية، من خلال تغيير عاداته القرائية وكسر أفق انتظاره، بل جعله جزء من الحالة السردية أحياناً. ويتحقق الأفق الجديد للقراءة من خلال وعي الروائيين أنفسهم وتبشيرهم بذلك الأفق المغاير في تصدير رواياتهم، ومحاولة الروائيين التخلص من السؤال التقليدي الذي يحكم علاقة القارئ بالرواية (وماذا بعد؟)، وتفجير الحكاية، وخلق قواعد جديدة للإحالة والتلقي والاستجابة، وعدم تجذير الرواية في حقل مرجعي محدد أو معروف للقارئ، شأنه في ذلك شأن الزمن الروائي المتشظي [11] .

ثانياً: سؤال المنهج/ بوصلة القراءة:

من المؤكد أن معظم قضايا الأدب والنقد امتداد لقضايا فلسفية شكلت أسئلة أزلية، ما تزال الإجابة عنها مفتوحة على احتمالات عدة، وتعد العلاقة بين العرض والجوهر أُساً لقضية الشكل والمضمون، التي تعاورتها أقلام النقاد باختلاف انتماءاتهم الفكرية، وظروفهم الحضارية. وهي القضية التي استوت في النقد العربي القديم

من خلال نظرية النظم الجرجانية، حيث اندغم اللفظ فيها بالمعنى، من خلال الاهتمام بالعلاقات، أو فكرة (توخي معاني النحو)، وما ينتج عنها من دلالات تختلف باختلاف علاقات المكونات.

فالشكل لا يمكن أن تكون له قيمة إلا من خلال الدلالات المتضمنة فيه، إذ لكل شكل دلالة تختلف عن الآخر، ومهمة الناقد تتأتي من خلال استنباط الدلالات الكامنة في شكل دون غيره، وإدراك الفروق الدلالية بين نمط وآخر، استناداً إلى طبيعة العلاقة التي تحكم العناصر السردية. وقد ذهب بعض النقاد إلى أن ما يسمى (محتوى الشكل) هو "الموضوع الدقيق للنقد الأدبي، وهو الموضوع الذي حامت حوله جهود كثيرة سابقة دون أن تسميه على هذا النحو بالتحديد" [12] . فكل ممارسة إبداعية قائمة على مبدأي الاختيار والتأليف، وقيمة الشكل في الرواية تكمن في قدرة المؤلف على "الإمساك بمادته الحكائية وإخضاعها للتقطيع والاختيار، وإجراء التعديلات الضرورية عليها حتى تصبح في النهاية، تركيباً فنياً منسجماً يتضمن نظامه وجماليته [13] . وانطلاقاً من تلك العلاقة التلازمية، يصبح الشكل "معنى ومحتوى له دلالته الفلسفية والفكرية والأدبية، وهي أهم كثيراً مما اعتدنا دعوته بالمعنى أو المضمون" [14] .

وفي سياق السرد الروائي فإن تطور الأشكال الروائية نتاج لتطور الوعي بالرواية، بوصفه تطويراً لموقف محدد من المجتمع وقضاياه. ويمكن الذهاب مع الدكتور سعيد يقطين في تأكيد تحقق تلك العلاقة بين الشكل والمحتوى ضمن بنية الرواية من خلال الخطاب الروائي، وعليه فإن خصوصية "الخطاب الروائي إذن من خلال الشكل، لكن الشكل لا يمكن أن يتحقق بدون شبكة من التقنيات التي تتضافر لمنحه مسحة مميزة، وتجعله، بالتالي، ينتهج أسلوباً معيناً من بين عدد من الأساليب التي يمكن إنتاجها في الكتابة، وتوظيف التقنيات، بقصد رؤية فنية محددة" [15] .

حتى عند كتاب الرواية الجديدة في فرنسا، الذين تمردوا على القوالب التقليدية في الكتابة، كان الوعي بعلاقة الشكل بالمحتوى حاضرة، حيث يذهب آلان روب جرييه إلى القول: "في الشكل أيضاً يكمن المعنى، (المعنى العميق) للعمل، أعني المضمون. فبالنسبة للكاتب ليس هناك وسيلتان ممكنتان لكتابة كتاب واحد. فعندما يفكر الكاتب في رواية فإن الأسلوب أولاً هو الذي يشغل ذهنه ويجذب يده. في رأسه تكمن حركات الجمل والبناءات واللغة والتراكيب" [16] .

في تحليل رواية (والبحر ليس بملآن):

تمثل رواية (والبحر ليس بملآن) [17] واحدة من روايات الحساسية الجديدة في الأدب العربي، لتعكس وعي الجيل الروائي الذي ينتمي إليه مؤلفها (جميل عطية إبراهيم) [18] ، والظروف الحضارية التي أنتجت ذلك الوعي، وقد نشرت الرواية عام 1985م.

تقدم الرواية حكاية شخصية (الراوي) عايشت تحولات الواقع المصري خلال العقود الماضية، وتنقلت مرتحلة بين الشرق والغرب، بين حياة مكتنزة بالألفة، وممتزجة بالمعانة في مصر، وحياة تلفها الغربة وتسودها الرفاهية في سويسرا. وبين هاتين الحياتين تنشطر ذات الراوي، لتغدو معها الرواية مقاطع متقابلة بين الحالتين، في سياق البحث عن المعنى الكامل، ولحياة الحقيقية. إنها "تجربة جديدة في منطق الحكي أو اللاحكي بمعنى أدق، لمحات سريعة من أزمنة متفاوتة وأماكن متفاوتة، أربعين عاماً من التجول بين البلدان العديدة، بين تجارب الحب والسياسة والتصعلك، ورغم ذلك فإن البحر ليس بملآن" [19] .

أولاً: عتبة العنوان:

يحمل العنوان مفتاحاً مهماً في تعيين دلالة النص الروائي، إلى جانب الوظيفة الترويجية والإيحائية، والوصفية، نظراً لموقعه المتمركز بين أطراف الممارسة الإبداعية، فهو "عقد شعري بين الكاتب والكتابة من جهة، وعقد قرائي بينه وبين جمهوره وقرائه من جهة، وعقد تجاري تجاري/إشهاري بينه وبين الناشر من جهة أخرى"[20] على أنه من المؤكد أن طبيعة العلاقة بين العنوان والنص الذي يدل عليه لا يحكمها اتجاه واحد في التأثير، بل جدلية يتم تعديلها باستمرار مع استمرار القراءة، وخصوصاً في الرواية الجديدة التي تعول كثيراً على دور القارئ في ذلك.

في عنوان هذه الرواية (والبحر ليس بملآن) لا تبدو الوظيفة التعيينية والدلالية واضحة كما هي في الرواية التقليدية، لأن فلسفة الرواية الجديدة تقوم على توريط القارئ وإشراكه في الممارسة السردية، والتأويلية، ضمن مبدأ أفق الانتظار، وبالتالي فإن الوصول إلى دلالة ذلك العنوان تحتاج إلى المضي قدماً في القراءة، وكأنه بذلك سؤال ممتد مصاحب لفعل القراءة. فالرواية الجديدة لا تهدف إلى تبليغ رسالة محددة أو التأثير في القارئ عند صياغة عنوانها، بل "تتلبسه المفارقة العريقة التي ينتجها تساؤل المتلقي، لأن العنوان يفاجئ، ويحير بحسب المعرفة التي يخلقها"[21] .

على المستوى التركيبي فإن عنوان هذه الرواية طويل نسبياً إذا ما قيس بغيره، فهو مكون من خمس كلمات، حرفان واسمان وفعل، وإذا كانت الحروف مبنية (قارة) لا معنى لها، والأسماء تحيل إلى دلالة سكونية مجردة من الزمن، فإن معنى الحركة والفعل لا يتحقق إلا في كلمة واحدة (ليس)، ومع ذلك فإنها فعل ماضي ناقص، يتضمن دلالة النفي. وهذا ما سنجد عليه الرواية التي تنقل انطباعات الراوي ومشاهداته، وقلقه ورفضه، لكثير من أنماط الحياة وسلوك البشر واضمحلال الإنسان. وهو كذلك ما يتناسب مع الصيغة الصرفية (ملآن/ فعلان)، في تضمنها دلالة الاضطراب والقلق. فمع سكونية العنوان وانحسار الفعل، يضمحل الفعل الإنساني ويتلاشى الحدث في الرواية إلى درجة كبيرة.

هذا العنوان متعارض الأجزاء، يقوم بناؤه على التقابل الدلالي بين مكونيه (البحر/ ليس بملآن)، فالبحر يرتبط في الوعي الإنساني عموماً بدلالة الاتساع والاحتواء المطلق، لكنه في هذا العنــوان يتضمن دلالة مغايرة. كما أن العنوان -على المســـتوى النحوي- جملة حالية مرتبطة بسياق سابق لها، يقتضي أحداثاً وتجارب ومواقف، وذلك من خلال (واو الحال)، وتعكس قلق وانشطار الشخصية داخل الرواية، في ظل رحلة البحث المستمرة عن معنى الحياة الكامل ويقينها، بين بلدان مختلفة (مصر، المغرب، أسبانيا، فرنسا، المانيا، سويسرا)، ومع شعوب ومجتمعات عدة، وفي ظل ثقافات مختلفة (إسلامية ومسيحية ويهودية)، ليكون ما بعد (الواو) تقريراً عن الحالة الإنسانية.

تصنف العناوين المكونة تركيبياً من جملة مبتدئة بحرف (واو)، ضمن العناوين غير المألوفة، فهي غريبة مستفزة ومثيرة للتساؤل، وتدل على أن جملة العنوان متعلقة بسياق قولي سابق، كما أن لعبة التضاد الدلالي في العنوان تجعل القارئ يجد نفسه أمام الشيء ونقيضه [22] . وهذا ما يتحقق في البنية التركيبية بين جزئي العنوان (البحر/ ليس بملآن)، فيكسبه شاعرية وفضاء تأويلياً أوسع، ذلك أن العنوان بنية صغرى متولدة عن بنية كبرى (النص)، وهو تال في صياغته لنص الرواية، وبالتالي فإنه مفتاح مهم في توجيه قراءة الرواية.

يحقق العنوان –غالباً- في الرواية الجديدة حالة من التناص مع نصوص أخرى، تجعل فضاء تأويله مرتبط بها. وبتأمل عنوان هذه الرواية نلاحظ أنه يحيل إلى أحد نصوص الكتب المقدسة (العهد القديم)[11] ، بما تحمله تلك النصوص من حكمة، وقوانين تكشف جوهر الوجود الإنسان في رحلته على هذه الأرض، وما يكابده من كدح وشقاء، متوهماً إمكانية القبض على الحقيقة المطلقة والسعادة الأبدية، لكنه سرعان ما يكتشف زيف ذلك الاعتقاد، فالنقص (ليس بملآن) أصل في تكوين البشر وحياتهم، واليقين أو السعادة (لؤلؤة المستحيل) وهم يلهث خلفه البشر.

وبتأمل العنوان في هذه الرواية نلاحظ أنه نابع منها، ومأخوذ من نصها، حيث يرد في موضعين من الرواية في الرواية، بل يتكرر في أحدهما، ضمن حالة التأمل والاستبطان التي تكثر في الرواية، وضمن مبدأ التكرار الذي تحفل، "كل الأنهار تجري أيضاً إلى البحر، والبحر ليس بملآن، وشجرة الحياة متعددة، وكل الأنهار تجري وتصب في البحر، والبحر ليس بملآن" [23] .

ثانياً: انشطار الذات بين عالمين

تعالج هذه الرواية موضوع العلاقة الحضارية بين الشرق والغرب، في ظل وعي الراوي بطبيعة المتغيرات الحضارية وموقع الحضارتين، ونتيجة لذلك فقد كان الشعور بحالة النقص وعدم الاكتمال، من خلال نفي الامتلاء عن البحر، الذي يحوي عنصر الحياة الأول (الماء). فالبحر معادل لحياة الشخصية في الرواية، بما تعيشه من انشطار بين ثنائيات عدة تتجاذبها، بين ماض وحاضر، وأحلام وواقع، وشرق وغرب ...إلخ. فحالة الشعور المتناقضة بين الاكتمال والنقص (البحر/ ليس بملآن) تجعل (الانشطار) المحور الدلالي الأبرز في الرواية.

يتجلى انشطار الذات، في سياق طموحها للوصول إلى حالة الامتلاء، من خلال البحث المستمر، والارتحال الدائم، بين مدن وثقافات تعكس كل منها رؤية مختلفة في الحياة، إذ تكسبه كل واحدة تجربة تتعدل معها مواقفه، وينعكس وشمها في روحه. "حللت بمدن عديدة، وكل مرة أجمع أوراقي، وأربط حقائبي وأرحل، وقد فقدت شيئاً من ذاتي، وأسقطت وهماً من أوهامي، فأحلام الشرق التي أحملها في داخلي لم تعد تجدي"[24] . وباستمرار رحلة البحث، في الرواية، نجد حضوراً طاغياً للثنائيات، يفضي وجود الراوي بينها إلى توليد دلالة الانشطار. ويمكن متابعة تجليات تلك الدلالة من خلال الأتي:

1- أزمة الوعي وتجاذب الأقطاب:

لقد شُغل الإنسان بسؤال المعرفة والخلود، والبحث عن اليقين منذ بدء الخليقة، وما أسطورة بروموثيوس وملحمة جلجامش وآثار الفراعنة وأطلال الجاهليين وروايات عوليس والخيميائي وأولاد حارتنا وموسم الهجرة إلى الشمال، إلا محاولات ستتلوها العديد من المحاولات للقبض على جمرة اليقين. فالراوي ليس إلا امتداداً لحالة الفضول المعرفي الذي جُبل عليه البشر، لكن في طريق المعرفة ذلك يقع الراوي بين متناقضات عدة، تفضي به إلى حالة من الانشطار ومشاعر القلق والاغتراب. "أوصى الرب الإله قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت" [25] .

---

[1] سفر الجامعة / الإصحاح الأول "ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس... كل الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن. إلى المكان الذي جرت منه الأنهار إلى هناك تذهب راجعة. كل الكلام يقصر. لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل. العين لا تشبع من النظر، والأذن لا تمتلئ من السمع".

كما يتجلى وعي الراوي في إدراكه لكثير من تفاصيل الواقع الحضاري للعرب، لتصبح المعرفة سبباً في الشقاء، في مقابل عمود الطمأنينة الذي يقوم عليه الجهل كما يقول النفري. وفي ظل ذلك يتضخم الإحساس بالزمن، بوصفه قضية فلسفية، وتنشطر ذات الراوي، بين طموحها (الفردي والجمعي) وواقع حالها. "تمضي سنوات العمر، وينساب الزمن، ويفلت من بين أصابعي، وأقول لنفسي: الكل في مصر سائر إلى الخلود، وأسرة الحكام في الشرق كلها ملوك، ومنذ حرب فلسطين، والحروب لها في ذاتي ذكريات مضحكة" [26] .

كذلك فقد لاشتغال الراوي بالتاريخ (معلماً) -بوصفه حركة زمنية- أثر في توليد ذلك الانشطار بين مكونات حضارية عدة، بدء بذاته التي يسهم في تشكيل وعيها وهويتها أكثر من مكون حضاري تعاقبت على مصر. ""أنا قطعة حجرية من مدينتي عليها نقوش فرعونية وقبطية وإسلامية" [27] . ومروراً بنزعة الاستعمار التي تعكس الهيمنة الحضارية وتشويه التاريخ الذي ينتمي إليه الراوي، وإن كان يحاول العيش خارجه. "التاريخ أصبح يباع في الأسواق وله مزادات منذ عرفت أوروبا استعمار الشعوب، الأهرامات تباع، والمومياءات يتم دفنها بعد تجريدها من الحلي، والقصور تحولت إلى بوتيكات" [28] . وانتهاء بالحاضر الذي ينشطر فيه التاريخ في ظل الصراعات الحضارية، على نحو ما يجري في فلسطين، التي هي جزء من المكون الحضاري للراوي. "تاريخ البشرية ضائع بين المكتبات وأساطير والأقاويل وعقول العامة. التوراة. فلسطين. اليهود. العرب"[29] .

لقد كان انشطار الذات في الرواية ناتج عن اختلاف المنطق الحضاري، بين ثقافة شرقية ذات طابع خيالي، وثقافة أوروبية ذات طابع عقلاني، وبالرغم من محاولة الراوي تجاوز ذلك إلا أنه يفشل في الانعتاق من ذلك المكون. "أنام وأصحو وآكل وأنعس وحلم الكنانة، في يقظتي ومنامي، هتاف وأناشيد، وأشحذ نفسي وهمتي، وأسير في الحواري والطرقات، أحلم.. ومن أصابها بسوء قصمه الله" [30] . بل إن الراوي يلح على ذلك المكون الثقافي الروحاني الحالم في ثقافة الشرق، ضمن جدل الثنائيات المتقابلة (عقلاني/ خيالي)، ليعزو إليه الإخفاقات الحضارية للعرب في العصر الحديث، إذ لم يعد ذلك المنطق ناجعاً في مواجهة الحياة المعاصرة. "كلما صمت شهريار، هب شهريار جديد، شهريار العصر وريث ألف ليلة وليلة، يختلق الحكايات، ويروي كل ليلة حكاية، حيث يفتن القوم بالبطولات والفتوحات والفحولة الوهمية"[31] .

إن عجز الراوي عن تحقيق قناعاته وانكسار طموحات الشباب والنضال، قاده إلى اختيار منفاه الخاص، أملاً في الوصول إلى حالة الامتلاء، لكنه لا يجد سوى معين الذكريات والأحلام، يغترف منها مرارة الإخفاق، وبين الطموح والواقع يتولد الانشطار. "عندما أرى نفسي منطلقاً بدبابة أو ممسكاً بمدفع صغير، أقول لنفسي هذه أحلام يقظة، ولا ضرر من الأحلام، فالشعوب العربية تعشق الأحلام وأنا واحد منها" [32] .

2- الثنائيات المتقابلة:

وإذا كان الانشطار ناتج عن قلق الانتماء بين ثنائيتين، فقد كان حضور الثنائيات واضحاً في الرواية، وفق زاوية الرؤية التي يقدم من خلالها الراوي العالم المحيط به. ويمكن ملاحظة ذلك في هوية الشخصيات، من خلال صديقه التركي الذي تتجاذبه سمات حضارية متقابلة بين شرق وغرب. "في دمائه شهوات القبائل التركية الجبلية –كما روى لي- وفي عقله لمحات من البرود الأوربي، وفي خياله شرود من الشرق الملتهب" [33]. إضافة إلى اللغة بوصفها هوية ثقافية تحدد موقف طرفي التواصل، بصرف النظر عن تطابقها مع الهوية الحقيقة للمتحدث بها. "سمر الوجوه دائما زنوج أو هنود أو أفارقة، وجميعهم لغتهم الإنجليزية، أما أنا فهذه المرة أتحدث بالألمانية" [34] .

وكذلك يحضر التقابل في وعي الإنسان بهوية المكان، وانتمائه الحضاري، من خلال الماضي (الأندلس) والحاضر (أسبانيا). "روائع العمارة الإسلامية أمام أعيننا ويمنعنا من التصوير، قلت له: هذه كنيسة. قال غاضباً: كلا هذا جامع أشبيلية" [35] . كما يعكس المقهى في الرواية مكاناً أثيرا يتيح للراوي تأمل الحياة، بوصفه موقعاً سكونياً مقابلاً لإيقاع الحياة الصاخب في الخارج.

لعل أوضح تجليات الانشطار تتجلى في استحضار المشاهد والأماكن من ماضي الراوي وذكرياته، ضمن السياق الحضاري الجديد الذي انتقل إليه، بحيث تتقابل تلك المشاهد في وعي الراوي. "أرى جبل الثلج وهو يلمع في الضياء، وأحدق فيه، ويبدو مصقولا كالمرآة، وأرى القاهرة المزدحمة بطرقاتها الضيقة، والمآذن عالية، بينما صوت الأذان يدوي في داخلي" [36] . وكذلك التقابل بين أشكال الحياة وسلوك الناس اليومي، وانسحاق الكرامة وسوء الخدمات، من خلال استحضار نظام المواصلات في مصر في سياق إعجابه بتلك الوسيلة في المانيا ضمن الفقرة نفسها، في مفارقة صارخة بين الحالتين. "القطارات في مصر أسواق متحركة لنقل الآدميين، والمنقولات والحيوانات ...تضايقت لأن مصلحة السكة الحديدة الألمانية لا تهتم بتسلية المسافرين" [37] .

كما يتجلى ذلك التقابل في سياق علاقاته الغرامية بين المرأة الغربية (ميلي-دوريت-ديانا) والمصرية (عنايات-قرقر-سعاد)، حيث يستدعي الحديث عن المرأة الأوربية في تجربته الجديدة استعادة ذكرياته الغرامية بطريقة تقتحم عليه سياق المشهد. "تخرج الكلمات من بين شفتيها واضحة وتبتسم، ودوريت أيضاً مثل عنايات ذات قامة ممشوقة، ولها شعر طويل" [38] . ولعل الملاحظ أن هذه الرواية ترسخ الصورة النمطية، المستندة إلى مبدأ التقابل، لعلاقة الرجل الشرقي مع الحضارة الغربية (الآخر) من خلال المرأة، وهي صورة لازمت الرواية العربية منذ بدايات، على نحو ما نجد في (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم، و(الحي اللاتيني) لسهيل إدريس، و(موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح.

وتتجلى أوضح صور ذلك التقابل في وجود المفارقة بين ظاهر الشخصية وباطنها، في ظل رحلة البحث الدائمة عن الاستقرار، بمعنييه المادي والمعنوي. "راحل أبداً على الرغم من خوفي من السفر، أجلس إلى مقعدي دوماً، وأرحل، وذهني مشغول بأوهام وترهات" [39] . وكذلك المقابلة بين ثنائيتي الازدهار الحضاري المرتبط بالتحولات المناخية، بين القارتين الأوروبية والأفريقية، في صورة من صور المفارقة. "وعندما يذوب الجليد في أوروبا، يكف هطول الأمطار في أفريقيا، وتشح المياه... وعاد الإنسان اليوم فقيراً في أفريقيا" [40] .

3- الاغتراب والوحدة والرفض:

ليس غريباً أن يكون شعور الاغتراب والحزن واضحاً في الرواية، بعد أن انكسرت أحلام الراوي الشخصية، فأصبحت المقارنة منظوراً غالباً في الرواية، يجعله منشطراً بين ثنائيات متقابلة، في ظل ثقافة جديدة تقوم على الفردانية وتقدس العقل. "وحتى آنس إلى الطرقات ووجوه البشر في هذه المدينة، ولتكن هذه المقهى مقهاي المفضل حتى أمزق أستار الغربة والوهم" [41] . فضلاً عن واقع جمعي مهدد بالزوال والانقراض الحضاري، مثلما انقرضت شعوب (البشمان)، في ظل حالة الاستلاب الحضاري العربي، والهزائم والإخفاقات في مواجهة العدو الصهيوني. "قلبي تملؤه الغمة، وأعصابي محترقة، وذهني مكدود، فالبحر ليس بملآن./ قلق أبداً؟!" [42] .

لقد تجاوزت الراوي بمشاعر الوحدة والاغتراب بعدها النفسي إلى شكل مادي يجعله يعيش حالة من الفراغ، وعدم الامتلاء المستمرة، ويتجلى ذلك من خلال تفسيره للصوت المحيط به في كل مكان. "طنين دائم./

الطبيب يقول لي: إن هناك ثقباً في طبلة الأذن، أما أن فلي رأي آخر، فهذا صوت أربعين عاماً مضت يصرخ في داخلي" [43] . كما يتجلى قلق الراوي من خلال بعض العبارات الفلسفية التي يسبر من خلالها وجوده الحضاري في مصر. "إنني سائر واحد، والكل سائر إلى خلود، وكتاب الموتى باق إلى الأبد، ونفسي حزينة حتى الموت" [44] .

ليست مشاعر الوحدة وحالة الاغتراب التي يعيشها الراوي إلا نتيجة حتمية لمواقفه الرافضة للخراب الذي يعم الحياة من حوله، وعدم قدرته على خلق اتساق بين قناعاته ومتغيرات الواقع، أي بين الذات والعالم الموضوعي. بخلاف صديقه الذي تكيف مع الحياة وتخلى عن القناعات. "أقول لنفسي: يا لضيعة التعليم. ويقول لي: هذه حكمة الأيام...كلمة (لا) مكلفة، وتتطلب عناداً، وساقية الحياة متوحشة لا ترحم" [45] . لذلك فقد كان تكرار أدارة النفي مرات عدة في الرواية، واستعادها الراوي كذلك في منتصف الرواية، لتنتهي الرواية برفض صريح للحياة وفق ذلك النمط.

ثالثاً: البنية السردية ومبدأ التشظي:

تنتمي هذه الرواية -وفق تصنيف روايات الحساسية الجديدة- إلى التيار الداخلي، الذي يقوم على الرؤية الداخلية الممتزجة بالشعور والموقف الذاتي والنجوى، والحبكة الهشة، ومنطق الزمن الحر الذي يشبه زمن الأحلام، وامتزاج الوقائع زماناً ومكاناً، واستبدال المكان الداخلي بالمكان الخارجي المخطط، وشيوع الجيشان والتعقّد والتمزق، في سياق الرؤية واللغة، بحيث تسقط الحدود بين الداخل والخارج، والظاهر والباطن، والصحو والحلم، وبين الواقعة والخاطرة والشيء والحس [46] .

لقد كان العنصر الغنائي (الداخلي) حاضرا في الرواية العربية في مراحلها المختلفة، لكن حضورها في الحقبة المعاصرة، ضمن السردية الغنائية، لا يهدف إلى التعبير عن هموم الذات، أو موقفها من العالم (الرؤية الذاتية) على نحو ما كان، في ظل حيرتها من صياغة موقف متوازن لمعادلة (الذات والآخر)، بل يـجسد تعادلاً بين الذات والموضوع، ومحاولة لإمساك الذات بأسباب الأزمة [47] . وهذا النوع من الروايات حين يصور العالم في صورة مفككة فإنه لا يهدف إلى تجسيد قيمة العبث بقدر ما يسعى إلى إدانة الواقع، من أجل الوصول إلى نقيض التفكك، المتمثل في الانسجام والتآلف.

على نحو ما كان الراوي منشطراً بين عالمين (ذاتي/ موضوعي- شرقي/غربي- ماضي/ حاضر)، في رحلة بحثه عن ذاته، التي فقدها نتيجة إخفاقاته الشخصية والجمعية، وفي ظل عالم يفتقد إلى الانسجام والمنطق، فقد كانت بنية السرد في الرواية قائمه على مبدأ التشظي، الذي تغيب فيه الحبكة ويتخلخل فيها الزمن والحركة. فالحبكة التقليدية تقوم على الترابط والتسلسل والتراكم الذي ينعكس بدرجة أوضح في (الحدث)، وبانتفاء الحبكة يغيب منطق السببية والترابط عن (الأحداث)، ويهيمن على السرد التداخل والتكرار والتجاور والتزامن والتأمل والاسترسال، ويكثر سرد المشاهد ووالوصف، وغيرها من مظاهر الانحراف السردي، المؤدية إلى التشظي.

1-الحبكة السردية ومنطق التزامن:

تمثل الحبكة مبدأ تنظيمياً يحكم حركة السرد، وينسق ترتيب الوقائع ضمن إطار حدث محوري. وفي ظل طبيعة هذه الرواية وانتمائها الفني، لا نكاد نعثر على حدث رئيس ينتظم فيه خط السرد ويتحقق من خلاله تسلسل الوقائع، وفق علاقة سببية. فطبيعة الرؤية الداخلية –عموماً- تجعل الذات بمواجهة العالم الخارجي، وتقدم وقائعه وأحداثه بصورة تجزيئية، تتشظى فيها تلك الأحداث بحسب حركتها في الداخل، وما تثيره فيه، دون أن تخضع لمنطق السببية والتعاقب المألوف.

إن طبيعة الحبكة في هذا النوع من الروايات "تنمو بما يشبه نمو الشبكة أو نسيج العنكبوت ولا تنمو بشكل عضوي إلى الأمام، خلال هذه الصياغة الشبكية لا نشعر بأننا نتقدم" [48] . ويمكن ملاحظة ذلك في الرواية من خلال انعدام وجود حدث محوري في الرواية، وتنقل الراوي بين زمن وآخر، وحدث وآخر، بل بين مجموعة أحداث في الصفحة الواحدة دون أن يكون بينها علاقة سببية، لكن ما يجمعها هو وحدة المصدر، من خلال وعي الراوي بها، وتأمله إياها، حتى إنه يمكن إعادة ترتيب فصول الرواية دون أن يحدث كبير خلل.

ففي الفصل الرابع مثلاً يمكن رصد حركة السرد فيه على النحو التالي:(الثلج في سويسرا-حواري مصر-الصيف في سويسرا- الشتاء في مصر وحاراتها - الطائرة ومضيفاتها - ذكرياته مع عنايات-المضيفات - الذهاب لمكتبة الفن- الطموحات السياسية- معزوفة سبيليوس-ضياع التاريخ- التجول في المتحف- كوابيس وأحلام- الإنجليزي في الحمامات الشعبية- التجول في المتحف- الدخول للمقهى-السير في المدينة-الشعوب المنقرضة- الجلوس في المقهى) [49] . على أن تلك الحركة تعتمد على تعاقب المشاهد أكثر من اعتمادها على تعاقب الأحداث، حيث يكثر تصوير المشاهد والتعبير عن التداعيات والأفكار، وهو ما يؤدي إلى بطء إيقاع السرد، حتى إنه ليقترب من حالة التوقف أو يبلغها أحياناً.

لا تقوم الرواية على تعاقب الأحدث، وما تولده من حركة سردية وتعاقب زمني، بقدر ما تقدم وصفاً للمشاهد والأحداث، ذلك أن موقع الرؤية يرصد تلك الأحداث ويمضي معها دون وجهة محددة. كما يقدمها ممتزجة بانطباعات الراوي عنها، وبما تستثيره من ذكرياته. "أقف في الطريق، أتنسم هبات طرية، وأرى الضوء بعيداً في قبة السماء بعد غياب الشمس، وأشم روائح الصيف، وترتسم على وجهي سعادة، فقد أوشك الشتاء على الإدبار. / الشتاء في مصر قارس البرودة أيضاً" [50] . ووفقاً لمبدأ الانشطار، تستدعي الحياة في أوروبا مقابلها في وعي الراوي عن حياته في مصر، محققة بذلك تزامناً يجعل الراوي مستغرقاً في التجربتين، القديمة والحديثة معاً. فتشظي الزمن يقوم على "إدراك تركيب الزمن بين العناصر الخارجية والتوتر الداخلي لشخصية تقع تحت ضغوط الزمن الحاضر وتعاني أسى ماضي انتهى بلا رجعة ولا تستطيع أن تبني مستقبلاً أو ترى ملامحاً له" [51] .

وتتأكد أهمية الوعي بالزمن في اعتماد الراوي على الفعل المضارع في سرده لتلك التداعيات والأحداث، على امتداد الرواية، في محاولة لتجميد الزمن ومقاومة جريانه وتسرب أحداثة من الذاكرة، وبالتالي تحقيق منطق التزامن، الذي هو نقيض للتعاقب، في محاولة لرأب الصدع بين طرفي حالة الانشـــطار. "أراني أقف في أرض خلاء أرى وجهي يتحول إلى قطعة عريضة من الحجارة، وتنمحي ملامحه، بينما ذراعاي يكونان علامة فوق اسمي المحفور بخط صغير، والزمن ينساب من حول"[52] .

ويمكن النمذجة على شيوع استعمال الفعل المضارع، لتأكيد منطق التزامن، الناتج عن السرد التذكري، برصد بدايات الفقرات في القسم الثالث من الرواية، حيث تبدأ في السواد الأعظم منها بالفعل المضارع مباشرة: (أدلف-يقفون- أرمي- نتجول- أغوص- ترقب- أرى- أسأل- أقول- أرتمي- أخلع- أتوقف- أقذف- أختفي- أدور- أتأمل- أعرف- أحتفي- أدعو- تأكل- أدعو- تسألني- يقول- دخلت- انتشرت- يعود- تسألني- تفقد- أقول- يقول- قضى...إلخ) [53] .

إن طبيعة الرؤية الداخلية جعلت من وعي الراوي عيناً آنية راصدة، في موقع مقابل للأحداث والمشاهد، حتى أصبحت أحداث الماضي والحاضر ضمن الزمن نفسه (تزامن)، فغدت أحداث طفولة الراوي مروية بالفعل المضارع أيضاً، فضلاً عن ذكريات الشباب وطموحاته. "أقف في البلكونة أنتظر قرقر حتى تخرج، لم تعد تنظر إليّ...أنظر إليها في حزن، تذهب إلى المستشفى وتعود وهي تسعل بشدة"[54] . ففي ظل حالة

الانشطار والتشظي الناتجة عن "مجتمع يفتقد التوازن كيف يمكن –أو هل يمكن- أن نعبر عنه بطريقة متماسكة تعتمد التتابع والتسلسل؟. وفي مجتمع مفكك مبعثر هل يمكن التعبير عنه بطريقة مترابطة؟" [55] .

2- التكرار والتداخل:

أدى غياب مبدأ التعاقب في الرواية، وموقع الراوي الراصد في ظل حالة من الانشطار، وانعدام التوازن عن العالم الذي تقدمه الرواية، إلى إبطاء حركة السرد. ويمكن ملاحظة ذلك في تكرار سرد بعض الأحداث والمشاهد. فالسرد التذكري غير منتظم، تتداخل فيه الأفكار والمشاهد والأحداث، وخصوصاً تلك التي تمثل محور ارتكاز دلالي في الرواية، مثل بداية الرواية التي تجسد حالة الرفض بتكرار (كلا)، رداً على أسئلة أربعة، في إشارة إلى رفض حالة الانتهاك التي وصلت إليها حياة الإنسان في الشرق، وعجز الراوي عن تحقيق حالة توازن معها.

فمشهد الكدح والمعاناة نفسه يستعيده الراوي، في واحدة من حالات استغراقه وتأمله لجمال الطبيعة في أوروبا، ليعيد طرح الأسئلة نفسها، من موقع آخر، وعلى نفسه هذه المرة، ضمن حالة الانشطار بين عالم مرغوب، فيه حميمية الحياة لكنه طارد، وآخر غريب تتجمد فيه دماء الحياة لكنه جاذب. "أسأل نفسي: هل رأيت (...) أقول: كلا، كلا، كلا. وأرقب قمة الجبل، وأخطو في تكاسل فوق الخضرة" [56] . ونتيجة لحالة الانشطار وما يستتبعها من تشظ للسرد، فقد كان تداخل المشاهد بين الماضي والحاضر، ضمن الفقرة نفسها.

كما نلحظ ورود جزء من مقطع النهاية خلال الرواية، فكما كانت استعادة البداية في سياق مختلف (شرقي/ غربي) (حوار خارجي/ حوار داخلي)، فقد كانت استعادة النهاية من موقع آخر، وفي حالة مختلفة (أجلس قلقاً)، بينما ورد مشهد الراوي قبل ذلك في مقهى أوربي في حال مغايرة. "أجلس هادئاً. أنفث الدخان دون أن أبلعه، وأرقب صفحة المياه والسائرين على الكوبري مسترخياً في مقعدي، ومذاق القهوة في فمي" [57] .

نجد التكرار وتداخل الأفكار أيضاً في عجز الراوي عن التخلص من مكوناته الثقافية والتربوية التي تتجذر في عقله الباطن، وتفرض نفسها عليها حتى وإن حاول مغالبتها، حيث انتماؤه الشرقي وثقافته التخييلية. "تسألني عن صياحي بالليل، أقول لها: هذه كوابيس ورثتها عن أبي، وهذه أحلام الشرق الملوث بالجنون تلاحقني" [58] . أما شهرزاد فتتكرر في الرواية بوصفها الحلم، الذي نسج للشرق خيالاته، سواء على المستوى الشخصي المتمثل في المرأة، أو الجمعي المتمثل في السلطة السياسية، في مقابل شهريار الذي شكل للحاضر العربي أوهاماً واهية. "شهرزاد توقفت عن الحكي، وتولى عنها عبد الناصر المهمة، وأخذ يزرع الخيالات في الصحاري" [59] .

كذلك يمكن ملاحظة التكرار في سرد لقائه بمعلمة التاريخ السويسرية أو مرة في أسباني، حيث تكمن أهمية ذلك الحدث في كونه البوابة التي عبر من خلالها إلى أوروبا، ليقف على ضفة حضارية أخرى. وفي ظل الإحساس بوطأة الزمن يستعيد الراوي ذلك اللقاء، "وجلست أتناول العشاء بعيداً عن الأصدقاء...وأتت إلى مائدتي وجلست، وكان منذ عشرين عاماً في أسبانيا" [60] .

من ذلك أيضاً تكرار الراوي الحديث عن إسرائيل، بوصفها سببا رئيساً في انكسار أحلام الراوي الجمعية، التي عاش عليها مراحل حياته السابقة، وفي توليد حالة التشظي وعدما الاستقرار الحضاري للعرب. ففي سياق الحديث عن الفتاة الأمريكية، ومنطق تفكيرها، بوصفها موقعاً حضارياً مقابلاً، يأتي الحديث عن إسرائيل، "ذات عقل بارد، والعقل البارد مقزز الملمس، وإسرائيل لم تذق طعم الهزيمة بعد، واليهود حيوانات جريحة خارجة من عصور قديمة، وذوو عقل بارد" [61] . فالحديث عن إسرائيل يحضر في مواضع عدة من الرواية،

بوصفها مكوناً حضارياً مقابلاً، لتتداخل مع كثير من الأفكار والمشاهد التي يعبر عنها الراوي، سواء في الشرق أو في الغرب.

3- الاسترسال والتداعي:

أدى قيام السرد على الرؤية الداخلية، وغياب مبدأ السببية إلى تشظي السرد في اتجاهات مختلفة، بحيث يكون الانتقال من مشهد أو حادثة إلى أخرى لمجرد وجود كلمة جانبية أو فكرة مرتبطة بالفكرة الأولى، في تداخل مستمر بين حاضر الشخصية وماضيها، حتى إنه يمكن القول إن كل مثير آني يستدعي من الذاكرة استجابة سردية. وهذه السمة غالبة على الرواية في جميع أجزائها، بحيث أصبحت حركة السرد بندولية مستمرة بين اتجاهين. فطبيعة الرواية الجديدة تقوم على "انتقالات متعمدة مقصودة، فمن تعليق إلى وصف إلى تذكر إلى تأملات متعالية إلى نمو استعاري شعري، ومن مكان إلى آخر، ومن شخصية إلى ثانية" [62].

في الفصـــل الثاني، مثلاً، يســـتدعي وجود الراوي في برلين حديثاً عن فتاة ألمانية التقاها أيام الجامعة، ووصـفا لسـاقيها الجميلتين، والحرب العالمية الثانية، ثم ذكرياته عن حرب 56م، وإصـابة سـاقيه بلين العظام في طفولته. "أعتقد أن دوريت في طفولتها لم تكن مصـــابة بلين العظام، فسـاقاها مفرودتان طويلتان" [63]. كما يستدعي الحديث عن الفتاة الألمانية ذكرياته القديمة (عنايات)، ليعود مرة أخرى للحديث عن اهتمام الفتاة الألمانية بالموسـيقى العربية والتركية، فيسـتدعي بدايات اهتمامه بالموسـيقى، لكنه فجأة يتنقل بين عدة أفكار يتداعى بعضها عن بعض، دون أن يكون للأول منها علاقة مباشرة بالأخير. "غرقت في الموسيقى والأحلام، والحكام هم ظل الآلهة على أرض الكنانة، والإنجليز هم سر البلاء، ومرحباً بالمستبد العادل" [64].

ثم حديثه –ضمن الفصل الثاني نفسه- عن المظاهرات، والجرائد المتسخة عند بائع الملوخية، بحيث يستدعي ذلك الحديث عن البصل وفوائده. ثم استدعاء الراوي أصدقاء الطفولة مع السينما، ووفاة ابنة الجيران. لكنه يعود مرة أخرى للحديث عن التحولات السياسية في الخمسينيات من الملكية إلى الثورة، فيروي حادثة الطالب الذي أخذ يصرخ في المدرج ضد الإمبريالية. لكن أن الراوي ما يلبث أن يعود للحديث عن الموسيقى، والحياة الاجتماعية قديماً، ثم هزيمة 67. "أنزع ورقة وأسقط حلماً، وأعبر الطرقات صارخاً، كيف حدث ذلك، لماذا؟! لماذا كل هذه العذابات يا ربي؟!" [65]. والملاحظ أن الراوي بعد كثير من حالات التأزم يعود إلى الماضي ويستعيد ذكريات الطفولة ، في تأكيد لمبدأ التشظي الذي قامت عليه الرواية.

إن السرد التذكري نمط تخييلي يقوم على الذاكرة مثله في ذلك مثل المونولج التذكري، ويقدمه راو بضمير المتكلم، لا يحترم التسلسل الزمني، فيُخْضِع ترتيب الأحداث لتداعيات الذاكرة، وتغيب الروابط الزمنية والسببية، لتحل محلها روابط أخرى مثل الرابط المضموني واللفظي [66]. ففي كثير من الأحيان يكون الانتقال بين الزمنين من خلال موقف أو كلمة، لا نكاد نستبين منه ذلك الانتقال إلا بعد تجاوزه ببضع جمل، وربما اعتمدت الرواية في تمييز ذلك من خلال الابتداء بفقرة جديدة. فالوقوف على البلكونة، مثلاً، يستدعي موقفاً جديداً مشابهاً مع الفتاة الأوروبية. "وقرقر فتاة حلوة تقف في البلكونة/ تزجرني بعينيها، وعندما تجدني واقفاً، ملتصقاً بالبلكونة، تصرخ في وجهي قائلة: اقفل البلكونة" [67]. فالسرد يقوم على التدفق والاستطراد والاغتراف من معين الذاكرة.

إن "قص الأفكار شكل ثالث من أشكال السرد بالإضافة إلى قص الأحداث وقص الأقوال" [68]. ومن خلال الرواية يمكن ملاحظة الانتقالات السردية بين الموضوعات والأزمنة، باعتماد الراوي على عبارة أو جملة، يفردها في بداية سطر جديد ليبدأ في السطر التالي استطراده في سرد موقف أو موضوع جديد. من ذلك ما نلاحظه في الفصل الأول، من كتابة كلمات وعبارات وجمل، منفردة في سطر مستقل، وكأنها عناوين

للفقرات، على النحو التالي: (هذه هي معجزة القاهرة القديمة- تشرق الشمس وتغيب- ها أنا في بازل- لن يفهم اليهود أحد غير العرب- المدينة فندق كبير- أراقب الشقراوات في نهم وصمت- ميزة العقل الأوربي بروده- وجاء اليوم الرهيب- عيناه مليئتان بالحماس- حدثني كثيراً عن إسرائيل والتاريخ- عنايات) [69] .

4- الشخصية والتبئير السردي:

تتمحور الرواية حول شخصية واحدة، تمثل مركز الرؤية والإدراك (التبئير)، وصوت السرد، فهي التي ترى وتتحدث في الوقت ذاته. ويسمى هذا النوع (التبئير الداخلي)، لأن البؤرة تقع داخل شخصية مشاركة في الرواية "تنتهي من خلالها المدركات والأفكار، ما تعلق منها بالشخصية ذاتها أو بغيرها من الشخصيات" [70]. وانطلاقاً من موقع الراوي، وطبيعة الرؤية الداخلية، وإدراكه للسلوك الحضاري للشخصيات، فإنه قد يتجاوز تقديم حياتها الآنية إلى سرد تنبؤي يستشرف مستقبل تلك الشخصيات. "هذا المقهى، / هذا الكوبري،/ هذ الطريق./ كل شيء وهم، أو حلم كبير متعدد الشخصيات، وهذا الرجل الريفي كث الشوارب غليظ الصوت عندما يموت، تلبس الفتاة السواد، وتظل عدة أسابيع تخدم الزبائن، ثم تذهب وتغيب، كما ذهب الرجل" [71] .

لا يقدم الراوي شخصيته في أي صورة خارجية، سواء من حيث الهيئة أو الملامح، إلا في مواضع قليلة جداً، يؤدي فيها ذلك الوصف دلالة انتساب حضاري، ومن ذلك طبيعة البشرة السمراء المميزة له عن اللون الأوروبي، ولغته التي تعكس هويته، بما يتناسب مع مبدأ الانشطار في الرواية. "أحسست أنني تخلصت من اللون الأسمر عندما تَحَدَّثَتْ إليَّ الفتاة بالألمانية، فسمر الوجوه دائماً زنوج أو هنود أو أفارقة، وجميعهم لغتهم الإنجليزية" [72] . ففي الرواية الجديدة "لا نجد وصفاً مستفيضاً للشخصيات، بل الإمساك بملمح، تفصيلة ما تلخص الشخصية بأكملها، وأحياناً، حياتها كلها"[73] .

انطلاقاً من مبدأ التشظي السردي فإن الشخصيات لا تتطور أو تنمو، فهي ليست هدفاً في حد ذاتها، وإنما هي أسماء أو رموز دلالية تمثل أدواراً حضارية، فالراوي لا يقدم عنها أكثراً من وصف يعكس بعداً حضارياً مغايراً، وفق مبدأ التقابل الغالب على الرواية. "فتاة من أهل الشمال، ذات دماء رومانية، فأنفها مفرود ومستقيم دون انحناء، بشرتها بيضاء ناعمة ومشربة بالحمرة، تتحدث إليَّ في صوت هادئ، وعندما تقف تقوم مرة واحدة" [74] .

في ظل موضوع الرواية المرتبط بالعلاقات الحضارية، وحالة الاستلاب التي يعيشها الراوي، تأتي المقارنة بين الهيئة الخارجية للشخصيات دالة بشكل واضح على طبيعة تلك العلاقة، وموقع كل واحد من طرفيها. "أرى نفسي، وأراها، وأرى قزميتي... وتبتسم، وتزداد قزميتي وأمتعض، وننطلق إلى المدينة، وأنا أتعلق بذراعها" [75] .

يؤكد عدم تعيين الشخصية (الراوي) باسم أو دلالة محددة، تمثيلها للدور والهوية الحضارية، لذلك فقد كان تعامل الآخرين معها من ذلك المنطلق، ففي أوروبا ليست تلك الشخصية إلا جنسية مصرية ومحتوى ثقافياً عربياً. "قال لي: لا تحزن يا مصري، الخيال سلاح الضعفاء، والطائرات، والبنوك، والمفاعلات الذرية في أيدي المطحونين أقوى من الجيوش" [76] . فالشخصية الرئيسة (الراوي) لا يظهر إلا بوصفه موقعاً للرؤية.

5- اللغة والوصف والحوار

انطلاقاً من طبيعة السرد القائم على رؤية ذاتية وتبئير داخلي، فقد كان استحضار قرائن الوجدان سمة غالبة في الرواية، ويمكن ملاحظة التمحور حول (أنا) الشخصية في اعتماد الراوي على ضمير المتكلم، والسرد التذكري الذي يمتاح من معين الذاكرة. وقد انعكس ذلك على طبيعة الرؤية، من خلال السرد التعبيري، وسرد المشاهد والحالات، والتأمل، في لغة روائية تحفل بقدر كبير من الشاعرية، سواء من خلال اللغة المكثفة أو الصور أو التساؤلات. فضلاً عن قصر الفقرات، والإكثار من استخدام واو العطف. "وعندما ذهبت عنايات كانت القاهرة مكللة بالسواد، وقد سقطت عنها ورقة التوت، وبان الخزي عليها، وقد تكللت الوجوه بالعار" .[77]

ويمكن ملاحظة السمات الشاعرية في اعتماد الراوي على الجمل القصيرة المتتابعة، والسرد التعبيري المقترن بالتصوير. "ويرتفع صدرها وهي تنفخ الهواء، فترتج أركان القاهرة، وتدوي فيها قهقهة هائلة مكتومة، تميد بي، وتنفجر ينابيع المياه، كما أغرقت أهل نوح في الزمن القديم، وأذهب إلى حي الحسين. أدفن نفسي في الحواري الضيقة خائفاً من الطوفان"[78] . وكذلك في سرد الأحلام والتخيلات الواقعة بين الحلم والحقيقة، في ظل تشظي الذات، حتى إن حضور كلمتي (الأحلام- الأوهام) تتكرر في كثير من صفحات الرواية مقترنة –خصوصاً- بمرحلة ما قبل الانكسار، بعد أن يعيد الراوي استرجاعها من موقعه الجديد. "أحلامهم وأوهام الجوعى. مغبروا الثياب، ذووا أجساد هزيلة، في الأزقة تلاحقني، فالحواري ممتدة بامتداد سماء الشرق، وعميقة عمق المحيطات، والأوهام بقدر الأفق الواسع، فالمدن كلها قذرة، والأتربة تلوث الأحلام أيضاً"[79] .

ليس غريباً أن تؤدي مشاعر العجز والقلق والانشطار، المهيمنة على الشخصية، إلى تداعي الأفكار وتداخلها في حالة تقترب من تيار الوعي الذي يقدم فيه الراوي عالمه الداخلي دون ترتيب، في محاولة إلى تعميق الشعور وتصوير الحالة النفسية، في لغة روائية تمتاز بالتوتر والإيحاء والرعب أحياناً، ومن خلال جمل قصيرة معطوفة. "وكان صباح، واشتد قلقي، وازدادت أوهامي رسوخاً، والبشمان رجال قصار القامة، صورهم ونقوشهم في كل جانب من الغرفة، قلبي تملؤه الغمة، وأعصابي محترقة، وذهني مكدود، فالبحر ليس بملآن"[80] .

كما نجد في بعض الفقرات تناصاً مع نصوص الكتب المقدسة، وهو ما يتناسب مع اللغة التجريدية ذات الدلالات الإيحائية، والإيقاع المنتظم، في ظل مبد الانشطار والتقابل. حيث نقرأ: "وكان صباح وكان مساء،/ وكنت فوق أرض أخرى./ وكان صباح وكان مساء، وكنت شاباً./ وكان صباح وكان مساء، وكنت عاشقاً./ كان وكنت شيخاً، وكنت أيضاً ميتاً"[81] . إضافة إلى وجود فقرات تجريدية صرفة يتجمد فيها السرد تماماً ليطغى عليها التأمل.

لقد أسهم تراجع السرد الحدثي –وفق طبيعة الرؤية الداخلية للرواية- إلى بروز الوصف في كثير من أجزاء الرواية، ففي "الرواية الجديدة يشكل الوصف نقطة توقف يظهر الراوي مأخوذاً بالشيء الذي يتأمله وضائعاً فيه: إمحاء الراوي أمام الشيء المنظور، تضخيم التفاصيل التافهة للوهلة الأولى، جردة بالتفاصيل، دقة، تكرار الوصف مع تعديل فيه، تشابه الوصف رغم اختلاف الموصوفات"[82] . كذلك فأن الوصف لا يهدف إلى تقديم وظيفة تفسيرية أو الإيهام بالواقعية في هذا النمط من الروايات بقدر ما يحاول تمثيل رؤية الذات وموقفها من الموصوفات.

يمكن القول إن الوصف في هذا الرواية جمالي يعبر عن موقع الراوي، واستجابته تجاه الموصوفات، في سياق حالة التأمل، الممتزجة بمشاعر الانشطار، بحيث يتوقف السرد تماماً، في بعض الأحيان. "الضباب

فضي اللون، والشجر مورق الخضرة، بينما قرص الشمس غائب، وتسقط الأشعة واهنة على الوادي، وأقول لنفسي: في البدء كانت مصر براري مقفرة"[83] . كذلك فإن موقع الراوي يخوله تقديم الحدث في قالب وصفي، أو لنقل وصفاً للحدث نفسه، حيث يكون إيقاع السرد بطيء جداً. "أسير مثقلاً بالأحزان، واضعاً ذراعي خلف ظهري، وقد شبكت يدي، متأملاً واجهات العرض والطرقات"[84] .

انطلاقاً من حالة الرفض والانكفاء على الداخل التي ظهرت عليها الشخصية، فقد أدى ذلك إلى ندرة الحوار الخارجي، في مقابل حضور طاغ للحوار الداخلي (المونولوج)، وهو ما ينسجم مع السرد الذاتي الذي قامت عليه الرواية، المعتمد على التذكر. لكن الملاحظة الأبرز أن الحوار الخارجي، بوصفه حالة تواصل إنساني طبعي، مرتبط بالمرحلة الأولى من حياة الشخصية (في مصر)، في حين يكاد أن ينعدم ذلك النوع من الحوار عندما تكون الشخصية في أوروبا. بل إن الحوار الخارجي لا يتجاوز سطرين أو ثلاثة عند وروده، وبكلمات محدودة جدة.

يمكن ملاحظة قرائن الحوار الداخلي في طغيان عبارة (أقول لنفسي- أسأل نفسي) التي تتكرر في الرواية حوالي عشرين مرة، لتقدم الرؤية الذاتية في مقابل الواقع الموضوعي، أو لتعكس انطباعات الراوي وتأملاته التجريدية، ضمن مبدأ الانشطار. "أقول لنفسي، تغربت في مدينتي، وقد سقطت القاهرة في داخلي، ولم تعد روحي تعرف الطرقات، ولا تحسن نبض الحوار، وأحلق فوقها من مكان بعيد كحلم من أحلامي بعد أن كنت أتشممها، وألمسها وأذوب فيها"[85] .

6- المكان بين البداية والنهاية:

لم يعد المكان في الرواية الجديدة تابعاً للحدث وديكوراً له، أو انعكاساً لعناصر أخرى في الرواية، مثل الشخصيات أو الزمن، بل أضحى تمثيلاً للحالة الإنسانية، "ورمز لحياة البشر، يجسد الغربة والملل والضيق" [86]، في معظم الروايات.

من البدهي أن يكون التأمل واحدة من سمات الراوي، انطلاقاً من طبيعة الرواية المعتمدة على الرؤية الداخلية في النظر إلى العالم الخارجي، وإعادة تقييم الأحداث والأمور، وخصوصاً مع امتزاج الصوت السردي بالشخصية الرئيسة في الرواية، واستخدام ضمير المتكلم، فضلاً عن طبيعة الرواية التي تعالج موضوع العلاقة الحضارية بين الثقافات المختلفة.

لذلك فقد كان اختيار المقهى مكاناً أثيراً للراوي متناسباً مع الإحساس بالانشطار والانفصال عن الواقع، بوصف المقهى موقعاً سكونياً يمكن من خلاله مراقبة الحياة وتأمل أحوالها. ونظراً لأهمية موقع البداية فلم يكن غريباً أن تبتدئ الرواية من ذلك المكان، وأن يكون الرفض هو الدلالة المهيمنة في ذلك المقطع، بتكرار كلمة (كلا) سبع مرات. "في الظهيرة ترهقني أصوات المدينة، ويضيق صدري بالزحام، والناس يتدافعون بالمناكب على الأرصفة وفي المركبات، فأنفرد بنفسي في المقهى"[87] .

وفي المكان نفسه (المقهى) تنتهي الرواية، والراوي ما يزال مستغرقاً في تأملاته، وكأن الرحلة الممتدة بين البداية والنهاية مستمرة في حركة لولبية. "قال لي رجل عجوز في المقهى: هه، ماذا تقرأ، عصور ما قبل التاريخ؟!/ الحياة الحقيقية قبل الميلاد، وما نعيشه هو الحلم، وما هي إلا سنوات قلائل ونفيق من الحلم، ونعود إلى السيرة الأولى"[88] . فالنهاية ترسخ شعور الاغتراب، وزيف أحلام الامتلاء التي ما فتئ الإنسان يسعى وراءها.

على أن (المقهى) يمثل موقعاً تتمركز فيه الرؤية على امتداد صفحات الرواية، فالتشظي نتيجة لعدم القدرة على تحقيق الاتزان في العلاقة مع المحيط، وعليه تصبح الوحدة نتيجة طبيعة لذلك، ويصبح المقهى عالماً خاص للراوي، ومنفى اختيارياً في الشرق. "في الحسين أجلس إلى المقهى على الطريق، تحت باكية مهدمة، ونسمة طرية تهب من الحارة الضيقة الملتوية"[89] . أما في الغرب فإن اللجوء على يرتبط بدلالة معاكسة عما هي عليه في الشرق، حيث يصبح مكاناً للالتقاء الحضاري، والبحث عن العلاقات الإنسانية وتأمل الحياة، رغبة في التخلص من شعور الوحدة والاغتراب، "أجلس هادئاً أنفث الدخان دون أن أبلعه ...لتكن هذه المقهى مقهاي المفضلة حتى أمزق أستار الغربة والوهم"[90] . بل إن المقهى يتجاوز تأثيره الشخصي على الراوي إلى التأثير الحضاري الجمعي، حين يكون مرتبطاً بسبب في إحداث حالة التشظي من خلال المفارقة الدلالية للمكان. "مدينة وقع فيها اليهود وثيقة، ثم هاجروا وشنوا فيها حرباً، وفي بازل أجلس وحيداً في المقهى، أتأمل بحور الأحلام والصبا" [91] . والأمر نفسه ينطبق على المطعم، وإن كان حضوره قليل جداً مقارنة بالمقهى.

المراجع

[1] الماضي، د.شكري عزيز، أنماط الرواية العربية الجديدة، ط.د (الكويت: عالم المعرفة، 1429هـ/ 2008م) ص8-13
[2] الماضي، د.شكري عزيز، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص14- 16
[3] الخراط، إدوار ،الحساسية الجديدة: مقالات في الظاهرة القصصية، ط1(بيروت"دار الآداب، 1993م) ص11. تعرف الحساسية بأنها: "كيفية تلقي المؤثرات الخارجية والاستجابة لها" ص28. وقد رصد المؤلف خمس تيارات رئيسة وفق تلك الحساسية الجديدة هي: تيار التشيء، والتيار الداخلي، تيار استيحاء التراث، التيار الواقعي السحري، التيار الواقعي الجديد. انظر: ص15- 20
[4] بدوي، د.محمد، الرواية الجديدة في مصر: دراسة في التشكيل والأيديولوجيا، ط1 (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1413هـ/ 1993م) ص15
[5] يقطين، د.سعيد، أعمال ندوة الرواية العربية: ممكنات السرد، ج2 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، 2009م) ص140- 147
[6] جرييه، آلان روب، نحو رواية جديدة، تر: مصطفى إبراهيم مصطفى، ط.د (القاهرة: دار المعارف، ت.د) ص119- 126. وانظر كذلك: داود، محمد، الرواية الجديدة: بنيتها وتحولها، ط1 (الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع، 2013م) ص79- 109
[7] أشبهون، عبد الملك، الحساسية الجديدة في الرواية العربية: روايات إدوار الخراط نموذجاً، ط1 (الرباط: دار الأمان، 1431هـ/ 2010م) ص15
[8] خريس، أحمد، العوالم الميتا قصية في الرواية العربية، ط1 (بيروت: دار الفارابي، 2001م) ص83- 84
[9] برادة، محمد، أسئلة الرواية أسئلة النقد، ط1 (الدار البيضاء: شركة الرابطة، 1996م) ص28
[10] بوتور، ميشال، بحوث في الرواية الجديدة، تر:فريد أنطونيوس، ط1 (بيروت: دار عويدات، 1971م) ص7
[11] أشبهون، عبد الملك، الحساسية الجديدة في الرواية العربية، ص25- 26
[12] البحراوي، د.سيد، محتوى الشكل في الرواية العربية، ط.د (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1996م) ص9
[13] بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، ط1 (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1990م) ص17
[14] حافظ، د.صبري، أعمال ندوة الرواية العربية: ممكنات السرد، ج2 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، 2009م) ص156
[15] يقطين، د.سعيد، قضايا الرواية العربية الجديدة:الوجود والحدود، ط1 (القاهرة: دار رؤية، 2010م) ص132
[16] جرييه، آلان روب، نحو رواية جديدة، تر:مصطفى إبراهيم، ط.د (القاهرة: دار المعارف، ت.د) ص49
[17] إبراهيم، جميل عطية، والبحر ليس بملآن، ط.د (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1995م)
[18] روائي مصري، ينتمي إلى جيل الستينيات، من مؤسسي مجلة (غاليري 68)، يعمل في المجال الصحفي، سافر إلى سويسرا عام 1979م، وعمل بالصحافة العربية في جنيف. ركز في أعماله على الدور الاجتماعي للأدب، والعلاقة مع الآخر، حركات التطرف. صدرت له عدد من الروايات منها: النزول إلى البحر، ثلاثية 1952م، المسألة الهمجية، خزانة الكلام، شهرزاد تحت بحيرة جنيف.
[19] البحراوي، د.سيد، الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر: أجيال وملامح، ج1، ط.د (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2003م) ص157
[20] بلعابد، عبد الحق، عتبات: جيرار جينيت من النص إلى المناص، ط1 (الجزائر: منشورات الاختلاف، 1429هـ/ 2008م) ص71

[21] حليفي، شعيب، هوية العلامات: في العتبات وبناء التأويل، ط1 (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004م) ص16
[22] أشبهون، عبد الملك، العنوان في الرواية العربية، ط1 (دمشق: دار محاكاة، 2011م) ص82، 84
[23] الرواية، ص17 . "أعصابي محترقة، وذهني مكدود، فالبحر ليس بملآن./ قلق أبدا؟!" ص89
[24] الرواية، ص18. "حللت بمدن عديدة، ثم جمعت أوراقي وحملت جواز سفري ورحلت، وقد تَرَكَت الأشياء بصمتها على ذاتي" ص16. "كا امرأة لها مذاق، وكل وجه له نكهة، وكل مدينة لها رائحة" ص26
[25] الرواية، ص88 . "الحياة الحقيقية قبل الميلاد، وما نعيشه هو الحلم" ص91
[26] الرواية، ص32 . "تمضي السنوات، وأدرك، أنني لم أحرز شيئاً من المعرفة" ص64
[27] الرواية، ص15."قوة البلدان العربية يكمن في أنها تمتد من الصحارى الحارقة إلى المحيط الأطلسي" ص10
[28] الرواية، ص76. "أستاذة عصور ما قبل التاريخ تدور حولها في المتحف، شارحة لنا أسرار الصحراء"ص79
[29] الرواية، ص78. "فقد العرب أحلامهم بعد سنة 1967... كما فعلوا في دير ياسين سنة 1948" ص21
[30] الرواية، ص 26. "أحلام الشرق الملوثة بالجنون تلاحقني" ص15. " تمسك أوهام اليقظة بالتلابيب" ص67
[31] الرواية، ص90. " يسألونني عن ناصر، فأقول لهم شهريار يوزع الأحلام بعد أن تسكت شهرزاد" ص74
[32] الرواية، ص77. "ألتفت إلى الخلف، وأقلب في دفتر الأيام، فأجدني أحلم في صباي بارتداء جلابية" ص29
[33] الرواية، ص20. "ميزة العقل الأوربي بروده" ص18 . "حملت معي هواء الشرق الساخن" ص15
[34] الرواية، ص17. "لو تعلمت اللغة الفنلندية أو السويدية لكان لي شأن آخر" ص17
[35] الرواية،ص12. "العرب واليهود وجهان لعملة واحدة" ص16
[36] الرواية، ص46 "الثلج أيضاً أبيض كحقول القطن...وأسرح في حواري مصر القديمة" ص69
[37] الرواية، ص52 . "دوريت عاشت الحرب العالمية... واندفعا في الظلام ناحية المخبأ بجوار الجامع ص35
[38] الرواية، ص35."هؤلاء النسوة لسن بملح الأرض...فصواب كلماتهن، ودقة حساباتهن، تنفرني منهن"ص67
[39] الرواية، ص76 . "أظل في جلستي ما طاب لي الجلوس، أتأمل الكون، وأعيد ترتيبه وفق هواي" ص85
[40] الرواية، ص48 . "تتحاضن الظلمة مع الضياء... ينتصر أحدهما على الآخر، ويتولد ليل أو نهار" ص75
[41] الرواية، ص62. "عذابات وهمية وطواحين هواء" ص67. "أسير مثقلاً بالأحزان" ص86
[42] الرواية، ص89. "مدينة وقع فيها اليهود وثيقة، ثم هاجروا وشنوا حرباً، وفي بازل أجلس وحيداً" ص88
[43] الرواية، ص81 . "الفضاء الواسع له ضجة صامتة تضغط علي" ص46
[44] الرواية،ص6."الكل في مصر سائر إلى الخلود، وروحي تغوص بعيداً، وتعود إلي حزينة حتى الموت"ص53
[45] الرواية، ص75 . "نصاب. في حوزته ملايين الماركات، وفي جيبه عدة جوازات سفر" ص20
[46] الخراط، إدوار، الحساسية الجديدة، ص17- 18
[47] الماضي، د.شكري عزيز، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص39
[48] الماضي، د.شكري عزيز، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص41
[49] الرواية، ص69- 91

[50] الرواية، ص70. "أتأمل الناس وهي تأكل، أمر على المطاعم أرقب القوم وهم يجلسون إلى الموائد" ص49
[51] رشدي، د.أمينة، تشظي الزمن في الرواية الحديثة، ط.د (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1998م) ص166
[52] الرواية، ص48. "الزمن ينساب من بين أصابعي" ص76. يا لضيعة أوهام الصبا ويا لخسارة الأيام" ص34
[53] الرواية، ص45-55. كذلك نتابع: (تسألني-أقول-يذهب-يسقط-أرقبه-تقول-نتجول-ننطلق-تقبل-ترمق-تشدني-أعبر-أبحث-أجلس-أغير-تتحدث-تعلمت-تمضي-أقرأ-أتحدث-تقول-أحدثها-ترفل-أتأمل-تمسك)
[54] الرواية، ص27. "يعود زغلول إلى بيع القصب، أشتري عوداً منه وأمصه في البلكونة، وأرمي القشرة" ص55
[55] الماضي، د.شكري عزيز، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص41
[56] الرواية، ص47. " أخَذَتْ تسألني أسئلة كثيرة، وكلما سألتني عن شيء، قلت لها كلا، كلا، كلا" ص4
[57] الرواية، ص61. "أجلس قلقاً. أنفث الدخان دون أن أبلعه وأرقب صفحة الماء والسائرين...إلخ" ص91
[58] الرواية، ص53 . "تسألني عن سر صياحي (...) هذه أحلام الشرق الملوثة بالجنون تلاحقني" ص15
[59] الرواية، ص42 . "لم تعد في عصرنا شهرزاد تحكي الحكايات، لكن شهريار./ يا للتعاسة" ص70
[60] الرواية، ص83. "جلست بمفردي لتناول العشاء على مبعدة منهم وفجأة أقبلت ناحيتي وسألتني" ص13
[61] الرواية، ص36. "أطارد دبابة إسرائيلية بالقرب من الممر بالحجارة" ص77. كذلك: ص16، 21، 58، 68
[62] الماضي، د.شكري عزيز، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص42
[63] الرواية، ص35 . "وكنت في طفولتي مصاباً بلين العظام" ص35
[64] الرواية، ص36 . "لكنني آكل البصل لأنه يفتح شهيتي، فبدونه لا أزدرد الطعام" ص37
[65] الرواية، ص43. "أعود إلى طفولتي فأجدني أذهب أنا والصبية إلى دير الأنبا شنوده" ص43
[66] القاضي، د.محمد وآخرون، معجم السرديات، ط1 (تونس: دار محمد علي، 2010م) ص323- 324
[67] الرواية، ص43. "أغوص في داخلي، هذه هي جبال الثلج، وأرقب جبال المقطم العارية من الخضرة" ص46
[68] القاضي، د.محمد وآخرون، معجم السرديات، ص322
[69] الرواية، ص15- 22 . قبلها: (ومن له أذن فليسمع- كنت كسولاً حقيقة- المحيط- غرناطة- هؤلاء كفار)
[70] القاضي، د.محمد وآخرون، معجم السرديات، ص66
[71] الرواية، ص64. "قنبلة ذرية صغيرة تحرر هذه الحضارة من جمودها" ص20
[72] الرواية، ص17."الأعين المغولية، والأنف الأفطس، والشعر المجعد سمات التخلف" ص81
[73] رشدي، د.أمينة، تشظي الزمن في الرواية الحديثة، ص127
[74] الرواية، ص34."عيناها خضراوان، بشرتها ناصعة البياض" ص83
[75] الرواية، ص59. "قليلاً ما أتبين أنني قصير القامة، وأرقب فارعات القوام في شراهة" ص17
[76] الرواية، ص22. "والده تركي وأمه ألمانية، لكنه يحمل جنسية أمه دون أبيه، مسلم الديانة" ص21
[77] الرواية، ص26."الكريمة تذوب وتذوب في القهوة و تختفي، وحيوان الرنة يجري ويختفي بين الثلوج" ص81
[78] الرواية، ص72 . "تنبض القاهرة بأنفاس معطرة دافئة، وزخم الأحلام يطوف في رأسي" ص32

[79] الرواية، ص89 . "تمسك أوهام اليقظة بالتلابيب، وتحرق الأعصاب، وتتلف خلايا الكبد والدماغ" ص76 "الأحلام بسعة الأفق، والطرقات مليئة بالحجارة، والنفس عطشى، وعندما رأيت نفسي مرة في المنام" ص86

[80] الرواية، ص89. "الباطل أسود من الظلمة، والخوف جبال من الظلام، والفتاة باردة، والعناقيد شراك" ص66

[81] الرواية، ص87 . "في البدء كانت الظلمة على وجه الأرض، وكان روح الله يرفرف على وجه المياه" ص87

[82] زيتوني، د.لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط1 (بيروت: مكتبة لبنان، 2002م) ص172

[83] الرواية، ص44. "الثلج أيضاً أبيض كحقول القطن، ولكن لا زغب له، والجبال متراصة وممتدة" ص69

[84] الرواية، ص86 . "أجلس إلى نفسي. المقهى هادئ تماماً، بينما المطر في الصيف رذاذ يتساقط" ص59

[85] الرواية، ص25. "أقول لنفسي: في البدء كانت مصر براري مقفرة، وتحط الظلمة على البحيرات..." ص44

[86] رشدي، د.أمينة، تشظي الزمن في الرواية الحديثة، ص148

[87] الرواية، ص3 . "أخذت تسألني أسئلة كثيرة، وكلما سألتني عن شيء، قلت لها كلا، كلا، كلا" ص4

[88] الرواية، ص91. "مسترخياً في مقعدي، ومذاق القهوة في فمي" ص91

[89] الرواية، ص22. "فأنفرد بنفسي أدخن النرجيلة" ص46. كذلك: ص50،49، 65، 73،

[90] الرواية، ص59 . "مقهى واحد يفتح أبوابه حتى العاشرة" ص31. كذلك: ص17، 59، 84

[91] الرواية، ص88. "اجتمع شتات اليهود في كازينو المدينة" ص86."عقد فيه اليهود الأوائل اجتماعهم" ص15

السخرية الرفيعة في النصوص التفاعلية الرقمية
قراءة في الأدبيات الساخرة في الفيسبوك

د. هاجر مدقن[1]

[1] كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر.hadjermeda@gmail.com

الاستلام	٢٠١٦/٥/١٦	المراجعة	٢٠١٦/٨/٢٤	النشر	٢٠١٦/١٢/٣٠

ملخص:

التفاعلية الرقمية، النصوص الرقمية، التفاعل النصي الرقمي، تسميات، بل مصطلحات فرضها واقع التكنولوجيا الرقمية التي صارت مشاعا متداولا اكتسح ساحة التواصل على أصعدته المختلفة والمتنوعة، وصار آلة الإرسال والتلقي الاجتماعيين خاصة، فحققا وعيا شبه مشترك بأوجه من الواقع المعيش، والهم المشترك، لم يُفعِّل فعل الاحتجاج والاستنكار وربما التأييد والمسايرة فقط، بل أوجد لنفسه صيغ نصية قفزت على المعتاد؛ ليس في موضوعاتها بل في شكل توجيهها، والأهم منه شكل تلقيها.

وكان لفعل السخرية والسخرية السياسية- الاجتماعية حظ وافر طوَّع اللغة والصورة، ليصيرا نصا مرسلا، يُقرأ بوجهه الحقيقي القريب الذي خلقه الموقف الأول، ويُقرأ بل يُتلقّى من الفئة المقصودة بوجهه البعيد المُتأوَّل والمراد، الذي لن يتوقف في فعل تلقيه عند الفئة المقصودة وعيا وثقافة، بل سيعمل شيئا فشيئا على حشد فئات سيتسع وعيها ويتكيف مع هذا النوع من الخطابات الجديدة، وهو ما حققه موقع التواصل الاجتماعي (**الفيسبوك**)، فاستغل إلى حد بعيد سلطة النص وفاعلية الصورة في إعادة تشكيل الفعل الساخر إنتاجا وتلقيا، وطوَّعه ليتحول إلى **"سخرية رفيعة"** بعيدة التأثير بشكل ملموس وخطير لا يخطئه ملاحظ أو متتبع لواقع الفئات التواصلية الآن.

High Irony in interactive digital texts. A reading in Facebook Irony literatures

Dr. Hadjer Medakene[1]

[1] College of Arts and Languages, Kasdi Merbah university of ouargla, Algeria. hadjermeda@gmail.com

Received	16/5/2016	Revised	24/8/2016	Published	30/12/2016

Abstract:

Digital Interactivity, digital text, hypertext are all names rather terms imposed by the digital technology use that has become commonly known in communication at large. Accordingly, it has become the means of social transmission and reception. They could to a certain extent achieve a conscience in some features of the commonly lived reality and the common concern to outcome not only the protestation but the affinity as well to find a way itself with extraordinary textual forms not merely in its content but in its method of address and more importantly method of reception.

The irony namely the social-political irony has a significant part in shaping the language and the picture to become an addressed text to be read as sent as the first attitude and then to be received by the targeted population with interpretations and wanted meaning. The impact of this text would not stop at the targeted population but would move ahead to others to enlarge its conscience and culture to adapt with this new form of discourses and this is exactly what has been achieved by Facebook for instance that exploited the power of the text and the efficiency of picture in reshaping the irony act in its production and reception to turn it into a "quality irony" of a far deep influence remarkably and dangerously not to be unnoticed by the onlookers of the communication parts now.

● مدخل:

تعد السخرية خطابا ناقدا يختزن حمولات حجاجية مبنية على مناقضة الآراء والأفكار والوقائع والاحتجاج عليها، هذا الاحتجاج يتخذ صورا تعبيرية عدة تتيحها الوسائل والوسائط المستعملة في توصيله وإثارة ردود الأفعال؛ التي تستجيب - عادة- باستعمال السياق والصورة والشكل التواصلي نفسه.

إن الثقافة الإلكترونية بما أتاحته من وسائط تفاعليه وشبكات اجتماعية ، ومن بينها شبكة الفيسبوك Facebook، قد عززت ثقافة السخرية بألوانها المعرفية واللغوية واللهجية والثقافية على تنوعها، كما طرحت نمطا تعبيريا فرض باتساع تداوله بين مستعملي هذه الشبكة وغيرها واقعا لا يمكن تجاوزه أو التغاضي عنه.

وقد سجلت الأدبيات الساخرة؛ نكتا وأشعارا وأقولا حضورا متميزا غذى هذه الثقافة، إن لم تكن هي شريانها الحيوي الذي يبني بمكونيه (اللغة والصورة) صورة هذه النصوص على مستوى الإنتاج والتلقي. حيث هزت هذه الثنائية بشكل قوي مفهوم النص لا في حدوده المفاهيمية، ولا في نمطيات تشكله، بل تجاوزتها إلى مظاهر تلقيه وإعادة إنتاجه.

● السخرية ثقافةً:

لا تعتمد التواصلية بمختلف أشكالها وأنواعها ومضامينها على الفكرة تحديدا؛ بقدر ما تقع بكل ثقلها على الوسيط، ومفهوم الوسيط هنا يتخذ بعده الآلي الوسائلي، كما يظهر بعده الصيغي الذي يتلبس رداءً ثقافيا دارجا ومتداولا يعطي هذه التواصلية بعدها المأمول، وقد يطمح بها في جموح بعيد إلى أبعاد أخرى تتنامى داخل المحضن الثقافي للفكرة، وقد تفيض لتتكتل في وسائط وأفكار أخرى تتجاوز المدار الأول إلى مدارات أخرى.

يمكن لهذا الكلام أن يحاكي في شئ من الحقيقة والقرب المفهوم القريب والبعيد للسخرية، السخرية المتعددة، النابعة من عمق المعايشة، الرفض، الاستنكار، القبول، اللاموقف الذي يشكل موقفا بحد ذاته في تجليه الساخر، فـ"موريي" < يرى أن السخرية عامة وشاملة في الكون والحياة وفي النشاط الفني للإنسان؛ فكل ما يمزق الإنسان، وكل تناقضاته، ووعوده الصادقة غير الموفاة، ومثاليته المتضاربة مع سلوكه تكون مصدرا للسخرية: تكون سخرية تراجيدية عندما يتعذر إصلاح الأزمة، ودعابة عندما تكون العواقب قابلة للإصلاح أو الإهمال> [1] . إن هذا القول وإن كان خارجا من التعميم إلى التخصيص؛ تحديدا في الدور الفني للسخرية؛ إلا أنه يحمل معنى شموليا يعد الفن جزءا منه. وهذا الانتقال لا يفرزه دور السخرية وتمظهرها في حد ذاته، بقدر ما يعكسه المفهوم المضطرب لها كمفهوم مثلما عبَّر عنه " د. س. ميوك D.C.Mueke": < لأسباب مختلفة بقي مفهوم السخرية مفهوما غير مستقر؛ مطاط وغامض. فهو لا يعني اليوم ما كان يعنيه في القرون السالفة، ولا يعني نفس الشئ من بلد إلى بلد. وهو في الشارع غيره عند المؤرخ والناقد الأدبي. فيمكن أن يتفق ناقدان أدبيان اتفاقا كاملا في تقديرهما لعمل أدبي غير أن أحدهما قد يدعوه عملا ساخرا في حين يدعوه الثاني عملا "هجائيا"، أو حتى عملا "هزليا" أو"فكاهيا" أو"مفارقا" أو"حواريا" أو"غامضا" > . [2]

السخرية ثقافة وممارسة إنسانية تتبنى النقد قبولا ورفضا، تماهيا وانفصالا، رهبة ورغبة، قوة وضعفا. هي < خطاب نقدي يستهدف العيوب الاجتماعية والتجاوزات، وذلك بهدف تقويمها وإصلاحها وفق مرجعية قيمية متفق عليها اجتماعيا. ويستعمل هذا الخطاب الهزل والتهكم والفكاهة وغيرها؛ للسخرية من هدف معين يوجد خارج الخطاب >.[3]

ولأن السخرية هي موقف إزاء موقف، أو رأي في مقابل رأي آخر، ولأنها في أبسط حالاتها تشخيص وتصوير لوضع ما بشكل طريف ومضحك يحمل في أعطافه مرارة هذا الوضع وسلبيته - وربما غرابته إذا ما

تعرض لحالات يعتبر الاستغراب منها موقفا في حد ذاته- فإن النقد الساخر الذي تتشكل وفق إملاءاته يعدُّ الأكثر مرورا وتداولا وحشدا للآراء، وتوحيدا لها - غالبا- لمرونة طرائقه، وطرافة لغته حرفية كانت أو مصورة.

إن السخرية بوصفها معطى ثقافيا راسخا يعكس بشكل ما الوجه الإنساني للإنسان، جدارية لا تغيب عن أي مجتمع عبر التعاقب والتسلسل الزمنيين للشعوب، سجل ينحت بعمق تفاعل الفرد مع أناه ومع غيره، فيسخر من نفسه، ومن غيره، الغير المتمثل في الأفراد والمؤسسات، في الأشياء والأفكار، في كل ما يعاكس القناعات أو يتضارب معها أو يجاريها بسذاجة.

• السخرية في الفيسبوك:

السخرية بوصفها واقعا نقديا قائما، بل متغلغلا في النسيج النفسي والفكري للإنسان، اتخذت لها أشكالا ووسائل تمر عبرها؛ إن بالمواجهة أو المواربة والتواري، إن بالرسم و النقش و النحت أو بالكتابة أو التمثيل، إن بتصدُّر صفحات الكتب والمطويات واللوحات والجداريات والتمثيليات والأشعار والأخبار والأمثال والقصص، أو من وراء الشاشات؛ شاشات الحواسيب، الوسائط اللامباشرة، الحائلة بين الساخر والمسخور منه، عبر الغمز بالأزرار، كتابة ومحوا، رسما وتشكيلا، عبثا وجدا، تصويبا وتنكيلا. إنها تلك الوسائط < التي تدلك حواسنا وتساهم في تشكيل نظرتنا للعالم. فالنظام الجديد للحياة والتفكير وفهم الواقع يتكون بفعل التأثير الخفي للوسائط التكنولوجية الجديدة. كل أفعال الإنسان المعاصر كالتواصل والتفاعل والفهم والتفسير والنقد والسخرية تتم عبر هذه الوسائط التي تحدد الطريقة والوسائل والشروط التي تجعل هذه الأفعال ممكنة بشكل معين ومختلف عن أفعالنا بوسائل أخرى. رافق هذا التغيير في الوسائط تغير في ثقافة الرؤية Visual Culture، حيث وفرت هذه الوسائط الظروف الملائمة لتموقع جديد للذات كفاعل وموضوع للرؤية >.[4]

إن التغير في ثقافة الرؤية بفعل هذه الوسائط الجديدة وتأثيره على تموقع الذات فاعلا وموضوعا للرؤية عموما، ليعدُّ الواقع الأكثر إثارة للجدل في السنوات الأخيرة، بل إنه مناط كثير من التنظيرات والبحوث الحالية، التي تسعى بشتى المناهج إلى الإحاطة بأبعاد هذا الواقع وتشخيص تأثيراته على الأنماط السابقة تجديدا وتثبيتا، وربما استئصالا وخلقا لأنماط مستحدثة تعد من ضرورات هذا التغير كاللغة والصورة.

إن ما طرأ على اللغة والصورة بوصفهما ظاهر الفكرة وجسمها التعبيري الذي تتبدى فيه ويتواصل بها عبره، يتطلب منا وقوفا طويلا نتجاوز به التأمل إلى التشريح والبحث ليس فقط في خلفياته وبواعثه، بل في ديناميكيته الحجاجية التي تمضي به سريعا إلى الفئات التواصلية التي تحتك به في مواقع التواصل الاجتماعية، ومن أهمها الفيسبوك، فبقدر ما يتخير الساخر لفكرته من وسائل توصيلية تجعلها تستقر في ذهن متلقيها – كيفما كان هذا التلقي- بقدر ما تحمل الوسيلة ذاتها حجتها أو حججها في ذاتها، إن كان على مستوى اللغة أو الصورة أو اللغة والصورة معا. وهنا نقرأ منطلق هذه السخرية- وهدفها، وطبيعة صانعها وثقافته ومواقفه، لنستنتج تلقائيا طبيعة متلقيها، والذي سيتفرَّد أو يتعدد انطلاقا من أحادية أو مجموع الرسائل المضمنة.

• السخرية "الناقدة" في النصوص التفاعلية الرقمية بين اللغة والصورة:

يحقق الفعل التواصلي الرقمي في مواقع التواصل الاجتماعي - والتي يعد (الفيسبوك) من أقوى ممثليها، على الأقل على صعيد المجتمعات العربية – انتشارا واسعا وحراكا تفاعليا تأثيريا لم تشهده هذه المجتمعات من قبل، إن كان من حيث الحصول على الأخبار ومواكبة الأحداث ومزامنتها، أو من حيث تحقيق ردات فعل آنية مؤيدة ومعارضة.

إن الأفعال الناتجة عن شيوع هذه الأخبار والأحداث وطرح الآراء حولها، وإبداء المواقف المباشرة اتجاهها، إنما تكون عادة في الصورة نفسها التي يجئ عليها الفعل الأول المثير المحفّز؛ أي أن القول الكلامي ينتج قولا كلاميا، والصورة تنتج صورا، وهكذا. ويحدث أن يعمد قطاع من المتفاعلين أو التفاعليين الفيسبوكيين خاصة إلى ترجمة كل هذه الأقوال والسلوكات والصور وغيرها من المظاهر إلى ما يتناسب مع طبيعة تصورهم للموضوع والطريقة التي يجدون أنها تشكل استجابة حقيقية له، وهذه الاستجابة لا يسعى من خلالها إلى إرضاء نفسه فقط، بل وليحصد في كثير من الأحيان –والحال أنه في فضاء مفتوح يستقبل كل ما يلقى إليه- أكبر عدد من الاستجابات؛ أي ليحقق تفاعلا كاملا من متابعيه، أو ممن يشاركونه منشوراته وتعليقاته، وعموما انطباعاته وتصوراته؛ أي ما نستطيع أن نصطلح على تسميته بالجمهور.

لقد أتاح هذا الفضاء الرقمي التفاعلي شكلا من التفكير النقدي، خلقته مجموع المتغيرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية للمجتمعات. إن التفكير النقدي الحرّ الذي تتيحه حرية المكان، وخفاء المرسل، ومجهوليته، أو مساحة الحرية التي تتيحها طبيعة المجتمع وسلطاته وسياساته، كوَّن ما يسمى بـ: "الفعل الساخر"، أو "السخرية" التي جعلتها العوامل سابقة الذكر < نظيمة فكرية متناسقة ومستقرة الإيبستيم Episteme حسب تعبير فوك أو النموذج الفكري Paradigme حسب كوهن، تعكس العلاقات بين الخطابات والطرق الممكنة لتكون هذه الخطابات والمعرفة عموما في إطار شروط تاريخية معينة. قد تكون آلية تفكير ممكنة ومقبولة خلال فترة معينة من التاريخ، لكنها تصبح متجاوزة وغير مقبولة خلال فترة أخرى، وذلك تبعا للتحول في النموذج الفكري Paradigme Shift، وبالتالي في النظام الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للمجتمع >.[5]

واعتمادا على مقبولية هذه الآلية وهذا الخطاب في وقت إنشائه، يُتخذ لغة للنقد، وآلية توجيه فكري لما يخلقه من وعي نقدي سريع، وإن كنا نتحفظ على عبارة "الوعي النقدي"، < فالتكنولوجيا ليست محايدة، بل حمالة قيم وقادرة على تغيير السلوك الاجتماعي والفكري نحو تقبل أكبر القيم ما بعد حداثية كالتعدد في المعنى والقيم والحقيقة عبر ثقافة التشارك والتفاعل التلقائي مع أفكار الآخر والقبول بالرأي المخالف>.[6] تعكس فكرة "محمد مفضل" البعد الإيجابي المتوقع من العملية التواصلية الحرة القائمة على مخاطبة القناعات بمجموع قيم قد تحملها على التغيير (تغيير السلوك، تقبل القيم، التشارك، التفاعل، القبول بالرأي والرأي الآخر)، وهو أثر نلمسه في شرائح اجتماعية كبيرة، خاصة في المجتمعات التي نؤمن سلفا بضرورة استقرار هذه المنظومة القيمية ضمن ركائزها الاجتماعية، ونشهد هذا كثيرا في المجتمعات الواعية التي توجه نفسها وتحشد مواطنيها على اختلاف الفئات والطبقات تحت سقف فكرة واحدة ومبدأ مشترك، فتصفق للرأي والخطاب الإيجابي وتؤيده، كتأييد شعب الأرجنتين لموقف رئيسة البلاد من إسرائيل والقضية الفلسطينية، وقد تثور على الأفكار الإقصائية المتشددة كمواقف بعض السياسيين ورؤساء الأحزاب الأوربيين من قضية استقبال اللاجئين السوريين في دولهم، وغيرها من المواقف.

وكلما اتسعت هوة الاختلاف، ولاقت مواقف السياسيين والخطابات السياسية رفضا واستهجانا من الجماهير والنخب، إلا وتجسد هذا الموقف المضاد في صورة ساخرة تتخذ أشكال تعبيرية متعددة، تعكس أبعاد ثقافية وأخلاقية واجتماعية كثيرة، فالسخرية < خطاب نقدي يستهدف العيوب الاجتماعية والتجاوزات، وذلك بهدف تقويمها وإصلاحها وفق مرجعية قيمية متفق عليها اجتماعيا. ويستعمل هذا الخطاب الهزل والتهكم والفكاهة وغيرها؛ للسخرية من هدف معين يوجد خارج الخطاب >.[7] لكن هذه السخرية نفسها، وأمام مواجهتها للاختلاف الذي لا يمثل الوجه السلبي أو المرفوض، تمارس نوعا آخر من ردات الفعل، وهو < الإقصاء والنقد والتهميش للآخر المختلف، وهي بذلك منخرطة بطبيعتها الخطابية في علاقات سلطة تحدد صيغ تداولها وآليات إنتاجها >.[8] هذا الكلام الأخير يضعنا وجها لوجه، لا مع طبيعة المواقف الخالقة لخطاب

السخرية فحسب، بل أمام طبيعة الخطاب الساخر ذاته، نحن أمام أشكال عديدة للتعبير حيث< نلاحظ في السخرية السياسية الفكرية المكتوبة أو المرسومة الاكتفاء بمؤشرات قليلة أو غير ملحوظة؛ إذ يترك قدر من الحرية للخيال، فهي تستهدف قراء خاصين متلافية الرقيب، ... وتكمن قوتها في التعامل مع القيم العليا التي لا يستطيع المستهدف التنكر لها علنا >.[9] قول كهذا يفتح أشكال الخطابات الساخرة على مصراعيه، فهي بين لغة مكتوبة؛ وهنا تحضر الأنواع اللغوية الساخرة، بين فصيحة وعامية، وبين صور مرسومة يستحضر منشئ الخطاب فيها كل فنون الخيال والبديهة لتحويل ما هو ذهني متصور، وما هو لغوي منطوق، وما هو سلوك مرئي إلى صورة تختصر وتبين وترسل رسالة هي من القوة والبيان بحيث تخلق ردات فعل في مثل قوتها أو أكبر.

إن حديثنا عن السخرية في الخطابات المتنوعة يملي ضمنيا رصدا للقوالب والعناصر الحجاجية التي تعزز قوة هذه الخطابات ، وتمهد سبل تلقيها وتقبلها اقتناعا لا تشكيكا! قد يستفز أحدَهم نفي التشكيك هنا. لكن المعرفة بالحجاج وأصول تبنيه خطابيا، ترفض خاطر التشكيك أو الرفض إذا هي انحشدت في فكرة ما أمام فكرة أخرى، وسنرى في تحليلنا لأنواع الخطابات الساخرة لغة وصورة كيف يستثمر البعد الحجاجي؛ لا في الخطابات نفسها، بل في ملابساتها المقامية كذلك، باستثمار المواقف القبلية والآنية والبعدية لصناعة هذه الخطابات، اعتمادا على مجموعة من العلاقات، جعلناها ثلاثية في الموضوع، وهي:

- ❖ علاقة الساخر بالمسخور منه.
- ❖ علاقة الساخر بجمهوره.
- ❖ علاقة الجمهور بالمسخور منه.

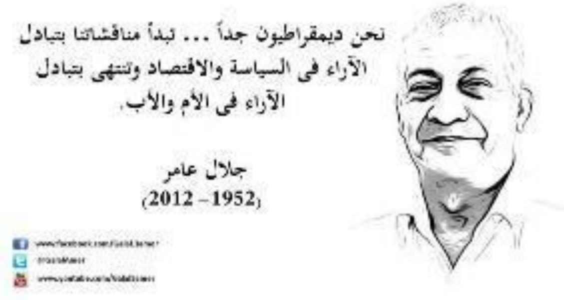
• <u>السخرية الرفيعة فى النكتة السياسية:</u>

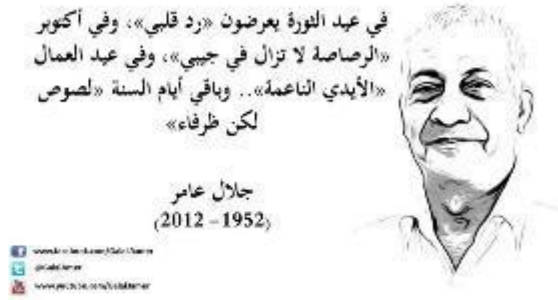
المتصفح للموقع الاجتماعي (الفيسبوك) يعثر وبشكل كثيف وواسع على صفحات لامتناهية تقوم أغلب موضوعاتها على السخرية السياسية، ويلاحظ بشكل جلي الحجم الكبير للمتفاعلين مع القضايا والأوضاع، ولاسيما بعد ثورات ما سمي بالربيع العربي، التي فتحت مجالا واسعا للنقد الحر والسخرية اللاذعة من الأحداث والسياسيين والشخصيات الاجتماعية وكل الشرائح بلا استثناء، بل شجعت بشكل صار مقصودا الآن على اختلاق أحداث ومواقف بغرض الشهرة وغيرها لجلب الانتباه وإشعال هذه التفاعلات، ولنقل ردات الفعل، بل المثير والذي نعده إيجابيا إلى مدى بعيد هو استثمار البعد الثقافي للمجتمعات والأفراد في تشجيع المتفاعلين على القراءة والبحث والمشاركة لكثير من الأقوال والمواقف الثقافية، الأدبية، السياسية، الإعلامية لتطويعها أو تحويرها لتوافق وضعا أو موقفا معينا، فلا يعرف المتلقي حينها وجه البراعة في الموقف إن كان في انتقاء الفعل الكلامي نفسه، أو في تطويعه وموضعته في موقف معين بذكاء < من الناحية الشكلية والجمالية تعتبر السخرية الرقمية مختلفة عن باقي أشكال السخرية من حيث أنها تستعمل الإمكانات الإلكترونية المتاحة، الأمر الذي أضاف للسخرية قوة تعبيرية وتأثيرية. تعتبر المابين وسائطية شرطا أساسيا لإنتاج الأثر الساخر حيث يبقى الترابط بين مختلف الوسائط هو المفعل الأساسي لبلاغة السخرية التي تعتمد على تجميع ذكي وهادف للصور والنصوص واستعمال تقنيات إلكترونية لصناعة المنشورات الساخرة >.[10] هذا الاستثمار في ذاته يعدُّ من صميم العملية الحجاجية للفعل اللغوي الساخر؛ < باعتبار السخرية ظاهرة للخطاب، ومن حيث إعادتها الأواصر مع قوة الكلمة في بعدها التواصلي، ونشدانها التأثير في مستمعيها والإقناع بطروحاتها، ومن ثمة يأتي التفكير في التوجه الإقناعي الساخر >.[11]

بعض المنشورات الفيسبوكية ذات البعد السياسي الساخر تبتعد في بناء لغتها وشكلها التواصلي عن التهجمات الساخرة الفجة، أو استعمال ما يدخل في باب السباب والإهانة والانتقاص، وذلك لأنها تتخذ طابع

النكتة أو الملحة؛ وهي ما أسماه "محمد العمري" بـ: **"السخرية الرفيعة"** وهي < **مسح بـ"الحرير" في الموقف نفسه الذي ينشب فيه الحيوان مخالبه، ويكشر عن أنيابه، أو يلوذ بالفرار** >.[12] هذا التعريف المكثف يلمح إلى نمط عتيد ومتزن من أنماط السخرية، لا يستطيع إتقانه إلا عارف بمقومات الفعل الساخر لغة ومضمونا وطريقة في الطرح، **"مسح بالحرير"**؛ عبارة فيها من الإغراق الدلالي الساخر ما فيها، نوع من الامتصاص أو الكظم الشديد لانفعال حارق وقوي وتحويله إلى فعل ابتسامة أو هدوء بارد على السحنة، سحنة الوجه أو اللغة. كم من ممارسي النقد السياسي والاجتماعي يتقن هذا المسح الناعم؟

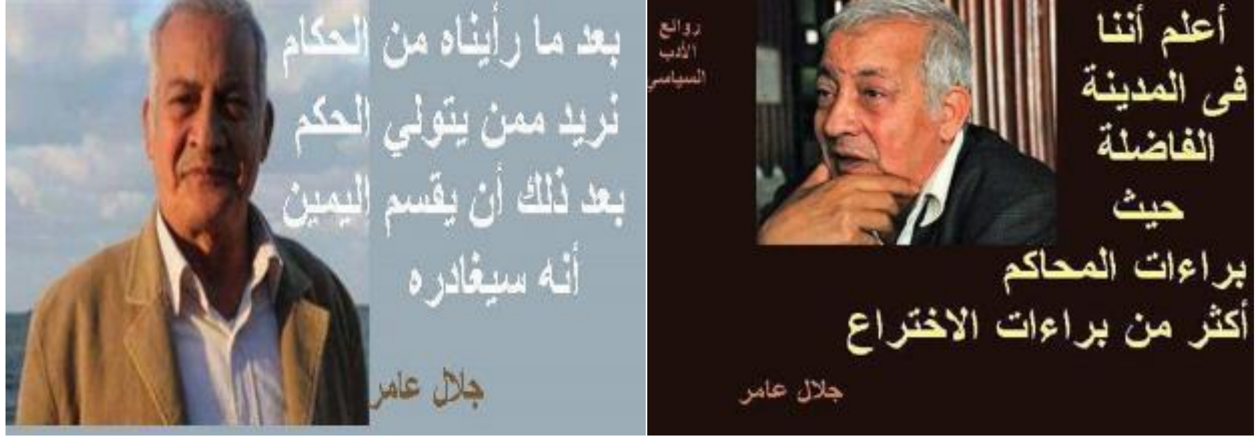
هناك أسماء كثيرة ومتنوعة لشخصيات أدبية وسياسية وفكرية وفنية تستحوذ على قطاع واسع ومساحة غير محدودة من المنشورات الفيسبوكية الساخرة، هذه المنشورات التي زاوجت في فعل ذكي ومختزل بين اللغة والصورة في التحام متكامل للمعنى، وغالبا لا تكون هذه الصور مختلقة أو مبدعة؛ إذ أغلبها صور فوتوغرافية أو كاريكاتورية أو بورتريه للشخصية صاحبة القول، في فعل احترام وتقدير ضمني للقول وصاحبه، لأنه يمسح بالحرير ويمتص بذكاء فورة الموقف وتأججه بكلمات حارة باردة بليغة الأثر بعيدته، تشفي غليل قارئها وترضي غاية مستعملها. من بين نماذج هذه السخرية الرفيعة، نكت وأقوال الساخر المصري الراحل "جلال عامر"، التي صنعت الحدث الفيسبوكي الساخر إبان ثورة الشباب وإسقاط نظام الحكم، وما بعدها وما قبلها كذلك، وهو في كثير من أقواله لم يحاكم بسخريته السياسة أو الطبقة السياسية وحدها، بل كان في كل أقواله يدمج هذا مع واقع العقلية الاجتماعية والفكرية للشعب ككل أو الشعوب العربية جميعا، على اعتبار أن المشترك الفكري والتفكيري بينها كبير:











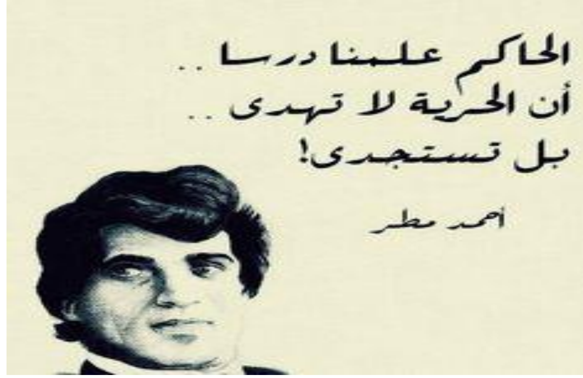
فالنكتة اللفظية <تكشف عن ذهول مؤقت في اللغة، لأنها تحاول تنظيم الأشياء وفقا لها، لا أن تنظم هي وفقًا للأسماء.[13] والرهان هنا لغوي، والسيطرة على المعنى تبدأ من تطويع اللغة وإثقالها بالحمولة الدلالية للقول؛ قول سلس مرن بعيد عن صخب الدافع وانفجاريته، فيستجيب المعنى للغة، وتتحقق إنجازيتها الساخرة بنعومة تخلصها من تشنجات الموقف الذي ولدت فيه، أو ما يتوقع أن تخلقه من مواقف وردات فعل.

كذلك هو الأمر بالنسبة لمقولات بعض الشعراء والأدباء الذين استثمروا حسهم الأدبي والوطني والاجتماعي في صياغة أشعار ومقولات ساخرة لا يصعب على متلقيها لمسه، لأن فيها إضافة إلى قوة البلاغة قوة حجاجية تستعصي على الرفض، على الأقل في البداية، لأن الأمر خاضع في الأخير لمعايير الإعجاب والتعليق والمشاركة، والتي على أساسها تتضح قوة المعنى، ومدى استيعابه، وطبيعة التفاعل معه، وإن كانت كثير من الاستجابات والتفاعلات التعليقية تخرج من المعنى العام للمقولات لتدخل في أزقة الخصوصيات العرقية والجغرافية والثقافية والدينية والسياسية، وغيرها.













ويزداد حجم المسؤولية الدلالية للغة الساخرة إذا كانت من لدن سياسي ساخر بطبعه؛ فالمقولة الآتية لأحد دهاة السياسيين الغربيين في العصر الحديث وهو "وينستون تشرشل"، تجعل المتلقي في حالة تركيز شديد خشية الانجراف وراء الخارجي الساخر وإغفال الداخلي المغرق في التركيز والمناورة السياسية الماكرة، التي صاغت فكرة سياسية معقدة في تفاصيل لعبة الغولف.



وبالتالي ردات الفعل والتعليقات المتفاعلة ستعكس بشكل واسع جدا درجة الاستيعاب إلى أبعد حدوده، كما تعكس عدم الاستيعاب والخروج عن المعنى المقصود، والدخول في معان أخرى وسياقات أخرى لا يقصدها صاحب المقولة ويتقصَّدها المعلق للخروج من أزمة التأويل، أو الاستجابة لمؤثر داخلي شاحن لا يجد مجالا لتفريغه إلا في هذه المتصفحات والفرص.

هذا النوع من اللغة الساخرة بمفارقاته المتنوعة < يعكس شكلا بلاغيا مضمرا لنية التحاج بصيغ متفاوتة الأثر، لانبنائها جميعا على عنصر المواراة، الشئ الذي يوحي بكون السخرية مسافة غير قابلة للتفاوض، ويدعو إلى التفكير بكيفية اشتغال البنية التواصلية الساخرة >.[14] وهي هنا قائمة على علاقة ثلاثية نفصلها في:

- **<u>علاقة الساخر بالمسخور منه:</u>**

< تمثل الذات الساخرة وضعا تلفظيا معقدا، لأنها من وجهة نظر أسلوبية شكل تلفظي فردي، فيما تنفي من منظور تعدد الأصوات فرضية إفراد موضوع التلفظ؛... إن الساخر وفق هذا الطرح مرآة تعدد الرؤى في ملفوظ واحد بأشكال تعبيرية مفارقة، إذ بإمكان الذات المتكلمة أن تكون غائبة عن ملفوظها أو مناقضة له، والملفوظ الساخر قد يخلو من علامات دالة عليها >.[15] هذا التناقض الذي تنبني عليه علاقة الذات الساخرة بطرحها، وقبلها بوضعها التلفظي (الفردية الأسلوبية) وانتفاء هذه الفردية أمام تعدد الأصوات، على اعتبار أن الساخر يعكس هذا التعدد أو الرؤى المتعددة المشتركة – وإن على نطاق معين- بأشكال تعبيرية مفارقة ومختلفة ومصطنعة، تخلق نقيضه (الغياب أو التناقض)؛ بغيابها عن خطابها الساخر، الذي ترسم طبيعته صيغة التواصلية الساخرة التي يرسلها، والتي قد تنطلق من:

- المألوف إلى المألوف.
- غير المألوف إلى المألوف.
- غير المتوقع إلى المتوقع ثم المألوف.
- غير المناسب إلى المناسب (بعد التطويع).

هذه المنطلقات والنتائج لا تحددها طبيعة الخطاب الساخر المتضمن خصائص المسخور منه فحسب، بل تحددها مدى قابلية هذه الصيغة للتصديق والتبني والتداول، ولعل < علاقة المسخور منه بالذات الساخرة، كعلاقة التعارض بين المعنى الظاهر والضمني، فالأول يحتويه الغموض، والثاني مبحر في عتمته، غائص في طلب جواهر المعاني >.[16] وبين المعنى الظاهر والضمني يولد المتلقون، ويصنفون، وهم بين: سذاجة موقوف فيها تفاعلهم وفهمهم على المعنى الظاهر، وبين التواطؤ الذي يهئ لهم كشف إحكام صنعة الكلام الساخر، وبذا اعتبرت السخرية مستبدة مستخفة Tyromique.[17]



في هذه الصورة مثلا، لا نتوقع فهما مباشرا ولا متساويا للمعنى من طرف المتلقين؛ لأن الساخر هنا بطن لغته وبناها على وجهين دلاليين؛ قريب غير مقصود وبعيد مقصود، في هجوم ثقيل ناعم على واقع المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية. وهذا الخطاب المركب هنا (النص والصورة) سيقسم بشكل مؤقت جمهور المتلقين، لكنه ينفذ بشكل عميق إلى هز صورة المسخور منه وتسخيف فعله.

- **علاقة الساخر بجمهوره:**

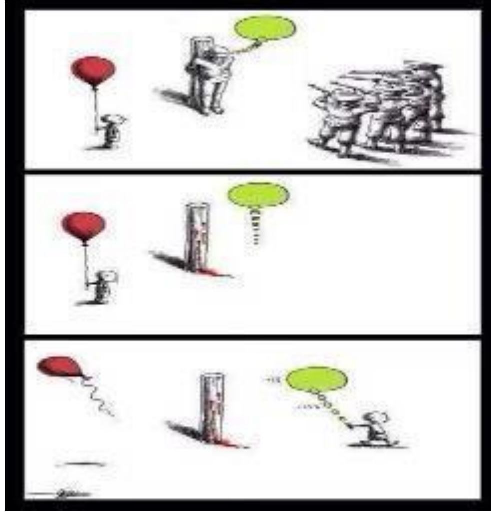
وهي علاقة تعاقدية، < لا تتحقق إلا باستحضار الساخر لصورة جمهوره، سواء أكان جمهورا فعليا أم متخيلا >.[18] وهو في صفحات الفيسبوك فعلي متخيل، يستحضره النص ليحوله التلقي خطابات متفاوتة القراءات والفهم والتجاوب، ويجمعه المشترك الموضوعي؛ وبصفة أدق الانطباع أو ردة الفعل، لأن هذا النوع من الخطابات الساخرة لا يكتسب جرأته وشيوعه وقوته الحجاجية الإقناعية إلا من الثقة في وجود قطاع واسع من الجمهور الذي يشاركه الثقافة والقيم الرمزية والمعتقدات، يوافقه على محتواه ويؤيده في فكرته، بل يكون هذا الخطاب الساخر أو السخرية الرفيعة هنا متنفسا لاذعا وسريع الوصول، بحيث يمكنه تحقيق نتيجة عملية على أرض الواقع.





يمكننا في هذه الحالة اعتبار هذه الخطابات الساخرة، أو خطابات السخرية الرفيعة "ثورة أيقونية" أو "حرب صور" [19] تجمع النص اللغوي إلى الصورة وقد تقزمه أو تحد مساحته لتجمع إليها تلابيب المعنى وتعتصرها في خطاب رمزي أو واقعي يختصر ما يمكن للغة أن تسترسل في سرده أو تبيينه.









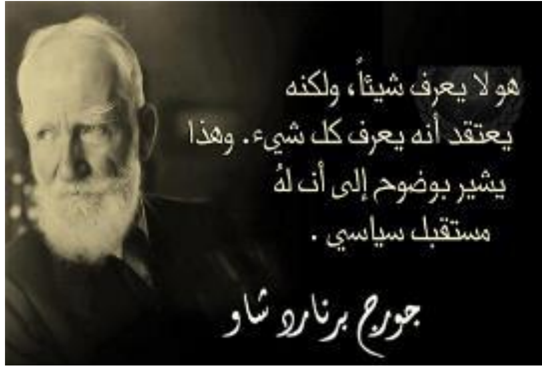
- **<u>علاقة الجمهور بالمسخور منه:</u>**

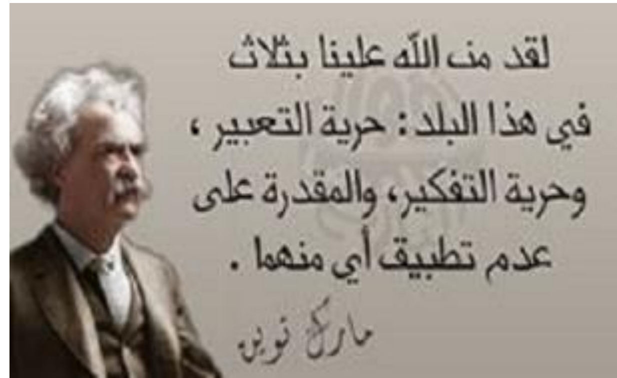
إن علاقة التواطؤ والاتفاق بين الجمهور والساخر تحدد المسافة بين هذا الجمهور والمسخور منه بالإبعاد والإقصاء والتهكم؛ < باعتباره حارس نمط آخر من القيم، مختلِف ومُنتَقَد من لدن الساخر وجمهوره>. [20] هذه الهجومية الضاحكة تعتبر تقنية بإبطال ردود الأفعال المحتملة من المسخور منه، كما تضعه في موقع محرج يبعث على الضحك من جهة، ويعفي الساخر والجمهور من تحمل تبعاته بإسناده إلى أطراف أخرى وأصوات مغيبة أو شاهدةعلى القول [21] .











هذه الصور والأقوال أمامنا، ماهي إلا شواهد على الاتفاق المضمر بين الساخر؛ موظفا لهذه النماذج على تنوع مراتبها ومستوياتها اللغوية والفكرية، وبين الجمهور؛ هذا الجمهور المهيأ مسبقا لهذا النوع من النماذج الساخرة، أو الذي عليه أن يتكيف معها ليفهم مقاصدها ويكون في صورة تحقق قيمتها الحجاجية. لاسيما وأن موضوعاتها من صميم واقع الجمهور المعيش، بل هي مصب نقمته، وبالتالي فالمسخور منه هنا، وكيفما كان اسمه أو وصفه، فردا، أو جماعة، فئة أو مؤسسة، يتوحد أمام الفعل الساخر الناقد الناقم للساخر والجمهور معا،

• الخاتمة:

إن فعل السخرية في وسيط إلكتروني تفاعلي كـ: الفيسبوك، قد أسس لواقع ثقافي - نقدي، ليس بالشكل النظري المتكامل أو القائم على ثوابت مدروسة ومتوارثة، بل بشكل شمولي متسارع؛ استطاع أن يختصر واقع المجتمعات بوقائعها وثقافاتها وطوارئها، بإيجابياتها وسلبياتها في ثنائيتي الكلمة والصورة، أداتين كافيتين لبناء المواقف وهدمها، لترسيخ القناعات وزحزحة غيرها، بل لزعزعة يقين فئات كاملة بقيم وموروثات مغرقة في التجذر.

هذه الثنائية المصنوعة تحتاج في مجال كهذا معرفة واسعة لا بثقافة النص والصورة، وليس بواقع الفئات المستهدفة ومجتمعاتها وظروفها فحسب، إنما أفقها مبني على صناعة فعل مستمر، يلامس الحاجة والأزمة وموضع الألم، لكنه وبيد ساحر يحاول أن يمتصه فلا تعدو ردات الفعل أن تتجاوز هذه الشاشات مشاركة وتعليقا وإعجابا، فتتحول النصوص المقتطعة من مساحاتها الأولى الضيقة، والصور المعروفة والمصنوعة إلى ثنائيات تشكل خطابات مسكوكة تتوحد أمامها دلالات كبرى مشتركة، قد تتجزأ هذه الدلالات إلى أخرى تتفاوت والمستويات الثقافية للمتلقين، فيتحقق بهذا ليس إعادة إنتاج النصوص فقط وتكييفها، بل تهيئة أنواع أخرى من المتلقين بمؤهلات جديدة تتماشى ومستقبل التواصل في شكله الجديد.

المراجع

[1] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، يناير 2005، ص: 98.
[2] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 84.
[3] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، دراسة ثقافية للخيال النثري، للقيم الثقافية ولفلسفة اليومي على الفيسبوك، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، د م ط، د ط، 2014، ص، ص: 17، 18.
[4] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، ص: 39.
[5] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، ص: 17.
[6] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، ص: 27.
[7] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية ، ص ص: 17، 18..
[8] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، 32.
[9] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 93.
[10] محمد مفضل، السخرية في الثقافة الرقمية، ص: 167.
[11] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، ص: 30.
[12] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 100.
[13] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 102.
[14] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 30.
[15] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة ، ص: 32.
[16] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 32.
[17] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 32.
[18] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 32.
[19] العادل خضر، في مرائي الصور مقالات في الصورة، دار سحر للنشر، تونس، دط، فيفري 2014.
[20] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 33.
[21] أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 33.

مفهوم المفارقة في حكايات كليلة ودمنة لابن المقفع

د. أسامة لطفي الشوربجي[1]

[1] مدرس الأدب العربي القديم كلية الآداب – جامعة قناة السويس، مصر

الاستلام	٢٠١٦/٥/١٩	المراجعة	٢٠١٦/٩/٢٦	النشر	٢٠١٦/١٢/٣٠

الملخص

يسعى هذا البحث إلى دراسة أبرز أنواع المفارقات في حكايات كليلة ودمنة ، فهو محاولة لقراءة نص أدبي قديم من خلال ملمح أسلوبي في ضوء النقد الحديث ، خاصة وأن المفارقة هي العنصر المهيمن على هذه الحكايات ، حيث نرى على صفحتها العالم الإنساني يبدو ساطعا بوضوح خلف عالم الحيوان ، فهي رغم ابتعادها ظاهريا عن الواقع الإنساني ، إلا أنها لصيقة الصلة به. المفارقة عند ابن المقفع ليست وليدة موقف عابر ، لكنها وليدة إحساس داخلي أو رؤية خاصة ، نظر من خلالها إلى الحياة بمنظار المفارقة ، التي ترى الحياة سلسلة من المفارقات والمتناقضات.

الخيط الفني الذي يربط كثيرا من حكايات كليلة ودمنة هي أن معظمها يعتمد على المتناقضات والثنائيات الضدية ، التي يصطدم بعضها ببعض ، وقد استخدم ابن المقفع المفارقة ليكشف تناقضات الحياة والواقع السياسي والاجتماعي في عصره.

Irony in the tales of Ibn al-Muqaffa's Kalila and Dimna

Dr. Osama Lutfy Elshorbagy[1]

[1] Assistant professor of Classical Arabic Literature - Faculty of Arts - Suez Canal University, Egypt

Received 19/5/2016 Revised 26/9/2016 Published 30/12/2016

Abstract

This research aims at studying the most prominent types of irony in the tales of "*Kalila and Dimna*". It is an attempt to understand an ancient literary text through a stylistic feature in light of modern criticism, especially that irony iswidely prevalent in these tales. Through the tales, we can see clearly the world of humans masked behind the world of animals. Although they seem to be set far from human reality, they are closely connected to it. Ibn al-Muqaffa'sirony was not born of a transient situation; it is a product of an inner feeling or a private vision through which he looked at life from the perspective of irony, seeing life as a series of paradoxes and contradictions.

The artistic thread connecting most of the tales of "*Kalila and Dimna*" is that they depend on irony and binary contradictions. Ibn al-Muqaffa used irony to reveal the contradictions of life, and the political and social reality of his time.

- **مقدمة:**

الحياة قائمة على مفارقات عديدة ، حيث تتجاور فيها المتناقضات ، وتجتمع فيها المتنافرات ، ويختلط بعضها ببعض ، ويتعايشان معا ، ويتصارعان أيضا ، والإنسان الفنان بذهنه المتوقد هو الذي يزيح الستار عن أعيننا ، لنرى الحياة بمنظار المفارقة.

يسعى هذا البحث إلى دراسة أبرز أنواع المفارقات في حكايات كليلة ودمنة ، فهو محاولة لقراءة نص أدبي قديم من خلال ملمح أسلوبي في ضوء النقد الحديث ، خاصة وأن المفارقة هي العنصر المهيمن على هذه الحكايات ، حيث نرى على صفحتها العالم الإنساني يبدو ساطعا بوضوح خلف عالم الحيوان ، فهي رغم ابتعادها ظاهريا عن الواقع الإنساني ، إلا أنها لصيقة الصلة به.

وقد نالت دراسة المفارقة اهتماما كبيرا من النقاد والدارسين في العصر الحديث ، ومن أهم هذه الدراسات دراسة د. سيزا قاسم بعنوان " المفارقة في القص العربي المعاصر " ، ودراسة د. نبيلة إبراهيم " المفارقة : والدراستان منشورتان بمجلة فصول ، ودراسة د. سي. ميويك " المفارقة وصفاتها " ضمن موسوعة المصطلح النقدي ، ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة.

- **مفهوم المفارقة :**

المفارقة مصطلح نقدي حديث انتقل إلى اللغة العربية عن طريق الترجمة ، وهو ترجمة للمصطلح الغربي Irony ، ويلحظ الباحث اضطرابا وإشكالية في ترجمة المصطلح إلى العربية ، حيث تمت ترجمته أحيانا بالسخرية وأحيانا أخرى بالمفارقة ، وهي أكثر الترجمات شيوعا [1]

وربما كان من أسباب هذا الاضطراب والبلبلة في الترجمة أن النقد العربي القديم لم يعرف هذا المصطلح ، وهذا ما يؤكده د. محمد العبد في قوله " ولم أجد فيما وقع بين يدي من مصادر عربية قديمة لغوية وبلاغية من ذكر مصطلح المفارقة"[2]

ولا يعني عدم معرفة المصطلح في التراث البلاغي أن الأدب العربي القديم يخلو من المفارقة ، فالمفارقة هي جوهر الأدب – كما يقول ميويك-[3] ، وقد مارس المبدعون العرب المفارقة دون وعي منهم بالمصطلح ، وهناك مصطلحات في البلاغة العربية القديمة تتداخل وتتماس مع المفارقة مثل : السخرية ، والاستهزاء ، والتهكم ، والمدح بما يشبه الذم ، والذم بما يشبه المدح ، وقد ذكر بعض الباحثين نماذج من التراث الأدبي تتحقق فيها المفارقة بصورة بارزة [4]

وقد بدأ وعي الإنسان بالمفارقة منذ قصة الخلق ، وقبل أن يوجد مصطلح المفارقة ، وقد تجسد ذلك في قصة آدم وحواء ، حين وسوس إليهما الشيطان ، فأكلا من الثمرة المحرمة ، عندئذ أدركا المفارقة – دون وعي بالمصطلح - أو امتزاج القبح والجمال والخير والشر في الشيء الواحد [5]

نشأ مصطلح المفارقة في الثقافة الغربية في أحضان الفلسفة ، وقد وردت كلمة " آيرونيئيا " eironeia لأول مرة في كتاب أفلاطون ، حيث يشير إلى أن سقراط كان يطلقها على أحد ضحاياه ، وكانت تعني طريقة ناعمة هادئة في خداع الآخرين ، حيث كان يتظاهر بأنه يريد أن يتعلم من محدثه أو محاوره ، الذي لا يتركه إلا بعد أن يشعره بجهله ووصوله إلى مرحلة فقدان الثقة وعدم اليقين ، بما كان يؤمن به ، وظلت الكلمة عند أرسطو بهذا المعنى ، الذي يقوم على التظاهر بالجهل والنيل من الذات والحط من شأنها [6]

ولم يظهر مصطلح المفارقة في اللغة الإنجليزية إلا في أوائل القرن السادس عشر ، ولم يدخل في الاستعمال الأدبي بشكل عام حتى بواكير القرن الثامن عشر ، وظلت الكلمة لأكثر من قرنين من الزمان تعد صيغة بلاغية مثل : أن يقول المرء عكس ما يعنيه ، أو أن تقول شيئا وتعني غيره ، أو المدح من أجل الذم ، أو الذم من أجل المدح ، أو السخرية [7]

وفي بداية القرن التاسع عشر اكتسبت كلمة المفارقة عددا من المعاني الجديدة ، دون أن تهمل المعاني القديمة بالطبع ، فإذا كان ينظر إلى المفارقة في السابق على أنها مقصودة ومؤثرة ، فقد أصبح بالإمكان رؤية المفارقة على أنها شيء يمكن ملاحظته ، وهكذا تحول الاهتمام في النظر إلى المفارقة لا من زاوية من يمارسها بل من زاوية من يقع ضحية لها [8]

وهكذا أصبح بوسع المرء أن يسبغ صفة المفارقة على ما يرى من أحداث أو مواقف ، دون أن يفترض وجود مخادع بشري ، لذلك قسم ميويك المفارقة صنفين رئيسين هما :

(أ) مفارقة يصنعها صاحبها ، فيتعمد المفارقة ، وهذا ما يسمى بالمفارقة اللفظية.
(ب) مفارقة موقف أو أحداث ، وليس فيها صاحب مفارقة بل ثمة دوما ضحية ومراقب [9]

فالمفارقة تقوم على التباين والتنافر بين الظاهر والباطن ، بين ما هو متوقع ، وما يحدث في الواقع من خلال كسر المتوقع والخروج عن المألوف ، الأمر الذي يثير انتباه القارئ ، ويدفعه إلى البحث عن المعنى الخفي وراء هذا التناقض ، والتنقيب عن الدلالة الحقيقية التي يريد المتكلم البوح بها من خلال هذا التباين أو تحطيم المألوف والمعتاد ، وبذلك يقيم القارئ حوارا فعالا بينه وبين النص ، يمنحه متعة الفهم والاكتشاف ، ويوسع من دائرة رؤيته للأشياء والعالم من حوله.

وتعرف سيزا قاسم المفارقة اللفظية بقولها " المفارقة اللفظية في أبسط تعريف لها هي شكل من أشكال القول ، يساق فيه معنى ما في حين يقصد منه معنى آخر ، غالبا ما يكون مخالفا للمعنى السطحي أو الظاهر"[10]

ويفرق ميويك بين المفارقة اللفظية ومفارقة الأحداث بأن الأولى تعنى انقلابا في الدلالة ، أما الثانية فهي انقلاب يحدث مع مرور الزمن [11]

ويعرف د. عبد الوهاب شعلان المفارقة بقوله " المفارقة قدرة النص على احتواء المتناقضات ، ليغدو من خلالها حيزا دراميا ، تتنفس مكوناته الخصوصية الإشكالية ، يطرح ظاهرا ، ويخفي مستورا ، يقول متعارفا ، ويبطن مضمورا ، نص يمارس لعبة البوح والسكوت بصورة تحفز المخزون الدلالي المنطوي عليه"[12]

وقد ذهبت د. نبيلة إبراهيم إلى تحديد عناصر المفارقة بأربعة هي :

- **وجود مستويين للمعنى**

" المستوى السطحي للكلام على نحو ما يعبر عنه ، والمستوى الكامن الذي لم يعبر عنه ، والذي يلح القارئ على اكتشافه إثر إحساسه بتضارب الكلام ، وهذا يعني أن المستوى السطحي للكلام يجب أن يمد القارئ بالخيط الذي يعينه على اكتشاف المستوى الكامن فيه"[13] فهناك مستويان للمعنى

أحدهما قريب أو سطحي والآخر عميق ، وهذا يعني أن المفارقة تحتاج إلى متلق جيد ، يستطيع أن يغوص في أعماق النص متخطيا المعنى السطحي إلى المعنى العميق الكامن في النص.

ويطلق ميويك على هذا العنصر " المظهر والمخبر " ، ويرى أن العلاقة بينهما هي علاقة تضاد ، وكلما ازداد التضاد ازدادت المفارقة عمقا [14]

- **التعارض والتناقض**

تعتمد المفارقة على التناقض والتنافر بين المظهر والحقيقة ، والإنسان ذو الحس المفارقي هو الذي يستطيع أن يدرك بوضوح هذا التناقض والتنافر ، تقول د . نبيلة إبراهيم " لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلا من خلال إدراك التعارض والتناقض بين الحقائق على المستوى الشكلي للنص"[15]

يقول ميويك " إذا كان تضاد المظهر والمخبر صفة أساسية في المفارقة ، فإن الوعي بالتضاد شرط أساسي في إدراك المفارقة"[16]

- **التظاهر واصطناع الغفلة**

" غالبا ما ترتبط المفارقة بالتظاهر بالبراءة ، وقد يصل الأمر إلى حد التظاهر بالسذاجة والغفلة"[17] ويتحقق التظاهر والخداع في المفارقة – كما يرى ميويك – من خلال أسلوبين هما[18] :

(أ) المراوغة وهو يمثل نوذج الآيرون eiron، وهو شخص مراوغ مخادع ، لا يقدم أفعاله على حقيقتها ، يتظاهر بالتواضع الزائف ، ويتخفى وراء أقنعة تنال من ذاته

(ب) التبجح والادعاء وهو يمثل نموذج الآلازون alazon، الذي يختفي وراء واجهة من الادعاءات ، والمتبجح قد يكون بالغ الغفلة أو مفرطا في الاطمئنان ، أو يكون شديد الحذر فيرى كل حفرة سوى تلك الحفرة التي يقع فيها .

- **الضحية**

" لا بد من وجود ضحية في المفارقة ، وقد تكون " أنا " الكاتب هي الضحية ، وقد تكون الضحية هي ال " أنت " أو الآخر ، وهذا ما يجعل المفارقة منطوية على المضحك والمبكي في آن واحد"[19]

حيث ينجم عن التضاد والتنافر بالإضافة إلى الغفلة المطمئنة توترا نفسيا ، لا يسري عنه سوى الضحك ، أما العنصر المؤلم في المفارقة فيبدو من خلال التعاطف ، الذي نشعر به تجاه الضحية[20]

ففي المفارقة تتضارب وتتقاطع الأفكار والعواطف ، فهي كوميديا مبكية أو مأساة مضحكة ، هكذا يمتزج الضحك بالبكاء في المفارقة ، وهذا ما يؤكده أ.ر. توميسن بقوله " إن المفارقة لا تكون مفارقة إلا عندما يكون أثرها مزيجا من الألم والتسلية"[21]

أما عن وظائف المفارقة فتذكر د. نبيلة إبراهيم بعضا منها فتقول " تتعد أشكال المفارقة وأهدافها ، فقد تكون سلاحا للهجوم الساخر ، وقد تكون أشبه بستار رقيق يشف عما وراءه من هزيمة الإنسان ، وربما أدارت المفارقة رأسها لعالمنا الواقعي ، وقلبته رأسا على عقب ، وربما كانت المفارقة تهدف إلى إخراج أحشاء قلب الإنسان الضحية ، لنرى ما فيه من تناقضات وتضاربات ، تثير الضحك"[22]

ويرى د. محمد العبد أن المفارقة أداة أسلوبية فعالة للتهكم والاستهزاء من خلال قلب المعنى وتغيير الدلالة إلى ضدها في كثير من الأحيان[23]
وقد يكون من وظائفها خداع الرقابة هربا من المساءلة وخوفا من بطش الحاكم أو السلطة السياسية تقول د. سيزا قاسم " المفارقة في كثير من الأحيان تراوغ الرقابة ، بأنها تستخدم على السطح قول النظام السائد نفسه ، بيد أنها تحمل في طياتها قولا مغايرا"[24]

ويرى شليغل أنها رؤية فلسفية لفهم تناقضات الحياة من خلال النظر إليها بمنظار المفارقة ، يقول " فالمفارقة تقوم على إدراك حقيقة أن العالم في جوهره ينطوي على تضاد ، وأن ليس غير موقف النقيضين ما يقوى على إدراك كليته المتضاربة"[25]

فهي تخلق نوعا من التوازن في الحياة ، ندرك من خلاله سر وجود التعارض والتنافر والاختلاف كجزء من بنية الوجود ، هكذا تتبدى لنا الحياة على حقيقتها.[26] حيث تتيح المفارقة للمتلقي " فرصة النظر إلى مسألة ما من وجهتين متضادتين ، من دون أن يقع تحت طائلة الاختيار الإجباري لأحدهما دون الآخر ، فتوسع بذلك مداركه"[27]

وتكمن القيمة الفنية للمفارقة في إثارة انتباه القارئ ، وحثه على التأمل والتفكير للبحث عن المعنى الخفي المتضاد مع المعنى السطحي ، فالمفارقة " تجعل القارئ في رحلة بحث دءوب عن المعنى عبر أعماق النص وبنياته اللغوية ، ليربط المعنى الظاهر للفظ وبين دلالاته الخفية ، ومن هنا تظهر المتعة ، وبذلك تقوي عرى النص" [28]

ويؤكد ميويك القيمة الفنية والجمالية للمفارقة بقوله " إن غايتها إنتاج أبلغ الأثر بأقل الوسائل إسرافا"[29]

ويعد القارئ شريكا أساسيا في صنع المفارقة أو في فك شفرتها ، وهذا ما تؤكده د. نبيلة إبراهيم حيث ترى أنها لغة اتصال سري بين الكاتب والقارئ " فالمفارقة لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين : صانع المفارقة وقارئها ، على نحو يقدم فيه صانع المفارقة النص بطريقة تستثير القارئ ، وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفي، وذلك لصالح المعنى الخفي ، الذي غالبا ما يكون المعنى الضد ، بحيث لا يهدأ للقارئ بال إلا بعد أن يصل إلى المعنى الذي يرتضيه ، ليستقر عنده" [30]

ويؤكد ميويك أيضا على دور القارئ في فك شفرة المفارقة ، فيقول " إذا لم يتم تفسير رسالة المفارقة كما أريد لها ، فإنها تبقى أشبه بيد واحدة تصفق" [31]

تشكل المفارقة الأساس الذي بنيت عليه معظم حكايات كليلة ودمنة ، فالكتاب مبني على الثنائيات الضدية بدءا من العنوان ، فكليلة يمثل الجانب الخيِّر ، بينما يمثل دمنة الجانب الشرير ، وكل حكايات الكتاب تعتمد على الصراع القائم على هذه الثنائية الضدية ، وما ينبثق عنها من ثنائيات ضدية أخرى مثل : القوي والضعيف ، والعدل والظلم ، والحاكم والمحكوم [32]

وتبدو المفارقة في حكايات كليلة ودمنة أن هذا الكتاب ذو طابع ثنائي ، فهو يمثل حياة البشر ، ويحكي واقعهم من خلال الربط بين العالمين : العالم الإنساني الواقعي، وعالم الحيوان الخيالي ، فهذا العالم الخيالي ينقلنا إلى العالم الواقعي ، حيث يحاكي الواقع ويرتبط به ، رغم ابتعاده ظاهريا عنه ، فالعالمان يتفقان ويختلفان معا في نفس الوقت " وبذلك ينتفي التعارض بين العالمين ، وإن ظل التعارض بينهما قائما" [33]

وقد صرح ابن المقفع في المقدمة المنسوبة إلى علي بن الشاه الفارسي أن للكتاب ظاهرا وباطنا معللا ذلك بقوله " ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام ، وباطنه رياضة لعقول الخاصة ...... فصار الحيوان لهوا ، وما ينطق به حكمة وعلما" [34] فابن المقفع يخفي مقصوده وهدفه المراد " الحكمة " خلف نقيضه " اللهو " وكأنه ينتظر من القارئ أن يقوم بدوره ، ويكتشف المعنى الخفي أو الكامن في الكلام.

وقد استخدم الكاتب الحيوان ، لنطل من خلاله على عالم الإنسان محلقين في عالم الخيال ومتحررين من ذواتنا وعالمنا الواقعي ، فهذه الحكايات تتناول أحداثا وشخصيات ، تنتمي إلى عالم الحيوان ، بيد أنها في الحقيقية تعكس العالم الإنساني بكل ما فيه من خير وشر وقبح وجمال ، وتبدو المفارقة أيضا أنه جعل الحيوان ينطق بالحكمة ، فقد أصبح الحيوان غير العاقل معلما ومرشدا للإنسان العاقل ، يقول فاروق خورشيد " ولعل أديب الأسطورة جعل من حكمة الحيوان والطير سخرية فنية من استشراف الإنسان إلى المعرفة ، وغروره بأنه سيد الكون ، لأنه يعرف كل أسرار الكون ، ولعلها أيضا لفتة من أديب الأسطورة إلى ضعف الإنسان وتفاهته ، مهما دل بقوته ، ومهما زها بجبروته"[35]

ويرى عبد الفتاح كيليطو أن اللجوء إلى الرمز وأنسنة الحيوان فرضته ضرورة تعليمية ، تهدف إلى عرض الحكمة في ثوب جذاب ، وأن الرمز في البناء السردي يحقق وظيفة مزدوجة : فهو وسيلة لإيصال الحكمة إلى عامة الناس ، ولكنه أيضا وسيلة لحجب الحكمة عنهم ، وجعلها بعيدة عن متناولهم"[36] ويهدف هذا البحث إلى دراسة أبرز أنواع المفارقة في حكايات كليلة ودمنة ، وهذا ما سنتناوله في الصفحات التالية .

- **مفارقة الأحداث**

" تتحقق مفارقة الأحداث عندما يكون هناك تناقض أو تعارض بين ما نتوقعه وبين ما يحدث ،حينما يكون لدينا وضوح أو ثقة فيما تؤول إليه الأمور ، لكن تسارعا غير متوقع للأحداث يغلب ويخيب توقعاتنا أو خططنا" [37]

فأسباب الأحداث أو مقدماتها تؤدي إلى نتائج غير متوقعة أو متناقضة ، الأمر الذي يكسر توقعات القارئ ، ويكشف غفلة الضحية ، التي انقلبت توقعاتها ، فقد تحصل على ما كانت تتمناه ، ولكن بعد فوات الأوان ، وقد تتخذ خطوات لتصل إلى هدف معين دون ، أن تعلم أن تلك الخطوات تؤدي بها بعيدا عن هذا الهدف ، وقد تكون الوسيلة التي تتجنب بها شيئا ضارا ، هي نفسها الوسيلة التي توصلها إلى ذلك الشيء [38]

فمقدمات الأحداث تسير في اتجاه معين ، ونتائجها تسير في اتجاه آخر متناقض " إذ يعكس فعل المفارقة الأسباب في علاقتها بالنتائج عكسا تاما ، فالسبب (أ) يؤدي إلى (ج) ، التي هي عكسه ، وليس إلى (ب) التي هي نتيجة طبيعية بالنسبة له ، والنتيجة (ب) لا تخرج عن السبب (أ) ، الذي هو طبيعي بالنسبة لها ، ولكن من السبب (د) الذي هو عكسها تماما "[39]

ومن أمثلة مفارقة الأحداث حكاية الأرنب والأسد ، وهي حكاية متولدة في باب الأسد والثور ، وتدور أحداثها أن أسدا كان يعيش في أرض كثيرة المياه والعشب ، وكان يفترس الوحوش التي تعيش معه في تلك الأرض ، الأمر الذي حرمها من أن تستمتع بتلك البيئة الجميلة ، التي تعيش فيها بسبب خوفها من الأسد ، فاجتمعت وعقدت اتفاقا مع الأسد ، أن يؤمنها ، ولا يهاجمها ، مقابل أن تقدم له حيوانا كل يوم ليأكله ." **فقلن له : إنك لا تصيب منا الدابة إلا بعد تعب ونصب ، وقد اجتمعنا على أمر لنا ولك فيه راحة ، إن أنت أمنتنا فلم تخفنا ، فقال : أنا فاعل ، فقلن : نرسل إليك لغذائك كل يوم دابة منا ، فرضي بذلك ، وصالحهن عليه**"[40]

وفي أحد الأيام أصابت القرعة أرنبا كغذاء للأسد، فتباطأت في الذهاب إليه ، حتى جاوز الوقت موعد الغداء ، ثم دخلت عليه في عرينه **" فلما رآها قال : من أين جئت ؟ وأين الوحوش ؟ فقالت : من عندهن جئت ، وهن قريب ، وقد بعثن معي بأرنب ، فلما كنت قريبا منك عرض لي أسد ، فانتزعها مني ، فقلت : إنها طعام الملك ، فلا تغصبنّه ، فشتمك وقال : أنا أحق بهذه الأرض وما فيها منه"**[41]

فطلب الأسد من الأرنب أن تأخذه إلى موضع هذا الأسد ، فأخذته إلى بئر ماء وقالت **" هذا مكانه ، وهو فيه ، وأنا أفرَق منه ، فاحملني على صدرك ، فحملها على صدره ، ونظر في الجب ، فإذا هو بظلها وظله ، فوضع الأرنب من صدره ، ووثب لقتال الأسد في الجب ، وطلبه فغرق"**[42]

تبرز المفارقة هنا من انتصار الضعيف على القوي ، فالمعطيات أو المقدمات لا تؤدي إلى النتيجة ، التي انتهت إليها أحداث الحكاية ، فالصراع بين الأسد والأرنب ينتهي لصالح الأول بسهولة ويسر ، وفقا لقانون الغاب الذي يحتكم إلى القوة ، ويتربع الأسد على قمته ، بينما يأتي الأرنب في قاعه ، ولكن نهاية الأحداث تخرق توقع القارئ ، الذي يفاجأ بانتصار الأرنب الضعيف على الأسد القوي ، وهنا تكمن المفارقة ، حيث انقلب قانون الغاب رأسا على عقب ، وانقلب موقع كل منهما ، الأمر الذي أحدث تحولا في ميزان القوى ، فاحتل الأرنب القمة ، وأصبح هو الأقوى ، وفقا لمفهوم القوة العقلية لا الجسدية ، فالأرنب ضعيف البنية الجسدية في الظاهر ، قوي البنية العقلية في الباطن ، والأسد قوي البنية الجسدية في الظاهر ، ضعيف البنية العقلية في الباطن ، فالأرنب أعمل العقل لذلك انتصر على الأسد ، الذي اعتمد على القوة الجسدية فقط ، فالعقل أقوى من القوة الجسدية ، والقوة الجسدية دون عقل تؤدي إلى هلاك صاحبها ، وشبيه بتلك الحكاية حكاية الأرنب والفيل المتولدة في باب البوم والغربان .

ويرى د. محمد الجابلي أن ابن المقفع في هذه الحكاية يجسد " دوائر متراكبة من الرمز ، توحي مجتمعة بالتطلع إلى قانون جديد يحكم الحياة بدل التوازنات القديمة ، التي ينتصر فيها القوي بقوته ، رغم ما ينطوي عليه من جهل وقصور"[43]

ومن أمثلة مفارقة الأحداث حكاية السارق والرجل المتواني ، وهي حكاية مثلية في باب عرض الكتاب لابن المقفع ، وتدور أحداثها أن سارقا تسلل إلى أحد المنازل ، فشعر به صاحب المنزل ، واستيقظ من غفلته **" فقال في نفسه : لأسكتن حتى أنظر غاية ما يصنع ، ولأتركنه حتى إذا فرغ مما يأخذ ، قمت إليه فنغصت ذلك عليه وكدرته ، فسكت في فراشه ، وجعل السارق يطوف في البيت ، ويحمل ما قدر عليه ، حتى غلب صاحب البيت النعاس ، وحمله النوم فنام ، ووافق ذلك فراغ السارق ، فعمد إلى جميع ما كان قد جمعه فاحتمله ، وانطلق به ، واستيقظ الرجل بعد ذهاب السارق ، فلم ير في منزله شيئا ، فجعل يلوم نفسه ويعاتبها ، ويعض كفيه أسفا"**[44]

هذه الحكاية جعلها الكاتب مثلا للإنسان الذي يعلم ، ولا ينتفع بعلمه ، وتبرز المفارقة من خلال ثنائية التقابل بين قيمة إيجابية تتمثل في إعمال العقل والانتفاع بالعمل ، وبذلك يتحول العلم إلى سلوك عملي ، وقيمة أخرى سلبية تتمثل في تعطيل العقل ، وعدم الإفادة من العلم ، وبذلك يصير العلم جهلا ، أو علامة على الجهل والحمق .

فصاحب البيت لم تعصمه معرفته بوجود السارق في بيته من السرقة ، حيث أهمل العقل ، وبالغ في الغفلة والاطمئنان ، واكتفى بملاحظة السارق ومتابعته ، حتى إذا انتهى من سرقته ، قام إليه ، وأمسك به وكدره ، لكن حدث انقلاب لم يتوقعه ، فقد غلبه النعاس ، وتمكن اللص من الإفلات بجريمته.

فالسارق نجح في إتمام سرقته لا لأنه أعمل العقل ، بل لأن صاحب البيت عطل عقله ، ولم ينتفع بعلمه ، فالعقل مرتبط بالعمل ، فهما وجهان لعملة واحدة ، لا أهمية لأحدهما دون الآخر ، لذلك يعلق ابن المقفع على الحكاية السابقة بقوله **" والعلم لا يتم لامرئ إلا بالعمل ، والعلم هو الشجرة ، والعمل هو الثمرة، وإنما يطلب الرجل العلم لينتفع به ، فإن لم ينتفع به ، فلا ينبغي أن يطلبه"**[45]

وشبيه بالحكاية السابقة حكاية الرجل الفقير والسارق ، وهي حكاية فرعية في باب عرض الكتاب لابن المقفع ، وتحكي أن سارقا دخل منزل رجل فقير معدم ، لا يملك مالا ولا ثيابا ، فشعر به ، فقال في نفسه **" ما في منزلي شيء يستطيع هذا السارق أن يسرقه ، فليصنع ما يشاء ، وليجهد نفسه"** وظل السارق يجول في المنزل ، ويتردد هنا وهناك ، فلم يجد إلا خابية فيها شيء من القمح ، فقال في نفسه : ما أحب أن يذهب عنائي باطلا ، وبسط ملحفة كانت معه ، وصب فيها القمح ، وهم أن ينطلق ، فقال صاحب البيت : أيذهب بالقمح ؟! **" ويجتمع عليّ أمران : الجوع والعري ، ولن يجتمعا على أحد إلا أهلكاه "** فصاح بالسارق ، فهرب من البيت ، وترك الملحفة [46]

فصاحب المنزل انتفع بعلمه ، لذلك جاءت نهاية الأحداث متناقضة مع الحكاية السابقة ، وجاءت المفارقة من حصول صاحب البيت على ملحفة السارق ، الذي جاء لسرقته ، الأمر الذي ساهم في تعميق فجوة التضاد والمفارقة.

- **المفارقة الدرامية**

" ارتبطت المفارقة الدرامية في الأساس بالمسرح ، فهي متضمنة في أي عمل مسرحي ، لكن هذا لا يعني عدم وجودها خارج المسرح ، وهي تكون أبلغ أثرا عندما يعرف المراقب ما لا تعرفه الضحية " [47]

تتحقق المفارقة الدرامية عندما يكون الجمهور / القارئ على وعي بجهل الضحية ، وأكثر معرفة منها بحقيقة ما يدور حولها من أحداث ، خاصة عندما تكون هذه الأحداث مناقضة تماما للوضع كما تراه الضحية ، وتبدو المفارقة الدرامية أبلغ أثرا عندما تشارك إحدى شخصيات المسرحية أو القصة الجمهور في المعرفة ، وخاصة عندما لا تكون الضحية على علم بوجود هذه الشخصية [48]

ونتيجة لمعرفة المراقب بحقيقة الأحداث وغفلة الضحية عن هذه الحقيقة فقد نجدها "لا تعي أن كلامها يحمل إشارة مزدوجة : إشارة إلى الوضع كما يبدو للمتكلم ، وإشارة – لا تقل عنها ملاءمة – إلى الوضع كما هو عليه ، وهو الوضع المختلف تماما ، مما جرى كشفه للجمهور"[49]

ومن أمثلة المفارقة الدرامية حكاية البوم والغربان ، وهي حكاية إطار ، وتدور حول فكرة عدم الاغترار بالعدو ، وإن أظهر تضرعا وتوددا ، فالعاقل لا يثق بعدوه ، ولا يطمئن إليه ، وإن أظهر الخضوع والاستسلام ، فمن هنا تأتي الغفلة ، وتكون الخديعة والمكر.

وتبدأ الحكاية بالإشارة إلى العداوة المتأصلة بين البوم والغربان ، وإغارة ملك البوم في أصحابه على الغربان في أوكارها ليلا ، فتركها ما بين قتيل وجريح ومكسور الجناح ومنتوف الريش ، وأضحت شديدة الرعب من جرأة البوم عليها وانكشاف وكرها .

ويجتمع ملك الغربان بخمسة من البوم المعروفين بحسن الرأي ، ليستطلع رأيهم ، ويستشيرهم في تلك المصيبة ، التي ألمت بهم ، فيرى الأول ضرورة الرحيل عن الوطن ومفارقة المكان مؤكدا كلامه ، بقول العلماء " **ليس للعدو الحَنِق الذي لا يطاق إلا الهرب منه والتباعد** عنه " ويرفض الثاني مفارقة الوطن ، ويرى ضرورة الاستعداد لملاقاة العدو ، حتى لا يؤخذوا على غرة .

ويرى الثالث مصالحة البوم مقابل خراج يؤدوه إليهم في كل سنة ، خاصة وأن البوم أقوى منهم وأشد بطشا ، مؤكدا كلامه بأن من آراء الملوك إذا اشتدت شوكة عدوهم أن يجعلوا الأموال جُنة للرعية والبلاد ، ويرفض الرابع مصالحة العدو ، ويرى ضرورة محاربة العدو وقتاله دفاعا عن وطنهم وشرفهم ، مؤكدا كلامه بأن الغربان أشرف من البوم حسبا .

ولا يؤيد الخامس فكرة محاربة العدو ، لأنهم لا قدرة لهم على قتال البوم " **فلا سبيل إلى قتال من لا نقاربه في القوة والبطش**" ثم يطلب أن يخلو بالملك في مجلس منفرد ، ليفضي إليه برأي ، يريد أن يوفر له أكبر قدر من السرية والكتمان ، ويخبره أن الرأي في مواجهة البوم هو الحيلة والمكر ، ولتنفيذ ذلك يقول " **أرجو أن نصيب من حاجتنا بالمكر والرفق ، فأنا أرى أن يغضب عليّ الملك ، فيأمر بي على رءوس جنده ، فأُضرب وأنقر حتى أتخضب بالدم ، وينتف ريشي وذنبي ، ثم أطرح في أصل الشجرة ، ثم يرتحل الملك وجنده إلى مكان كذا وكذا ، حتى أمكر مكري ، ثم آتي الملك فأعلمه الأمر ، ففعل الملك ذلك**" [50]

ورأى البوم الغراب يئن ويتوجع ، فسأله ملكهم عن سبب تلك الحالة المزية التي هو عليها ، فأخبره أن الغربان كانت تريد الحرب ، وأنه نصح الملك بعقد مصالحة مع البوم ، ودفع الفدية في سبيل ذلك ، فرفض ، واتهمه أنه يمالئ البوم ، وضربه وعذبه ، وارتحل مع الغربان إلى مكان غير معلوم .

ويطلب ملك البوم من وزرائه النصيحة في أمر هذا الغراب ، فيدعوه الوزير الأول إلى التعجيل بقتله ، لاعتقاده أنه من أفضل الغربان رأيا ومكرا ، وقتله شديد الوقع على الغربان ، ويرى الوزير الثاني استبقاءه والصفح عنه ، ومنحه الأمان والطمأنينة ، لا سيما أنه مستجير خائف ، وضعيف عاجز ، ويؤيد الوزير الثالث الإبقاء عليه والإحسان إليه ، مضيفا أنه يمكن الانتفاع به واستخدامه عونا في الصراع مع الغربان ، لما لحقه منهم من ذل وعدوان ، ويستجيب الملك لرأي الوزيرين : الثاني والثالث ، وهكذا نجحت الحيلة ، ويتاح للغراب أن يعيش بين البوم جاسوسا عليهم ، وهنا تكمن المفارقة فالغراب يتقمص شخصية المخادع ، يظهر العداوة والبغض للغربان ، والتقرب والتودد لملك البوم ، حتى كسب ثقته واطمئنانه ، وإمعانا في المكر والخديعة وإخفاء النوايا يعلن استعداده للانتقام من الغربان ، وتقديم نفسه قربانا في سبيل ذلك ، فقال " **بلغني من بعض أهل العلم أنهم قالوا : من طابت نفسه عن نفسه ، فأحرقها ، فقد قرّب قربانا إلى الله عظيما ، وإنه لا يدعو عند ذلك بدعاء إلا استجيب له ، فإن رأى الملك أن يأمر بي فأحرق ، ثم أدعو ربي ، فيحولني بوما ، لعلي أنتقم من عدوي ، وأشفي غليلي ، إذا تحولت في صورة البوم**" [51]

وينخدع ملك البوم بكلام الغراب ، ولم يلتفت إلى رأي الوزير الأول ، ورفق بالغراب ، وزاد في إكرامه ، حتى طاب عيشه ، ونبت ريشه ، واطلع على ما أراد أن يطلع عليه ، حيث أتاحت له إقامته مع البوم ، أن يتعرف على أسرارهم ومواطن ضعفهم ، وذات يوم راغ من البوم، وذهب إلى أصحابه من الغربان ، ليعلمهم بطريقة القضاء على البوم ، فقال لملكهم " **إن البوم بمكان كذا وكذا ، وهن بالنهار يجتمعن في مغار في الجبل ، وقد علمت مكانا كثير الحطب ، فتعالوا نعمد إليه ، وليحمل كل غراب منا ما استطاع إلى ذلك النقب ، وقرب ذلك الجبل راعي غنم ، وأنا مصيب منه نارا ، فألقيها في الحطب ، وتعاونوا أنتم ضربا بأجنحتكم ، أي نفخا وترويحا للنار ، حتى تضطرم وتتأجج ، فما خرج من البوم احترق بالنار**

، وما بقي مات خنقا بالدخان ، ففعلوا ذلك ، فهلك جميع البوم ، ورجع الغربان إلى أوطانهن آمنات" [52]

تتجلى المفارقة من جهل البوم بالخدعة ، التي حاكها الغراب ضدهم ، في حين أن القارئ على وعي بهذه الخدعة ، وتزداد المفارقة عمقا أثناء متابعة القارئ لملك البوم ، وهو يتصرف بسذاجة وغفلة مطمئنة تجاه الغراب ، الذي يدعي الصداقة والرغبة في الانتقام من أصحابه ، ويخفي العداوة الشديدة للبوم ، وينتهز الفرصة للقضاء عليهم ، الأمر الذي يشد انتباه القارئ ، ويزيد عنده الرغبة في متابعة الأحداث ومعرفة مصير البوم وملكهم الساذج المنخدع ، الذي لم يستمع إلى صوت العقل (الوزير الأول) ، هذا الملك الذي صدق العدو ، واطمأن إليه ، يتفاجأ في نهاية الأحداث ، حيث تنكشف الخدعة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فقد هجم الغربان على البوم ، وأبادوهم عن بكرة أبيهم.

تكشف هذه الحكاية عن صورتين متناقضتين متقابلتين ، هما الاحتكام إلى العقل والاستسلام لسلطان الهوى : الأولى صورة ملك الغربان الذي احتكم إلى العقل ، وعمل برأي النصحاء ، فاكتسب بذلك قوة ، وحقق نصرا ومجدا ، والصورة الأخرى المناقضة فهي صورة ملك البوم المتسرع الساذج ، الذي احتكم إلى الهوى ، ولم يصغ إلى صوت العقل وأقوال الحكماء ، لذلك بدأ البوم الحكاية منتصرا ، وانتهى إلى الهلاك ، وبدأ الغربان منهزما في غاية الذل والهوان ، وانتهى محققا نصرا عظيما [53]

ومن أمثلة المفارقة الدرامية حكاية الذئب والغراب وابن آوى والجمل ، وهي حكاية متولدة في باب الأسد والثور ، وتحكي أن جملا تخلف عن قطيع من أصحابه ، فدخل أجمة فيها أسد وذئب وغراب وابن آوى ، فأمنه الأسد على نفسه ، وأقام معهم زمنا طويلا ، يشعر بالأمن والأمان في كنف الأسد ، الذي جرح في أحد الأيام في معركة مع الفيل ، وأضحى عاجزا عن الصيد ، فطلب من أصحابه أن يصطادوا غذاء له ولهم ، ولكنهم أيضا أضحوا عاجزين عن الصيد ، فقد أصابهم الجوع والهزال نظرا لاعتمادهم في غذائهم على الأسد ، فقد كانوا يقتاتون من بقايا طعامه.

فخرجوا من عند الأسد يتشاورون في الأمر ، واتفقوا على مكيدة للإيقاع بالجمل وأكله ، لا سيما أنه ليس من فصيلتهم ، فهو حيوان عشبي ، وهم آكلو لحوم ، لكن المشكلة التي تواجههم هي الأمان الذي أعطاه الأسد للجمل **" خرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد فتنحوا ناحية ، وائتمروا بينهم ، وتشاوروا ، وقالوا : مالنا وهذا الجمل الآكل العشب ، الذي ليس شأنه من شأننا ، ولا رأيه من رأينا ؟ ألا نزيّن للأسد أن يأكله ، ويطعمنا من لحمه ؟ قال ابن آوى : هذا مما لا تستطيعان ذكره للأسد ، فإنه قد أمّن الجمل ، وجعل له ذمة ، قال الغراب : أقيما مكانكما ودَعاني والأسد"**[54]

ذهب الغراب إلى الأسد إقناعه بضرورة أكل الجمل بحجة عدم انتمائه إلى فصيلتهم الحيوانية ، وأنه يعيش بينهم دون فائدة ترجى منه ، فغضب الأسد ، ورفض الفكرة ، مذكرا إياه بالأمان الذي أعطاه للجمل ، وقال له **" ويلك ! ما أخطأ مقالتك ، وأعجز رأيك ، وأبعدك عن الوفاء والرحمة ، وما كنت حقيقا أن تستقبلني بهذه المقالة ، ألم تعلم أني أمّنت الجمل ، وجعلت له ذمة ؟ ألم يبلغك أنه لم يتصدق متصدق بصدقة – وإن عظمت – هي أعظم من أن يجير نفسا خائفة ، وأن يحقن دما مهدورا ؟ وقد أجرت الجمل"**[55]

فيلجأ الغراب إلى الحجاج العقلي لإقناع الأسد بفكرته وحمله على أكل الجمل ، فالرعية جميعا فداء للملك ، كما أنه سيلجأ إلى حيلة تخلص الأسد من العهد الذي أعطاه للجمل ، فقال له الغراب **" إني لأعرف ما قال الملك ، ولكن النفس الواحدة يَفتدِي بها أهل البيت ، وأهل البيت تَفتدي بهم القبيلة ، والقبيلة يَفتدي بها**

المِصرُ ، والمِصرُ فدى للملك ، وإني جاعل للملك مخرجا ، فلا يتكلف الأسد أن يتولى غدرا ، ولا يأمر به ، ولكنّا محتالون حيلة فيها وفاء للملك بذمته ، وظفر منا بحاجتنا ، فسكت الأسد" [56]

ويفهم الغراب أن سكوت الأسد معناه الموافقة ، فالسكوت علامة الرضا ، كما يقال ، ويبدأ الغراب مع الذئب وابن آوى في تدبير مؤامرة للإيقاع بالجمل ، مؤداها أن يعرض كل منهم نفسه على الأسد ليأكله ، فيسفه الآخران رأيه ، ويبينان الضرر من أكله ، فيسلم كل منهم ، ويرضى عنهم الأسد.

وتبدأ الخطوات العملية لتنفيذ المؤامرة ، وهنا تتولد المفارقة ، فالجميع يعرف أبعاد المؤامرة ، التي نسجت حبائلها لأكل الجمل ، والجمل غافل عما يحاك حوله من مؤامرة ، وفي عرين الأسد يتظاهر كل حيوان عن رضا واقتناع بتقديم نفسه للأسد ليأكله وفاء له وحرصا على سلامته ، فاعتقد الجمل أنه إذا قدم نفسه للأسد ليأكله ، سوف تلتمس له بقية الحيوانات الأعذار ، وتسفه رأيه ، كما فعلوا مع بعضهم ، فينجو بذلك ، وينال رضا الأسد ، فقال **" لكن أيها الملك لحمي طيب ومريء ، وفيه شبع للملك ، فقال الذئب والغراب وابن آوى : صدقت ، وتكرمت ، وقلت ما نعرف ، فوثبوا عليه ، فمزقوه"**[57]

فقد حدث ما لم يتوقعه الجمل ، فقد أثنت الحيوانات على رأيه ، وانقضوا عليه ، وافترسوه .

تحققت المفارقة من خلال جهل الجمل بالخدعة ، التي دبرتها الحيوانات بليل ، فانخدع بسذاجة وغفلة " فكلما ازداد عمى الضحية كانت المفارقة أشد وقعا"[58] فقد اعتمدت الحيوانات على العقل في تدبير خدعتها ، وغيّب الجمل عقله ، واعتقد أن الحيوانات تقدم نفسها للأسد ليأكلها ، ولم يدرك أن حقيقة الموقف الذي هو فيه مختلفة تماما عما يراه ، وأن ذلك كان خدعة لاستدراجه ، فبدا شخص جاهل سريع التصديق لما يراه، ولم يع أن كلامه يحمل إشارة مزدوجة : إشارة إلى الوضع كما يبدو له ، وإشارة أخرى إلى الوضع الحقيقي ، الذي جرى كشفه للجمهور[59]

ومن أمثلة المفارقة الدرامية حكاية القرد والغيلم ، وهي حكاية إطار ، جاءت ردا لقول الملك " اضرب لي مثل الرجل الذي يطلب حاجته حتى إذا ظفر بها أضاعها" وتدور أحداثها أن ملك القردة هرم وطعن في السن ، فاستولى قرد شاب من أهل بيته على الحكم ، فهرب القرد العجوز ، واتخذ من شجرة تين على الساحل مأوى له ، وذات يوم وهو يأكل التين سقطت منه واحدة في الماء ، فأعجبه وقعها ، فأخذ يلقي التين مستمتعا بالرنين ، وكان في الماء غيلم اعتقد أنه يلقي التين من أجله ، فشكره ، ونشأت بينهما صداقة ، ولبثّ الغيلم معه زمنا طويلا ، لا ينصرف إلى أهله ، وعندما علمت زوجة الغليم سر غياب زوجها ، شعرت بالغيرة من القرد ، وتمارضت عند عودته إليها ، وأخبرته إحدى صديقاتها أنه ليس لها دواء إلا قلب قرد ، لعلها بذلك تتخلص من القرد ، الذي شغل زوجها عنها ، فأصابت الحيرة الغيلم ، أيغدر بصديقه أم يترك زوجته تعاني المرض ؟ وفي الصباح عزم على الغدر بصديقه ، وانطلق إليه ليستدرجه إلى بيته ، لينزع قلبه ، وما يزال في نفسه شيء من الحيرة ، فأخبره أنه يريد مكافأته على إحسانه إليه ، ودعاه إلى زيارته في منزله ، الذي يقع في جزيرة كثيرة الشجر طيبة الفواكه ، فركب القرد على ظهره ، وسبح به في عرض البحر ، ثم بدا له سوء فعله من غدره بصديقه فتوقف عن السباحة مهموما ، فسأله القرد عن سبب ذلك ، فأخبره أنه يخشى ألا يجد في بيته كل ما يتمناه ، لأن زوجته مريضة ، فرد عليه القرد **" لا تهتم ، فإن الهم لا يغني شيئا ، والتمس لزوجتك الأدوية والأطباء ...... فقال الغليم : زعمت الأطباء أنه لا دواء لها إلا قلب قرد "**

شعر القرد بالورطة ، التي وقع فيها ، وأنه محتاج لإعمال عقله للنجاة بنفسه ، فتحايل على الغيلم ، وأعلمه بعدم إحضار قلبه معه ، وأنه تركه في منزلة بحجة **" سنة فينا معشر القرود إذا خرجنا في زيارة**

أخ أو صديق نخلف قلوبنا لتزول الظِنة عنا " وطلب من الغيلم العودة به إلى بيته ، حتى يتمكن من إحضار قلبه ، وعندما وصل الغيلم إلى الشاطئ ، وثب القرد على الشجرة ،فلما أبطأ ، دعاه الغيلم إلى النزول ، فسخر منه[60]

تبدو المفارقة هنا من خلال الفعل ورد الفعل ، فالغيلم يتظاهر برغبته في إكرام القرد والإحسان إليه ، ويخفي هدفه الحقيقي ، وهو استدراج صديقه لنزع قلبه ، متجاهلا رباط الصداقة ، الذي جمعه بهذا القلب ، الذي يريد انتزاعه ، لكن القرد باعتماده على العقل والحيلة يستطيع التخلص من ذلك المأزق ، مدعيا أن القردة يتركون قلوبهم في المنزل عند الخروج لزيارة الأصدقاء ، وهنا تتولد مفاجأة أخرى من خلال الفعل ورد الفعل ، وهي تصديق الغيلم للقرد ، فبدا شخصية ساذجة ، لا يعمل العقل في تصرفاته ، لذلك كان ألعوبة في يد زوجته والقرد ، فقد واجه كيد زوجته وذكاء القرد واحتياله بالغباء والغفلة.

- **المفارقة القدرية أو العامة**

يرى المراقب في المفارقة القدرية أو العامة أن الجنس البشري بأجمعه ضحية مفارقة ، ينطوي عليها الوضع البشري ، وهذه المفارقة مفارقة من نوع خاص ، حيث أن المراقب يكون من ضحايا المفارقة مع بقية الجنس البشري ، وتتحقق هذه المفارقة عندما نتأمل العالم الذي نعيش فيه ، حيث يتكون من نظامين ، لا يمكن أن يتآلفا : النظام الأول ينشط في إطار مبادئ العقل وقيم العدالة ، أما النظام الثاني فلا يمكن فهمه في إطار هذه الحدود ، ورغم أن هذين النظامين غير متآلفين إلا أنهما متداخلان في بعضهما ، وتقوم هذه المفارقة على التناقضات الأساسية في الحياة مثل الموت والحياة ، أو الفرد والمجتمع [61] فالمفارقة هنا وليدة القدر لا دخل للإنسان فيها ، يكشف الكاتب من خلالها عن مأزق الإنسان في هذه الحياة من خلال رؤية مزدوجة ، ترى السعادة قد تحمل معها الحزن ، والمكسب قد ينطوي على خسارة ، والقوة قد تتحول إلى ضعف والعكس.

ومن أمثلة هذه المفارقة حكاية الرجل الذي ألجأه الخوف إلى بئر ، وتحكي أن رجلا ألجأه الخوف إلى بئر ، فتدلى فيها ، وتعلق بغصنين على حافتها ، ووقعت رجلاه على أربع أفاع ، قد أطلعن رءوسهن من أحجارهن ، ونظر في قاع البئر ، فإذا بتنين فاغر فاه نحوه ، ينتظر سقوطه ، ورفع بصره ، فرأى جرذين : أبيض وأسود ، يقرضان الغصنين دون كلل أو تعب ، وبينما هو يلتمس لنفسه مخرجا ، رأى خلية نحل فيها شيء من عسل ، فذاق العسل وانشغل بحلاوته عن التفكير في ورطته ، ونسي الحيات الأربع والتنين والجرذين الدائبين في قطع الغصنين ، ولم يزل لاهيا ساهيا حتى هلك .

وقد فسر ابن المقفع رموزه ، ليضمن فهم القارئ لحكايته ونجاح وصول الرسالة إليه ، فالبئر هي الدنيا المملوءة آفات وشرورا ، والحيات الأربع هي شهوات الإنسان ، التي تسيطر على سلوكه ، وتتحكم في أفعاله ، والجرذان هما الليل والنهار ، الدائبان في إفناء أجل الإنسان ، والتنين هو الموت ، الذي لابد منه ، والعسل هو الحلاوة القليلة التي يصيبها الإنسان في الدنيا ، فتشغله عن مصيره [62]

تبنى المفارقة هنا على التقابل بين العقل والجهل أو العقل والشهوة ، فالإنسان الذي هو أشرف المخلوقات وأكرمها وأعقلها ، رغم إدراكه أن الحياة الدنيا فانية ، وأنها مليئة بالآفات والمهالك ، إلا أنه لم يحتكم إلى العقل والحكمة في النجاة منها ، بل انشغل بنعيمها الزائل عن التفكير في المصير المؤلم الذي ينتظره ، وهو الموت ، تغافل عن النجاة من البئر أو النعيم الأبدي الذي أعده الله لعباده ، مقابل إشباع شهوة حقيرة ومتعة فانية ، فأضحى يعيش عبدا لرغباته وغرائزه ، متناسيا أن الأجل قصير ، ومتغافلا أو مغيبا عقله الذي ميزه الله به عن سائر المخلوقات ، هذا هو الواقع المرير للإنسان منذ نزوله من الفردوس إلى

الحياة الدنيا / البئر ، لم يمنعه عقله من السقوط في بئر الشهوات ، ولم يدفعه إلى حسن التدبير للنجاة منها ، هكذا نزع الكاتب غطاء العقل عن الإنسان ، هذا العقل الذي يتباهى به ، فقد تغافل عن صوته ، وخضع لسلطان الغرائز والشهوات.

ومن أمثلة هذه المفارقة حكاية الرجل الهارب من الذئب ، وهى متضمنة في باب الأسد والثور ، وتحكي أن رجلا هجم عيه ذئب ، فانطلق هاربا نحو قرية على شاطئ نهر ، فلما وصل إلى النهر ، وجد الجسر الذي يريد عبوره إلى القرية مكسورا ، والذئب خلفه يريد افتراسه ، فألقى نفسه في الماء ، وهو لا يحسن السباحة ، فرآه أهل القرية ، وهو على مشارف الغرق ، فأنقذوه ، فلما أفاق جلس يحدثهم عن حكايته ، فانهدم عليه جدار ، كان يستند إليه ، فمات [63]

لا تستند مفارقة الموت والحياة في هذه الحكاية على منطق الإنسان وعقله ، فالرجل يفر من الموت إلى الموت ، فلا مهرب منه ، ولا يغني حذر من قدر كما يقال ، فالرجل يفر من الموت ، ويلقى نفسه في الماء هربا منه ، فيتفاجأ بمقابلته له في الناحية الأخرى من النهر ، في لحظة اعتقد فيها النجاة منه ، فالرجل يعتقد أنه يفر من الموت ، وأنه يبتعد عنه ، لكنه في الحقيقة سائر إليه دون أن يشعر ، وتظهر المفارقة جلية عندما يهجم عليه الموت ، وهو يعتقد أنه هرب منه ، وأنه أصبح في مأمن منه.

ومن أمثلة المفارقة القدرية حكاية الصياد والظبي والخنزير ، وهي قصة مولدة في باب الحمامة المطوقة ، وضربها الكاتب مثلا للتدليل على أن الحرص والإمساك وخيم العاقبة ، والسخرية من الإنسان الذي يجمع لغيره ، ويبخل على نفسه ،وتحكي أن رجلا خرج للصيد ، ومعه قوسه وسهامه ، فقنص غزالا ، فحمله على كتفه ، ورجع منصرفا إلى منزله ، فاعترضه خنزير بري في طريق عودته ، فأمسك الرجل بالقوس ، ورماه بسهم ، فأصابه إصابة قاتلة ، فهجم عليه الخنزير ، وضربه ضربة شديدة ، فوقعا ميتين ، ومر ذئب فوجد الجميع قتلى : الظبي ، والرجل ، والخنزير ،فشعر بالسعادة لهذا الغذاء الوفير ، الذي يكفيه عدة أيام ، وقرر أن يدخر اللحم لأيام أخر ، ويبدأ بأكل وتر القوس ، وعندما شرع في قطع الوتر ، طارت القوس من يده ، وأصاب طرفها حلقه ، فوقع ميتا [64]

تتفجر المفارقة هنا من ثنائية الحياة والموت / والخير والشر ، فالشر قد يكمن فيما يعتقده الإنسان خيرا ومنفعة ، فلحظة إقبال الدنيا على الإنسان ، قد تكون هي نفسها لحظة إدبارها عنه ، هكذا تجمع الدنيا بين النقيضين في وقت واحد ، فالحياة تموج بالمتناقضات أو الثنائيات المتضادة ، ففي الوقت الذي شعر فيه كل من الرجل والذئب بالسعادة والفرح للفوز بمغنم ثمين ، كان هو نفس الوقت الذي هجم عليهما فيه الموت بغتة ، فالإنسان يقضي حياته في تعب ونصب ، يجمع الأموال ، ويكنز الذهب ، ثم يأتيه الموت فجأة ، هذه الحقيقة يعايشها الإنسان كل يوم ، ومع ذلك يتغافل عنها ، لذلك يعمد الكاتب أن يكشف عن مأزق الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، من خلال هذه الرؤية المزدوجة ، التي يتقاطع فيها الموت مع الحياة ، فقانون الحياة الذي يتغافل عنه الإنسان ، هو أن الحياة فانية ، والموت يأتي في طرفة عين ، وربما في لحظة يشعر فيها الإنسان بالزهو والانتصار أو ببعده عن الموت.

ومن الأمثلة أيضا حكاية ابن الملك وأصحابه ، وهي حكاية إطار ، وتبدأ بقول الملك للفيلسوف " أخبرني ما بال الرجل السفيه يصيب الرفعة والشرف ، والحكيم اللبيب لا يخلو من الهم والجهد؟ " فرد عليه الفيلسوف قائلا :كما أن الرجل لا يبصر إلا بعينيه ، ولا يسمع إلا بأذنيه ، كذلك العلم إنما تمامه الحلم والعقل والتثبت ، غير أن القضاء والقدر يغلبان كل شي "

وتحكي أن أربعة نفر اصطحبوا في طريق : أحدهم ابن ملك ، والثاني ابن تاجر ، والثالث ابن شريف من أتم الناس حسنا وجمالا ، والرابع ابن فلاح ، وقد أصابهم التعب والجهد ، ولا يملكون شيئا إلا ما عليهم من ثياب ، وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث ، وهم سائرون في طريق .

فقال ابن الملك : إن أمر الدنيا كله بقدر .
وقال ابن التاجر : العقل أفضل من كل شيء .
وقال ابن الشريف : الجمال خير مما ذكرتم .
وقال ابن الفلاح : الاجتهاد أفضل من كل ذلك كله .

وعندما وصلوا إلى مشارف إحدى المدن ، طلبوا من ابن الفلاح أن يذهب ليحضر لهم طعاما ، فانطلق يحتطب ، وباع ما احتطبه بنصف درهم ، واشترى لهم طعاما ، وكتب على باب المدينة **" اجتهاد يوم واحد تبلغ قيمته نصف درهم "** . وفي اليوم التالي أرسلوا ابن الشريف ليحضر لهم طعاما ، فانطلق وهو يشعر بحيرة شديدة ، لأنه لا يحسن عملا ، وجلس تحت شجرة في المدينة ، وأسند ظهره إليها ، فمرت به امرأة ، أعجبها جماله ، فأرسلت له خمسمائة دينار ، فاشترى لأصحابه طعاما ، وكتب على باب المدينة **" جمال يوم واحد بخمسمائة دينار"**

وفي اليوم الثالث أرسلوا ابن التاجر ، فرأى سفينة على الساحل محملة بمتاع وحبوب ، فاشترى ما فيها وباعه ، فربح مائة ألف دينار ، ورجع إلى أصحابه بطعام ، وكتب على باب المدينة **" عقل يوم واحد بمائة ألف دينار "** وفي اليوم الرابع أرسلوا ابن الملك ، فجلس غلى باب دكان بالمدينة حائرا ماذا يفعل ؟ ويشاء القدر أن يتوفى ملك المدينة في هذا اليوم ، ولم يترك ولدا ولا قرابة ، فلما رأى أهل المدينة ابن الملك ، وعرفوا أنه ابن أحد الملوك ، وأن أخاه غلبه ، وانتزع الملك منه بعد وفاة أبيهما ، ملكوه عليهم ، وكان من سنتهم إذا ملكوا رجلا ، أن يضعوا التاج على رأسه ، ويطوفوا به المدينة على ظهر فيل أبيض ، فلما مر على باب المدينة ، أبصر ما كتبه أصحابه ، فأمر أن يكتب **" إن الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب المرء من خير وشر فبقضاء وقدر"** [65]

يمثل كل فرد في هذه الحكاية شريحة في المجتمع ، وتوضح ما تستعين به هذه الشريحة في تحصيل رزقها ، فابن الملك يؤمن بالقضاء والقدر ، وابن النجار يستعين بالعقل ، وابن الشريف يعتمد على الجمال الجسدي والوسامة ، وابن الفلاح يعتمد على العمل والاجتهاد ، وتتولد المفارقة من ثنائية القدر والعقل ، فالإنسان يجتهد في حياته ، ويعّمل العقل والحيلة ، لكن القدر غلاب ، فابن الملك وابن الشريف لا يمتلكان مهارة عقلية ولا قوة عضلية ، تؤهلهما لتحصيل الرزق أو إنجاز عمل من الأعمال ، لكن القدر يسوق امرأة تعجب بجمال ابن الشريف ، فتمنحه خمسمائة دينار ، ويصادف يوم دخول ابن الملك المدينة يوم وفاة الملك ، فالقدر يسوقه ، لتولى زمام الحكم ، بعد أن استولى أخوه على الحكم منه بعد وفاة والدهما .

ومع إيمان ابن المقفع بدور العقل وأهميته في الحياة ، إلا ابن التاجر المؤمن بالعقل لم يكن صاحب الحظ الأعلى في هذه الحكاية ، فالقدر يأتي فوق العقل والعمل والاجتهاد ، فالقضاء والقدر هو القانون الذي يحكم هذه الحياة الدنيا ، والبشر جميعا يقعون تحت سيطرته ، ولا يستطيع أحد الفرار منه ، لذلك يعلق الفيلسوف على هذه الحكاية بقوله " ليعرف أهل النظر في الأمور والعمل بها أن الأشياء كلها بقضاء وقدر ، لا يجلب أحد منها لإلى نفسه خيرا ، ولا يدفع عنها ، مكروها ، وأن ذلك كله من الله عز وجل ، وأن الله يفعل فيها ما أراد ، ويقضي فيها ما أحب" [66]

- **مفارقة التنافر البسيط**

تتحقق مفارقة التنافر البسيط عندما نجد تجاورا شديدا بين ظاهرتين على تنافر شديد أو عدم توافق أو تجاور بين قولين متناقضين أو صورتين متنافرتين بشكل طبيعي من دون تعليق مثل : وصف الفوضى على منضدة الزينة ، أو تجاور في سياق طبيعي بين إنسان عاقل وقرد مضحك ، أو أن يقوم قصر قبالة كوخ [67] فمفارقة التنافر البسيط تحدث هزة وإثارة للمتلقى من خلال وضع الشيء ونقيضه أمام عينيه.

ويستخدم ابن المقفع مفارقة التنافر البسيط ، ليكشف عن انقلاب معايير الحياة في عصره ، فيقول " **وكأن الخير أصبح ذابلا ، والشر نضيرا ، وكأن الغي أقبل ضاحكا ، وأدبر الرشد باكيا ، وكأن العدل أصبح غابرا ، وأصبح الجور غالبا ، وكأن العلم أصبح مستورا ، وأصبح الجهل منشورا ، وكأن اللؤم أصبح آمرا ، وأصبح الكرم موطوءا ، وكأن الود أصبح مقطوعا ، وأصبح الحقد موصولا ، وكأن الكرامة قد سلبت من الصالحين ،وتُوُخي بها الأشرار ، وكأن الغدر أصبح مستيقظا ، وأصبح الوفاء نائما ، وكأن الكذب أصبح غضا ، والصدق قاحلا ، وكأن الحق وَلّى عاثرا ، وأصبح العدوان قد جرى سبيله..... والسلطان متنقلا من أهل الفضل إلى أهل النقص ، والدنيا جذلة مسرورة ، تقول : قد غُيبت الحسنات ، وأُظهرت السيئات"** [68]

ابن المقفع يعبر من خلال مفارقة التنافر البسيط عن اختلال موازين القيم في عصره، فيضع أمامنا صورتين متناقضتين : تؤكد الصورة الأولى فقدان القيم الإيجابية النبيلة كالعدل والوفاء والصدق ، وتظهر الصورة الأخرى ازدهار القيم السلبية المضادة كالظلم والغدر والكذب ، فقد حلت القيم السلبية محل القيم الإيجابية ، الأمر الذي يوضح انقلاب معايير القيم وفقدان المنطق السليم ، فقد أضحت الدنيا تسير بمنطق معكوس أو مقلوب ، حيث سيطرت القيم السلبية على المجتمع ، وتوارت وتراجعت القيم الإيجابية.

ويعبر من خلال مفارقة التنافر البسيط عن استهانة الناس بالفقير واعتراضهم على كل تصرفاته وأفعاله ، فالقيم التي تحكم مجتمعه هي قيم المنفعة المادية ، وليست قيم الأخلاق الفضيلة ، يقول**" ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا ، وأساء الظن به من كان يظن به حسنا، فإذا أذنب غيره كان للتهمة موضعا، وليس من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير ذم؛ فإن كان جوادا سمي مفسدا، وإن كان حليما سمي ضعيفا، وإن كان وقورا سمي بليدا، وإن كان لسنا سمي مهذارا، وإن كان صموتا سمي عييا"** [69]

ويستعين بالمفارقة في إبراز خطورة مصاحبة السلطان، فصحبته ليست نعيما خالصا، لكنها تجمع بين المتعة والمنفعة والهلاك والعذاب، يقول**" إنما شبه العلماء السلطان بالجبل الوعر الذي فيه الثمار الطيبة ، وهو معدن السباع المخوفة ، فالارتقاء إفيه شديد ، والمقام فيه أشد وأهول" [**70]

وفي مقدمة علي بن الشاه الفارسي والتي يتحدث فيها عن الأسباب السياسية ، التي أدت إلى تأليف كتاب كليلة ودمنة ، يسعى الفيلسوف بيدبا بالنصيحة إلى الملك دبشليم لإقناعه بالعودة عن ظلمه وطغيانه ، واتباع سيرة أجداده في تعامله مع الرعية معتمدا على مفارقة التنافر البسيط ، يقول بيدبا موجها حديثه إلى دبشليم " **أيها الملك إنك في منازل آبائك وأجدادك من الجبابرة ، الذين أسسوا المُلك قبلك ، وشيدوه دونك ، وبنوا القلاع والحصون ، ومهدوا البلاد ، وقادوا الجيوش ، واستجاشوا العدة ، وطالت لهم المدة ، واستكثروا من السلاح والكراع ، وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور ، فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر ، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر ، ولا استعمال الإحسان إلى من خولوه ، والإرفاق بمن ولوه ، وحسن السيرة فيما تقلدوه ، مع عظم ما كانوا فيه من عِزة الملك وسكرة الاقتدار ، وأنك أيها الملك السعيد جده ، الطالع كوكب سعده ، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم ، التي كانت عدتهم ، فأقمت فيما خولت من الملك ،**

وورثت الأموال والجنود ، فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك ، بل طغيت ، وعتوت ، وعلوت على الرعية ، وأسأت السيرة ، وعظمت منك البلية"[71]

يسعى بيدبا إلى إسداء النصح إلى دبشليم ، فيكشف الغطاء ، ويزيح الستار عن عينيه ، لينبهه إلى الفرق الواضح والتضاد الحاد بين عصره وعصور آبائه وأجداده من الملوك السابقين ، فيضع أمامه صورتين لعصرين متناقضين متآلفين : الأول هو عصر الملوك السابقين آباء دبشليم وأجداده ، وهو عصر يتميز بالقوة والعدل والإحسان إلى الرعية ، لذلك عاشوا الدهر في غبطة وسرور ، والعصر الآخر هو عصر دبشليم نفسه ، الذي أقام ملكه على الظلم والطغيان والإساءة إلى الرعية ، فدبشليم رغم وشائج النسب التي تربطه بأجداده إلا أن عصره ليس امتدادا لعصرهم ، بل يتنافر معه تنافرا شديدا ، فقد خالف ميثاق أجداده في التعامل مع الرعية ، فالعلاقة التي تربط عصره بعصر أجداده هي علاقة اتصال وانفصال في الوقت نفسه ، فبيدبا يقف من دبشليم موقف المعلم ، الذي ينبهه إلى ضرورة العودة إلى طريق الأجداد في التعامل مع الرعية.

- **المفارقة والشخصية**

معظم أبطال حكايات كليلة ودمنة تنتمي إلى عالم الحيوان ، وبعضها ينتمي إلى عالم الإنسان ، وتبدو المفارقة هنا أن الشخصيات الحيوانية تحمل أسماء في الغالب على العكس من الشخصيات الإنسانية ، التي تحمل صفات لا أسماء ، فنجد التاجر ، وابن التاجر ، والسارق ، والمغفل ، ويعلل د. أحمد درويش هذه الظاهرة بقوله " ربما كان التفسير الفني لهذه الظاهرة راجعا إلى محاولة إحداث توازن بين عالمي الإنسان والحيوان ، فهذا الحيوان لا يتميز في عالمنا نحن غالبا إلا من خلال أجناسه وأنواعه ، ولا يحمل أفراده أسماء ، تميز ذواتهم ، هذا الحيوان عندما يوجد جنس أدبي يعبر عنه ، ويصبح العالم فيه عالمه هو ، يصبح البشر غرباء في هذا العالم أو ضيوفا عليه ، يرد لهم نفس المعاملة ، التي تلقاها الحيوانات في عالمهم ، فلا يصبح للبشر أسماء ، وإنما يتميزون من خلال صفاتهم وأجناسهم وأنواعهم لا من خلال اسم العلم ، رمز الذات المستقلة المدركة المتميزة في عالمي الإنسان والحيوان على السواء" [72]

وربما لم يمنح ابن المقفع الشخصيات الإنسانية في كليلة ودمنة أسماء ، ولم يحدد سماتها الجسدية وأبعادها النفسية والثقافية ، لأنها لا تدل على شخص بعينه ، وإنما تمثل نموذجا ، ينطبق على شخصيات أخرى كثيرة ، قد تشترك معها في الوظيفة أو الصفة ، وقد استخدم المفارقة للسخرية من هذا النموذج أو النمط الذي تمثله الشخصية.

ومن ذلك حكاية الرجل الذي طلب تعلّم الفصاحة ، وهي حكاية متضمنة في باب عرض الكتاب لابن المقفع ، وتحكي أن رجلا طلب علم الفصاحة من صديق له ، فكتب له في صحيفة صفراء عِلم العربية وشروط الفصاحة ، فانطلق بها إلى منزله ، وأخذ يقرؤها ، فحفظها عن ظهر قلب ، دون أن يفهم معناها ، وما ترمي إليه ، وظن أنه أتقن علم الفصاحة ، وفي أحد الأيام تكلم في مجلس ، وفيه جماعة من أهل الأدب والفصاحة ، فقال له بعضهم : لحنت ، فقال : ألحن والصحيفة الصفراء في منزلي؟ [73]

ابن المقفع يسخر من تلك الشخصية التي تقرأ وتحفظ ، دون أن تفهم أو تدرك ما تقرؤه ، فهذا الرجل الذي طلب تعلم الفصيح ، رغم الجهد الذي بذله في حفظ ما في الصحيفة إلا أنه لم ينتفع بما فيها ، وكشفت المفارقة عن رؤيته المغلوطة أو الزائفة عن ذاته ، حيث بالغ في تقدير ذاته ، معتقدا أنه أحاط بعلم الفصيح ، وبلغ شأوا عاليا فيه ، والحقيقة عكس ذلك تماما ، فهو يقوم هنا بدور المتبجح الدعي ، الذي يميل إلى خديعة نفسه أكثر من خديعة الآخرين ، الذين يتباهى أمامهم [74] ويغلب على هذا النموذج الإنساني " أن يكون أعمى في كبرياء وواثقا في حمق" [75] لذلك يسخر منه الكاتب ، وجعله يدين نفسه ، وذلك في قوله : **ألحن**

والصحيفة الصفراء في منزلي ؟ فالمفارقة هنا كشفت عن جهل الضحية بالذات ، وليس عن الجهل بالموقف الذي هو فيه [76]

وتعد شخصية الناسك أو رجل الدين من النماذج التي نالت اهتماما كبيرا من ابن المقفع في حكايات كليلة ودمنة ، حيث ذكرها أكثر من مرة ، وحمل بابا في كتابه عنوان الناسك وابن عرس ، وقد استغل الكاتب هذه الحكايات ليعري هذه الشخصية " ويكشف عن ازدواجيتها ، وربما ليهدم تلك الهالة القدسية ، التي تحيط بكثير من رجال الدين ، الذين هم كغيرهم يخطئون ، ولهم أيضا تناقضاتهم ، التي تلتقي مع تناقضات كثير من الشخصيات الأخرى" [77]

ومن تلك الحكايات حكاية الناسك والجرة ، وهي حكاية متولدة في باب الناسك وابن عرس ، تحكي أن ناسكا فقيرا يأتي إليه كل يوم من بيت رجل من التجار رزق من الدقيق والسمن والعسل ، فيأكل منه ، ويجعل الباقي من السمن والعسل في جرة معلقة في بيته ، وذات يوم وهو مستلق على ظهره ، والجرة فوق رأسه ، تذكر غلاء السمن والعسل ، فقال في نفسه : سأبيع ما في هذه الجرة بدينار ، واشترى به عشرة أعنز ، فيحملن ، ويلدن في خمس سنوات أكثر من أربعمائة عنز ، فأبيعها ، وأشتري بثمنها مائة من البقر والثيران ، التي اعتمد عليها في الزراعة ، وبعد خمس سنوات يصبح عندي مالا كثيرا من الزرع ونتاج البقر ، فأبني بيتا فاخرا ، وأشتري عبيدا وإماء ورياشا ومتاعا ، وأتزوج امرأة جميلة ذات حسب ونسب ، فتلد لي ابنا مباركا ، فأحسن أدبه ، وأشتد عليه عليه في ذلك ، فإن لم يقبل مني الأدب ، ضربته بهذه العصا هكذا ، ورفع يده ، فأصابت العصا الجرة ، فانكسرت ، وسال العسل والسمن على رأسه ولحيته [78]

ابن المقفع يسخر من هذا الناسك ، الذي يعيش دون عمل يرتزق منه ، رغم أن الأديان السماوية تحث على السعي وطلب الرزق ، ويكتفي أن يأتيه رزقه من صدقة أحد التجار ، وتبلغ المفارقة ذروتها حين تكشف لنا عن مخبوء تلك الشخصية في لحظة حلم من أحلام اليقظة ، وقد تحولت من الفقر إلى الغنى ، وأصبحت تملك مالا وفيرا وثروة كبيرة ، فوجدناها في هذا الحُلم ، تسعى إلى متاع الدنيا لا إلى نعيم الآخرة ، تتعلق بزخرف الحياة الدنيا من منزل فاخر وعبيد وإماء وأثاث ورياش ، وتغفل عن الباقيات الصالحات ومد يد العون إلى الفقراء والمحتاجين ، فالكاتب يعري هذه الشخصية التي يوحي مظهرها بالزهد والورع ، بينما مخبرها عكس ذلك تماما ، وتنتهي الحكاية بمفارقة أخرى ، فقد تلاشت وتبخرت أحلامه في الثراء بانكسار الجرة.

ويسخر من شخصية الناسك مرة أخرى في حكاية الناسك وابن عرس ، وهي حكاية إطار ، وتروي أن ناسكا مكث زمانا طويلا لم يرزق بولد ،ثم حملت زوجته ، فاستبشر ، وقال لها : أبشري فإني أرجو أن تلدي غلاما ، يكون لنا فيه متاع وقرة عين ، فقالت له : **أيها الرجل ما يحملك على أن تتكلم فيما لا تدري هل هو كائن أو غير كائن ؟ فاسكت عن هذا الكلام ، وارض ما قسم الله لنا** ، وضربت له مثلا حكاية الناسك وجرة العسل السابقة ، ثم ولدت غلاما جميلا ، فسرّ به ، وعندما حان لها أن تتطهر، ذهبت لتغتسل ، وترك زوجها والغلام ، فلم يلبث أن جاءه رسول الملك يستدعيه ، ولم يجد من يخلفه عند ابنه سوى ابن عرس ، كان قد رباه صغيرا ، فتركه مع الصبي ، وذهب إلى الملك ، فخرج من بعض أحجار البيت حية سوداء ، تريد الغلام ، فوثب عليها ابن عِرس ، فقتلها ، وعند عودة الناسك إلى منزله لقيه ابن عِرس كالمبشر له ، بما صنع ، فلما رآه ملطخا بالدم ، ظن أنه قد قتل ولده ، فضربه بعصا ، كانت في يده ، فمات ، وعندما دخل المنزل ، ورأى الغلام حيا ، والأسود مقتولا ، أصابته الحسرة والندم ، وظل يبكي ، ويلطم وجهه [79]

تقوم المفارقة هنا بتعرية شخصية الناسك من خلال التضاد بين مظهره ومخبره ، فشخصية الناسك تتصف بسمات سلبية ، هي الطيش والعجلة ، رغم أنها تتميز في الوعي الجمعي بالحكمة وصوت العقل من خلال مظهر الوقار أو الإجلال الذي يخلعه العامة على رجال الدين ، في حين أن شخصية المرأة تتصف

في الوجدان الجمعي بالسفه وسيطرة العاطفة على العقل ، إلا أنها هنا تتميز بصفات إيجابية مناقضة لتلك الصفات ، التي ينظر بها العامة إلى المرأة ، فقد تميزت بالحكمة والعقل ، فهي تعظ زوجها – الذي كان يجب أن يقوم هو بدور الواعظ لها – بالتأني وعدم العجلة والرضا بقضاء الله ، و تتضح المفارقة من خلال وضع الصورتين وجها لوجه : صورة الناسك ، وصورة المرأة ، فالناسك الذي يعظ الناس ، كان يجب عليه أن يبدأ بنفسه فيؤدبها ، لكنه لم ينتفع بعلمه ، ولم ينتفع بنصيحة زوجته له.

كما تحققت المفارقة في نهاية الأحداث ، التي جاءت متناقضة مع المتوقع ، حيث كان من المفترض أن يلقى ابن عِرس تكريما من الناسك لقتله الحية وحفاظه على حياة الغلام ، إلا أن الخاتمة جاءت عكسية تماما ، فقد انقلب الحدث إلى نقيضه ، فالناسك قتل ابن عِرس ظنا منه أنه قتل الغلام.

يحمل كتاب كليلة ودمنة نقدا سياسيا للحكام المستبدين والحاشية المحيطة بهم ، ويرى د. أحمد درويش أن الكتاب ما هو إلا رحلة سياسية " فبيدبا يكتبها توجيها لحاكم سياسي ظالم ، وبرزويه يترجمها امتثالا لأمر ملك ورغبة وزير ، وابن المقفع ينقلها إلى العربية ، وهو يعمل في دواوين الحكم " [80]

ويربط أحمد أمين بين الكتاب والغايات السياسية ، خاصة وأن ابن المقفع بلغ نضوجه الفكري في زمن أبي جعفر المنصور ، وهو شديد البطش والفتك ، سريع في إعمال السيف ، فالحرية السياسية لم تكن متوفرة في زمنه ، لذلك وقف ابن المقفع من المنصور موقف بيدبا من دبشليم.[81]

وقد وظف ابن المقفع المفارقة ليسخر من شخصية الأسد / الملك أو الحاكم ، ويكشف مدى التناقض في هذه الشخصية من خلال الصفات المتنافرة ، التي تلتقي في هذه الشخصية ، ويبدو ذلك واضحا في أول أبواب الكتاب ، وهو باب الأسد والثور، حيث تدور أحداث هذا الباب حول ثور دخل الغابة ، وعاش في رغد حيث الماء والكلأ ، فأكل حتى سمن ، وأخذ يخور ، ويرفع صوته بالخوار ، الأمر الذي أدخل الهيبة والخوف في قلب الأسد ، لأنه لم يكن رأى ثورا قط ، فظل مقيما في مكانه لا يبرحه ، ويصف الكاتب الأسد بقوله **" وكان ملك تلك الناحية ، ومعه سباع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وغير ذلك ، وكان مزهوا متكبرا متفردا مكتفيا برأيه ، وأن ذلك الأسد لما سمع خوار الثور ، ولم يكن رأى ثورا قط ، ولا سمع خواره ، رعب منه ، وكره أن يفطن لذلك جنده ، فلم يبرح من مكانه"**[82]

فابن المقفع يقدم لنا شخصية الأسد / الملك في صورة تنطوي على تناقض مع تلك الحقائق المألوفة والمنتشرة عنه بين الناس نتيجة مكانته كملك للغابة ، فهو ينظر إلى الأسد من زوايا مختلفة ، تظهر التناقض الموجود في شخصيته ، وتعريه أمام القارئ ، فهو في الظاهر ملك مزهو متكبر ، ملك قوي حوله جنود كثيرة من السباع ، لكنه جبان خائف مذعور من خوار الثور ، كما ينتقص أيضا من ذكائه وعقله وحنكته ، فيصفه على لسان دمنة " **بأنه ضعيف الرأي** " فالملك الذي ينبغي أن يتصف بحسن الرأي والتدبير يبدو ضعيف الرأي والعقل.

وتمضي الأحداث وينجح دمنة في التقريب بين الأسد والثور ، معتقدا أنه بذلك سوف ينال مكانة عند الأسد ، لكن توقعه يخيب ، إذ يصبح الثور هو الصديق الأقرب إلى قلب الأسد ، الأمر الذي يدخل الحسد والغيرة على قلب دمنه ، فيستغل دهاءه وضعف عقل الأسد ، ويسعى للوقيعة بين الأسد والثور ، وينجح في ذلك ، فيقتل الأسد أعز أصدقائه ، وهو الثور.

وفي باب الفحص عن أمر دمنة ، يشعر الأسد بالندم ، لأنه تعجل في قتل صديقه الثور ، وتلعب أم الأسد دورا مهما في كشف مكيدة دمنة ، وتوجه ابنها إلى ضرورة محاكمة دمنة والقصاص منه ، وتبدو المفارقة هنا من خلال هذه المعادلة المتناقضة ، فالملكة / الأم / المرأة التي يعتقد أنها تحمل صفات العجلة

والتسرع ، تتميز بصفات الحكمة والحذر والحلم ، أما الملك / الرجل / الأسد الذي يعتقد أنه خبير بالسياسة والتدبير والعقل ، فيتميز بالتسرع والبلاهة والحمق [83] كما تبدو المفارقة أيضا في أن الخطوة التي قام بها دمنة لاستعادة مكانته عن الأسد ، كانت هي نفسها الخطوة التي أدت إلى مقتله .

ومن أمثلة المفارقة والشخصية حكاية الأسود وملك الضفادع ، وهي حكاية متولدة في باب البوم والغربان ، وتحكي أن ثعبانا أضحى عاجزا عن صيد الضفادع بسبب الهرم والكبر ، فاستعمل العقل والحيلة في تحصيل طعامه وخداع ملك الضفادع ، وأخبره أنه لدغ ابن ناسك ، فلعنه الناسك ، ودعا عليه أن يصبح مركبا لملك الضفادع ، وأن يحرم عليه أكلها إلا ما يتصدق عليه ملكها ، فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسود ، وظن ذلك شرف له ورفعة ، وأمر أن يدفع إليه كل يوم ضفدعين رزقا ومعيشة [84]

لقد وقع ملك الضفادع ضحية خداع النفس ، فهو يقوم بدور المتبجح الدعي ، حيث اعتقد أنه أصبح سيدا للأسود ، وشعر بالكبرياء والزهو لركوبه إياه ، لكن الحقيقة هي غير ما تبدو عليه الأمور ، وتكشف عن غفلته وسذاجته ، مما جعل المفارقة أشد وقعا ، فهذا الملك الذي يفترض أن يحمي رعيته ، وأن يمنع الأسود من الاعتداء عليها ، يقدم له ضفدعين كل يوم ليأكلها ، فأفعاله تتناقض بشدة مع واجبه ، فهذا الكبرياء والغرور من جهة ملك الضفدع ، جعله يتسم بالغفلة والعمى ، لقد انخدع بحيلة الأسود ، مصدقا أنه صار سيدا عليه .

قام الأسود هنا بدور المخادع والمراوغ ، فبعد أن فقد القدرة الجسدية على صيد الضفادع نتيجة كبره وعجزه ، جعل من نفسه مركبا لملك الضفادع ، ليضمن حصوله على الطعام ، ويضمن قدرته عليها مرة أخرى ، فهو يتلاعب بالضفادع ، آكل لها في حالتي القوة والعجز ، فهو قادر على التهامها بعضلاته حينا وبعقله حينا آخر ، أما الضفادع فهي عاجزة ومأكولة في الحالتين ، وملكها ذليل في الحالتين ، وإن ظن امتطائه الأسود شرف له ورفعة ، هكذا يتضح أن عبودية الأسود ما هي إلا وجه من وجوه سيادته ، وأن سيادة ملك الضفادع ما هي إلا وجه من وجوه عبوديته [85] بدأ الأسود الحكاية عاجزا عن الصيد بسبب كبره وضعفه ، وانتهت وقد استعاد منزلته الأولى بالحيلة ، وأضحى قادرا على أكل الضفدع ، الذي بدأ الحكاية مأكولا ، وانتهت أيضا وهو مأكول ، رغم سيادة ملك الضفدع على الأسود وركوبه له في نهاية الحكاية .

ومن أمثلة مفارقة الشخصية حكاية الحمامة والثعلب ومالك الحزين ، حيث نجد صورتين متناقضتين لمالك الحزين ، الذي يقدم الحكمة لغيره ولا ينتفع بها لنفسه ، ففي الصورة الأولى يبدو بمظهر الحكيم ، فيعلم الحمامة طريقة النجاة بنفسها وبفراخها من الثعلب ، الذي استطاع أن يحتال عليها مدة طويلة ، ويجعلها تقذف إليه بفراخها من فوق قمة نخلة عالية خوفا من أن يصعد إليها ، فيلتهمها هي وفراخها .

" فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها مالك الحزين : يا حمامة مالي أراك كاسفة اللون سيئة الحال ؟

قالت له : يا مالك الحزين ، إن ثعلبا دهيت به ، كلما كان لي فرخان جاء يهددني ، ويصيح في أصل النخلة ، فأفرق منه ، فأطرح إليه فرخيّ .

قال لها مالك الحزين : إذا أتاك ليفعل ما تقولين ، فقولي له : لا ألقي إليك فرخيّ ، فارق إلي ، وغرر بنفسك ، فإذا فعلت ذلك ، وأكلت فرخيّ ، طرت عنك ، ونجوت بنفسي ..... فأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف ، فوقف تحتها ، ثم صاح كما كان يفعل ، فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين ، فقال لها الثعلب : أخبريني من علمك هذا ؟ قالت : علمني مالك الحزين"[86]

وفي الصورة الأخرى يبدو مالك الحزين بمظهر الغافل الأحمق ، الذي يعلم غيره ، وينسى نفسه ، الأمر الذي يصدم القارئ ، ويثير دهشته وسخريته من تناقض أقواله الحكيمة وسلوكه الطائش ، ويسلط الراوي عدسته على حركاته الجسدية بصورة تكشف مدى غفلته وحمقه ، مما يؤدي إلى افتراس الثعلب له .

" فتوجه الثعلب حتى أتى مالكا الحزين على شاطئ النهر ، فوجده واقفا ، فقال له الثعلب : يا مالك الحزين ، إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك ؟
قال : عن شمالي .
قال : فإذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك ؟
قال : أجعله عن يميني أو خلفي .
قال : فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله ؟
قال : أجعله تحت جناحي
قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك ؟ ما أراه يتهيأ لك .
قال : بلى .
قال : فأرني كيف تصنع ذلك ؟ فلعمري يا معشر الطير لقد فضلكم الله علينا ، إنكن تدرين في ساعة واحدة مثل ما ندري في سنة ، وتبلغن ما لا نبلغ ، وتدخلن رءوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح ، فهنيئا لكنَّ ، فأرني كيف تصنع ،فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه ، فوثب عليه الثعلب مكانه ، فأخذه ، فهمزه همزة دقت عنقه"[87]

يسخر الكاتب من مالك الحزين ، الذي يرمز لشخصية الإنسان الحكيم ، الذي يتناقض سلوكه الفعلي تناقضا صارخا مع حكمته وعلمه ، وتتحقق المفارقة من خلال وضع الصورتين اللتين رسمهما له وجها لوجه ، وربطهما في نسيج القصة ، فالصورة الأولى تثبت له صفة الحكمة والرزانة ، حيث يقدم الرأي للحمامة ، لتنتفع به في النجاة من الثعلب ، ويتفاجأ القارئ في الصورة الثانية بسلوك مضاد أحمق ، لا يتفق مع حكمته ورزانته ، بل يجسد الجهل والحمق ، فلا ينتفع بعقله وحسن رأيه ، فتتصادم الصورتان من خلال التعارض بين القول الحكيم والسلوك الأحمق ، الأمر الذي يصدم القارئ ، الذي كان يتوقع أن تكون الصورة الثانية امتدادا للصورة الأولى ، فتتجسد المفارقة مثيرة السخرية والدهشة من الشخص الذي يقدم الرأي والعون للآخرين ، ولا ينفع به نفسه .

ومن أمثلة مفارقة الشخصية حكاية الأرنب والصفرد والسنور، وهي حكاية متولدة من باب البوم والغربان ، وتدور أحداثها أن الصفرد والأرنب احتكما إلى السنور في النزاع القائم بينهما حول أحقية أحدهما بالمسكن أو الجحر ، وتبنى المفارقة على أساس السلوك الحركي للسنور / القاصي والمتمثل في إظهار تقواه وورعه وزهده .

" قال الصِفّرد : ههنا قريب من القاضي فانطلقي بنا إليه ، قالت الأرنب : ومن القاضي ؟ قال الصِفّرد : سِنّور متعبد ، يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يؤذي دابة ، ولا يأكل إلا الحشيش ، فاذهبي بنا إليه"[88]

ويسلط الكاتب الضوء على السنور / القاضي ، ويرسم له صورة حركية تضفي عليه الهيبة والوقار **" فلما رآهما أقبلا من بعيد انتصب قائما يصلي ، فتعجبت الأرنب مما رأت منه ، ولما صارا إليه دنُوا منه هائبين له ، فطلبا منه أن يقضي بينهما"**[89]

ويتآزر السلوك الحركي للسنور / القاضي مع أقواله ، حتى تؤدي المفارقة غرضها المقصود ، وهو خديعة الضحية " **فقال : قد فهمت ما قصصتما ، وإني بادئكما بالنصيحة قبل القضاء ، آمركما ألا تطلبا إلا الحق ، فإن طالب الحق هو الذي يفلح ، وإن قضي عليه ، وطالب الباطل مخصوم وإن قضي له ، وليس**

لصاحب الدنيا من دنياه شيء لا مال ولا صديق إلا عمل صالح قدمه فقط .... فلم يزل يقص عليهما ، ويدنوان منه ، ويستأنسان به ، حتى وثب عليهما جميعا فقتلهما"[90]

تبنى المفارقة هنا على التناقض والتنافر بين السلوك الظاهر للناس ومخبر الشخصية ، فالمظاهر قد تكون خادعة ، ولا تنم عن جوهر وحقيقة الشخصية ، واستطاع الكاتب عبر هذه المفارقة أن يسخر من شخصية السنور ، الذي يرمز لفئة من القضاة تتستر بالصلاح والتقوى ، بينما واقع حالهم الفعلي يتنافى مع ما يتظاهرون به ، بهدف تعرية هذه الفئة ، وكشف الوجه الحقيقي لها ، فالمفارقة تقوم هنا على التناقض بين أقوال الشخصية وسلوكها الحركي ، الأمر الذي يخلق مجالا للضحك أو السخرية ، حين يتم اكتشاف التنافر والتضاد بين الأقوال والأفعال ، ومدى الهوة الواسعة التي تفصل بينهما .

الخاتمة:

- المفارقة عند ابن المقفع ليست وليدة موقف عابر ، لكنها وليدة إحساس داخلي أو رؤية خاصة ، نظر من خلالها إلى الحياة بمنظار المفارقة ، التي ترى الحياة سلسلة من المفارقات والمتناقضات.
- استخدم ابن المقفع المفارقة ليكشف تناقضات الحياة والواقع السياسي والاجتماعي في عصره.
- الخيط الفني الذي يربط كثيرا من حكايات كليلة ودمنة هي أن معظمها يعتمد على المتناقضات والثنائيات الضدية ، التي يصطدم بعضها ببعض.
- تنوعت أنواع المفارقة في حكايات كليلة ودمنة ، فهنالك ومفارقة الأحداث ، والمفارقة الدرامية ، والمفارقة القدرية أو العامة ، ومفارقة التنافر البسيط.
- استخدم ابن المقفع سلاح المفارقة للسخرية من بعض النماذج الشخصية ، من خلال الغوص في أعماق هذه الشخصيات وتعريتها ، وكشف التناقضات التي تعتمل بداخلها.
- حكايات كليلة ودمنة رغم أنها تنتمي إلى عالم الحيوان إلا أنها تعكس لنا العالم الإنساني ، فقد صبغ ابن المقفع حيواناته بصبغة إنسانية ، فجعلها تعقل وتفكر مثل الإنسان ، بل وتتحلى بفضائله وسلبياته.

المراجع

[1] انظر إشكالية المصطلح والترجمة نجاة علي ، المفارقة في قصص يوسف إدريس القصيرة ، ط المجلس الأعلى للثقافة ، 2009 ، ص 25 وما بعدها ، د. قيس حمزة الخفاجي المفارقة في شعر الرواد ، دار الأرقم للطباعة والنشر العراق ، ط الأولى 2007 ، ص 43 وما بعدها .
[2] د. محمد العبد ، المفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ، دار الفكر العربي ، ط الأولى ، 1994 ، ص 23.
[3] د . سي . ميويك ، المفارقة وصفاتها ، ضمن موسوعة المصطلح النقدي ، المجلد الرابع ، ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط الأولى 1993 ، ص 124.
[4] انظر د . حسن يوسف ، ظاهرة التأويل في النص الشعري ، دار الوفاء ط الأولى 2013 ، ص 291 وما بعدها ، د. نعمان عبد السميع متولي ، المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم دراسة تطبيقية ، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، ط الأولى ، 2014 ، ص 75 وما بعدها.
[5] د. نبيلة إبراهيم ، المفارقة ، مجلة فصول ، المجلد السابع ، العددان الثالث والرابع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1987 ، ص 131.
[6] ميويك ، المفارقة ، ص 26.
[7] السابق ، ص 27 ، 28.
[8] السابق ، ص 44.
[9] السابق ، ص 144 ، 145.
[10] د. سيزا إبراهيم ، المفارقة في القص العربي المعاصر ، مجلة فصول ، المجلد الثاني ، العدد الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1982 ، ص 147.
[11] ميويك / المفارقة وصفاتها ، ص 147.
[12] د. عبد الوهاب شعلان ، السرد العربي القديم ، البنية السوسيو ثقافية والخصوصيات الجمالية ، مجلة الموقف الأدبي ، العدد 413 ، السنة الخامسة والثلاثون ، اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، 2005 ، ص 134.
[13] د. نبيلة إبراهيم ، المفارقة ، ص 133.
[14] ميويك ، المفارقة ، ص 46 ، 47.
[15] د. نبيلة إبراهيم ، المفارقة ، ص 133.
[16] ميويك ، المفارقة ، ص 47.
[17] د. نبيلة إبراهيم ، المفارقة ، ص 133.
[18] ميويك ، المفارقة ، ص 166 ، 168 ، وانظر سهام حشيشي العشي ،المفارقة في مقامات الحريري ، رسالة ماجستير 2012 ، جامعة الحاج لخضر الجزائر ، ص 53
[19] د. نبيلة إبراهيم ، المفارقة ، ص 133.
[20] ميويك ، المفارقة ، ص 52.
[21] السابق ، ص 130.
[22] د. نبيلة إبراهيم ، المفارقة ، ص 132.
[23] المفارقة القرآنية ، ص 18 ، 19.
[24] المفارقة في القص العربي المعاصر ، ص 143.
[25] ميويك ، المفارقة ، ص 31.
[26] الزهراء حصباية ، المفارقة في الرواية العربية الحديثة ، رواية الثلج يأتي من النافذة " لحنا مينا " أنموذجا ، رسالة ماجستير 2015 ، جامعة المسيلة الجزائر ، ص 137.

[27] المفارقة في شعر الرواد ، ص 91.
[28] المفارقة في الرواية العربية الحديثة ، ص 13.
[29] ميويك ، المفارقة ، ص 66.
[30] د . نبيلة إبراهيم ، المفارقة ، ص 132.
[31] ميويك ، المفارقة ، ص 49.
[32] د. نجاة عرب الشيعة ، خصائص البناء النصي في كليلة ودمنة ، مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، العدد 396 ، السنة الرابعة والثلاثون ، ص 27.
[33] د. نبيلة إبراهيم ، المفارقة ، ص 135.
[34] ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، ت . محمد بن علي جيلاني ، ص 24.
[35] د. فاروق خورشيد ، أديب الأسطورة عند العرب ، جذور التفكير وأصالة الإبداع ، عالم المعرفة ، عدد 284 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، 2002 ، ص 120 .
[36] د. عبد الفتاح كيليطو ، الحكاية والتأويل ، دراسات في السرد العربي ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، د. ت ، ص 41 ، 42.
[37] المفارقة في قصص يوسف إدريس القصيرة ، ص 58.
[38] ميويك ، المفارقة ، ص 94.
[39] نوال بن صالح ، المفارقة في الأمثال العربية ، مجمع الأمثال للميداني أنموذجا ، رسالة دكتوراه ، جامعة بسكرة الجزائر ، 2012 ، ص 153.
[40] كليلة ودمنة ، ت عزام ، ص 102.
[41] المصدر السابق ، نفس الصفحة.
[42] كليلة ودمنة ، ت عزام ، ص 102.
[43] د. محمد الجابلي ، العقل والذاكرة ، منزع العقل في التراث الأدبي من ابن المقفع إلى أبي العلاء ، سلسلة فكرنا المعاصر ، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر ، سوسة ، د . ت ، ص 37.
[44] كليلة ودمنة ، ت حقيق د . محمد عزام ، ص 40.
[45] المصدر السابق ، نفس الصفحة.
[46] المصدر السابق ، ص 42 ، 43.
[47] المفارقة في قصص يوسف إدريس القصيرة ، ص 58.
[48] ميويك ، المفارقة ، ص 63 : 65.
[49] السابق ، ص 158.
[50] كليلة ودمنة ، ت عزام ، ص 198.
[51] السابق ، ص 205.
[52] السابق ، ص 208.
[53] عبد الله البهلول ، مصادر القوة الإقناعية في المثال المخترع ، باب البوم والغربان أنموذجا ، مؤسسة دراسات وأبحاث ، الرباط ، 2016 ، ص 17 ، 18.
[54] كليلة ودمنة ، ت د . محمد عزام ، ص 114.
[55] السابق ، نفس الصفحة.
[56] السابق ، ص 115.
[57] المصدر السابق ، نفس الصفحة.
[58] ميويك ، المفارقة ، ص 24.
[59] السابق ، ص 158.
[60] كليلة ودمنة ، ت . عزام ، ص 217 وما بعدها.

[61] ميويك، المفارقة ، ص 92 : 97.
[62] كليلة ودمنة ، ت . عزام ، ص 73 ، 74.
[63] السابق ، ص 83.
[64] المصدر السابق ، ص 168.
[65] المصدر السابق ، ص 313 : 318.
[66] المصدر السابق ، ص 318.
[67] ميويك ، المفارقة ، ص 78 ، 148.
[68] كليلة ودمنة ،ت . عزام ، ص 72 ، 73.
[69] السابق ، ص 172.
[70] السابق، ص 87.
[71] السابق ، ص 17 ، 18.
[72] د. أحمد درويش ، نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي ، دار غريب للطباعة والنشر ، 2002 ، ص 94.
[73] كليلة ودمنة ، ت . عزام ، ص 38
[74] ميويك ، المفارقة ، ص 168.
[75] السابق ، 87.
[76] السابق ، ص 94.
[77] المفارقة في قصص يوسف إدريس القصيرة ، ص 165.
[78] كليلة ودمنة ، ت . عزام ، ص 232.
[79] السابق ، ص 229 وما بعدها .
[80] نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي ، ص 97.
[81] أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط العاشرة ، د. ت ، ج 1 ، ص 217.
[82] كليلة ودمنة ، ت . عزام ، ص 84.
[83] د. إسماعيل محمد محمد ، جدلية السرد في كليلة ودمنة ، مجلة كتابات ، العدد الثاني ، الجمعية المصرية للدراسات السردية ، 2011 ، ص 264 .
[84] كليلة ودمنة ، ت . عزام ، ص 213.
[85] سعيدة بونقاب ، سيميائية الحكاية في مؤلف كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع ، رسالة ماجستير ، جامعة الحاج لخضر الجزائر ، 2012 ، ص 172 ، 173.
[86] كليلة ودمنة ، ت . عزام ، ص 336.
[87] السابق، نفس الصفحة.
[88] السابق ، ص 194.
[89] السابق ، نفس الصفحة.
[90] السابق، ص 196.

المصادر

❖ أحمد أمين
ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط العاشرة ، د. ت.
❖ د. أحمد درويش

نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي ، دار غريب للطباعة والنشر ، 2002.
❖ د. إسماعيل محمد محمد

جدلية السرد في كليلة ودمنة ، مجلة كتابات ، العدد الثاني ، الجمعية المصرية للدراسات السردية ، 2011.
❖ د . حسن يوسف
ظاهرة التأويل في النص الشعري ، دراسة نماذج من الشعر العربي القديم ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، ط الأولى 2013.
❖ د . سي . ميويك ،

المفارقة وصفاتها ، ضمن موسوعة المصطلح النقدي ، المجلد الرابع ، ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط الأولى 1993.
❖ الزهراء حصباية

المفارقة في الرواية العربية الحديثة ، رواية الثلج يأتي من النافذة " لحنا مينا " أنموذجا ، رسالة ماجستير ، جامعة المسيلة الجزائر ، 2015.
❖ سعيدة بونقاب

سيميائية الحكاية في مؤلف كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع ، رسالة ماجستير ، جامعة الحاج لخضر الجزائر ، 2012.
❖ سهام حشيشي العشي

المفارقة في مقامات الحريري ، رسالة ماجستير ، جامعة الحاج لخضر الجزائر 2012 .
❖ د. سيزا إبراهيم

المفارقة في القص العربي المعاصر ، مجلة فصول ، المجلد الثاني ، العدد الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1982.
❖ د. عبد الفتاح كيليطو

الحكاية والتأويل ، دراسات في السرد العربي ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، د. ت .
❖ عبد الله البهلول

مصادر القوة الإقناعية في المثال المخترع ، باب البوم والغربان أنموذجا ، مؤسسة دراسات وأبحاث ، الرباط ، 2016.
❖ عبد الله بن المقفع

كليلة ودمنة ، تحقيق د. عبد الوهاب عزام ، دار الشروق ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط الثانية ، 1981.
كليلة ودمنة ، تحقيق محمد بن علي جيلاني ، دار التوفيقية للتراث ، القاهرة 2010.

❖ د. عبد الوهاب شعلان

السرد العربي القديم ، البنية السوسيو ثقافية والخصوصيات الجمالية ، مجلة الموقف الأدبي ، العدد 413 ، السنة الخامسة والثلاثون ، اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، 2005.

❖ د. فاروق خورشيد

أديب الأسطورة عند العرب ، جذور التفكير وأصالة الإبداع ، عالم المعرفة ، عدد 284 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، 2002.

❖ د. قيس حمزة الخفاجي

المفارقة في شعر الرواد ، دار الأرقم للطباعة والنشر العراق ، ط الأولى 2007

❖ د. محمد الجابلي

العقل والذاكرة ، منزع العقل في التراث الأدبي من ابن المقفع إلى أبي العلاء ، سلسلة فكرنا المعاصر ، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر سوسة ، د . ت.

❖ د. محمد العبد

المفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ، دار الفكر العربي ، ط الأولى ، 1994.

❖ د. نبيلة إبراهيم

المفارقة ، مجلة فصول ، المجلد السابع ، العددان الثالث والرابع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1987.

❖ د. نجاة عرب الشيعة

خصائص البناء النصي في كليلة ودمنة ، مجلة الموقف الأدبي ، السنة الرابعة والثلاثون ، اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، العدد 396 ، 2554 .

❖ نجاة علي

المفارقة في قصص يوسف إدريس القصيرة ، ط المجلس الأعلى للثقافة ، 2009

❖ د. نعمان عبد السميع متولي

المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم دراسة تطبيقية ، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، ط الأولى ، 2014.

❖ د. نوال بن صالح

المفارقة في الأمثال العربية ، مجمع الأمثال للميداني أنموذجا ، رسالة دكتوراه ، جامعة بسكرة الجزائر ، 2012